المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
عمادة الدراسات العليا
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التاريخ

الحياة الاجتماعية في مدينة حلب

في العصر المملوكي

(٦٥٨-٩٢٣هـ/١٢٦٠-١٥١٧م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة

شروق سفر اللحياني

الرقم الجامعي / ٤٣٤٨٨١٠١

إشراف الأستاذ الدكتور

إبراهيم بن عطية الله بن هلال السُّلمي

١٤٤١هـ/٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــداء

إلى زوجي الذي دعمني طوال رحلة إنجاز هذه الدراسة فله مني وافر تقديري وامتناني.

شكر وتقدير

وافر شكري وامتناني للأستاذ الدكتور إبراهيم بن عطية الله بن هلال السُّلمي؛ لما قدمه لي من توجيه وإرشاد لإنجاز هذه الدراسة.

والشكر موصول لكل من مد لي يد العون لإخراج هذه الدراسة إلى النور.

ملخص الرسالة:

تتناول هذه الدراسة الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في العصر المملوكي (٦٥٨–٩٢٣هـ/١٢٦٠–١٥١٧م)، وقد انقسمت الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وملاحق، وقائمة بأهم المصادر والمراجع. وقد عالجت في التمهيد عرضًا لأهم الأوضاع العسكرية في حلب وتجلياتها الإيجابية والسلبية على الحياة الاجتماعية، ناهيك عن مناقشة طبيعة التقسيم الطبقي في حلب، وفقًا للاصطلاح الشائع في العصر المملوكي.

وعالج الباب الأول "عناصر السكان وطبقاتهم الاجتماعية في حلب" وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول، حيث عالجت في الفصل الأول "عناصر السكان في المجتمع الحلبي"بينما عالج الفصل الثاني "الطبقة الحاكمة" أهم أرباب وظائف السيف وفي مقدمتهم النائب الذي يُمثل السلطان المملوكي في حلب وينوب عنه هو ومعاونوه ومن دونهم، إضافة إلى دراسة أرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية، وكذا الجند الذين شكلوا القوة الضاربة في حلب؛ لتأمينها من جهة، ولتحقيق سياسة السلطنة في المنطقة المحيطة بمدينة حلب من جهة ثانية، بينما عالج الفصل الثالث "طبقة العامة" التي تشكلت من عامة الحلبيين، مثل: القضاة والعلماء والتجار والفلاحين وأهل الذمة، وغيرهم.

واحتوى الباب الثاني "دور فئات المجتمع في الحياة العامة" على فصلين، وقد عالج الفصل الأول "دور الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي" دور كل من الأمراء والوزراء والأعيان في الحياة العامة في مدينة حلب، أما الفصل الثاني " فئات العامة ودورهم في المجتمع" فتناول بالدراسة نقابات التجار والحرفيين، إضافة إلى دور أهل الذمة في الحياة العامة في المجتمع الحلبي، ودور العامة في توجيه الرأي العام في مدينة حلب، ومدى نجاحهم في التصدي للظلم والتعسف الذي تعرضوا له.

وانقسم الباب الثالث "حياة الأسرة في المجتمع الحلبي" إلى فصلين حيث عالج الفصل الأول "المساكن" مدى تطور العمارة في حلب، وتأثرها بالوضع العسكري والكوارث الطبيعية" في حلب والمنطقة المحيطة بها، ناهيك عن عرض أهم الملامح التي اتسمت بها مساكن الطبقة الحاكمة وأهم ما يميزها، وكذا مساكن العامة وأهم سماتها، فضلًا عن الزلازل وأثارها المدمرة على العمارة الحلبية. وتناولت في الفصل الثاني "الحياة العامة في المجتمع الحلبي" أهم العادات والتقاليد التي سادت في المجتمع الحلبي وخاصة الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة والملابس، ووسائل التسلية والترفيه ومجالس العلم والوعظ.

كما تناول هذا الفصل وضع الصحة العامة والنظافة وخاصة دور النواب في الاهتمام بالصحة العامة والنظافة من خلال العناية الصحية بأخلاق والسلوك المجتمعي والعناية بالبيئة، والعناية بالبيمارستانات والعناية بالحمامات العامة والخاصة. وشملت الدراسة خاتمة تضمنت أهم نتائج الدراسة التي توصلت إليها، علاوة على تضمن الدراسة مجموعة من الملاحق التي تضفي بعض الوضوح على عناصر الدراسة، وذيلت الدراسة بقائمة المخطوطات والمصادر والمراجع العربية والمعربة التي اعتمدت عليها في إعداد الدراسة.

Abstract

This study handles the social life in the city of Aleppo in the Mameluke era (658–923 AH / 1260–1517 AD). The study included an introduction, a preface, three sections, a conclusion, appendices, and a list of the most important sources and references. The preface handled the most important military conditions in Aleppo and its positive and negative manifestations on social life, as well as discussing the nature of class division in Aleppo, according to the terminology common in the Mameluke era.

The first chapter handled the elements of the population and their social classes in Aleppo. The first chapter handled the elements of the population in the Aleppo society, while the second chapter handled the most important employees of the sword, especially the deputy representing the Mameluke Sultan in Aleppo and his deputies, in addition to the study of the heads of the Diwaniyah and religious functions, as well as the soldiers who formed the strike force in Aleppo; In order to secure it on the one hand as well as to achieve the Sultanate's policy in the area around the city of Aleppo on the other hand. The third chapter handled the "public class", which was formed by the peoples of Aleppo, such as judges, scholars, traders, peasants, dhimmis, and others.

Chapter two handled “The Role of Community Groups in Public Life”, including two topics; the first one, “The Role of the Ruling Groups in Aleppo Society,” addresses the role of princes, ministers and dignitaries in public life in Aleppo. The second topic included the classes of common people and their role in society including trade unions and tradesmen, in addition to the role of the dhimmis in public life in Aleppo society, and the role of the public in directing public opinion in Aleppo city, and the extent of their success in addressing the injustice and abuse they have been subjected to.

The third chapter handled “Family Life in Aleppo Society”, including two topics. The first one handled “Housing”, including the development of architecture in Aleppo and its impact on the military situation and natural disasters in Aleppo and the surrounding area, as well as the most important features that characterized the houses of the ruling class and the most important characteristic, public housing and the most important features, as well as earthquakes and their devastating effects on Aleppo architecture. Topic two handled "Public life in Aleppo society" including the most important customs and traditions that prevailed in Aleppo society, especially celebrations, festivals, various occasions, clothing, entertainment, recreational, Science and preaching councils.

This chapter also handled the situation of public health and hygiene, especially the role of deputies in the interest of public health and hygiene through health care ethics and social behavior and care for the environment, care for hospitals and care for public and private baths. The study included a conclusion that included the most important findings of the study, in addition to a set of appendices that give some clarity to the elements of the study. The study included list of Arabic and non-Arabic manuscripts, sources and references which relied on in the preparation of the study.

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم
• الإهداء	ب
• الشكر	ت
• الملخص اللغة العربية	ث
• الملخص اللغة الانجليزية	ج
• مقدمة	٢
• التمهيد	٧
الباب الأول: عناصر السكان وطبقاتهم الاجتماعية في حلب.	١٧
الفصل الأول: عناصر السكان في المجتمع الحلبي.	١٨
الفصل الثاني: الطبقة الحاكمة:	٢٦
– أولًا: أرباب وظائف السيف.	٢٨
– ثانيًا: أرباب الوظائف الديوانية.	٣٤
– ثالثًا: أرباب الوظائف الدينية.	٣٧
– رابعًا: الجند.	٤٠
الفصل الثالث: طبقة العامة:	٤٤
– أولًا: القضاة والعلماء.	٤٤
– ثانيًا: التجار.	٤٧

- ثالثًا: الفلاحون. ٤٨
- رابعًا: أهل الذمة. ٥٠

الباب الثاني : دور فئات المجتمع في الحياة العامة. ٥٥

الفصل الأول: دور الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي: ٥٦

- أولًا: دور نواب حلب في المجتمع الحلبي. ٥٦
- ثانيًا: الأمراء ودورهم في الحياة العامة. ٥٨
- ثالثًا: الوزراء ودورهم في الحياة العامة. ٥٩
- رابعًا: أعيان حلب ودورهم في الحياة العامة. ٦٠

الفصل الثاني: فئات العامة ودورهم في المجتمع: ٦١

- أولًا: التجار والحرفيون. ٦١
- ثانيًا: أهل الذمة. ٦٢
- ثالثًا: دور فئات العامة في الحياة العامة وفي توجيه الرأي العام. ٦٥

الباب الثالث: حياة الأسرة في المجتمع الحلبي. ٧٥

الفصل الأول: المساكن: ٧٦

أولًا: تطور العمارة في حلب، وتأثرها بالوضع العسكري والكوارث الطبيعية. ٧٦

- ثانيًا: مساكن الطبقة الحاكمة. ٧٨
- ثالثًا: مساكن العامة. ٨١
- رابعًا: الزلازل وآثارها المدمرة على العمارة الحلبية. ٨٤

الفصل الثاني: الحياة العامة في المجتمع الحلبي.	٨٥
– أولًا : العادات والتقاليد:	٨٥
١) الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة.	٨٥
٢) الملابس.	٨٩
٣) وسائل التسلية والترفيه.	٩٢
٤) مجالس العلم والوعظ.	٩٦
– ثانيًا: الصحة العامة والنظافة:	٩٧
١) العناية الصحية بالأخلاق والسلوك المجتمعي.	٩٧
٢) العناية الصحية بالبيئة.	٩٨
٣) العناية بالبيمارستانات.	١٠٢
٤) الحمامات العامة والخاصة.	١٠٦
الخاتمة	١١٣
الملاحق	١١٧
المصادر والمراجع	١٢٨

المقدمة

المقدمة

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا فيه، وصلاة وسلامًا على خير الخلق والمرسلين نبينا محمد الهادي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسلم وبعد،،،،

تتناول هذه الدراسة الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في العصر المملوكي (٦٥٨–٩٢٣هـ/١٢٦٠–١٥١٧م)، ولهذا الموضوع أهمية كبيرة في التعرف على طبيعة الحياة الاجتماعية في مدينة حلب في تلك الحقبة المهمة من تاريخ السلطنة المملوكية، وذلك لما حظيت به مدينة حلب من خصوصية داخل التقسيم الإداري في السلطنة المملوكية، بما يُؤدي إلى إبراز الخصوصية المحلية التي غالبًا ما تضيع داخل ما هو عام ومشترك بين كافة نيابات سلطنة المماليك، وخاصة أن حلب كان لها إنتاج حضاري كبير في النواحي الاقتصادية والعلمية بعامة، والنواحي الاجتماعية – موضوع الدراسة – خاصة.

وكان لموقع حلب دور كبير في تلك الأهمية، حيث كانت مدينة حلب عاصمة لمملكة شمال بلاد الشام في العصر المملوكي، وضمت المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط غربًا إلى نهر الفرات شرقًا، ومن بلاد الروم في الشمال إلى حدود منطقة حماة في الجنوب، وبهذا تكون مملكة حلب قد شكلت الحدود الشمالية للدولة المملوكية، وحملت على كاهلها حماية تلك المنطقة من المغول والأرمن والتركمان والبدو وغيرهم؛ لأنها كانت أكثر مدن سلطنة المماليك تعرضًا للغزوات والغارات فضلًا عن تعرضها لكثير من حركات التمرد والعصيان الداخلية، ولعل مما فرض عليها هذا الواقع موقعها الفذ على الطريق الرئيس بين إقليم الجزيرة شرقًا من أقاليم آسيا الوسطى من ناحية وشمال الشام وأقاليم شرق حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى؛ مما جعل منها مقصدًا للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وواحدة من أهم معابر الغزاة والفاتحين، ومحطة مؤثرة للمسافرين والعلماء والفقهاء والرحالة، وفي ظل تلك الملابسات تحمل الحلبيون ما يفوق طاقهم وعانوا كثيرًا من الصعوبات التي ترتبت على أهمية موقع مدينتهم، وخاصة مع سعيهم للاحتفاظ بكيانهم سواء كان هذا الكيان مستقلًا أم تابعًا لقوة أخرى أكبر.

ولا ريب أن البحث في الحياة الاجتماعية ليس أمرًا سهلًا، وتكمن الصعوبة في قلة المادة العلمية المصدرية، علاوة على تناثرها في المصادر وتشتتها وإيجازها؛ وذلك لأن المصادر المعاصرة التزمت منهجًا في عرض المادة التاريخية ركز على إبراز صورة السلاطين والأمراء والخاصة ومن دار في فلكهم من فئات المجتمع

الحلبي وعناصره، وفي ذلك الفلك الخاص قل الاهتمام بالحياة الاجتماعية، وأهم مظاهرها في المجتمع الحلبي البعيد عن القاهرة عاصمة المماليك ومحور اهتمام المؤرخين، فلم تكن حلب عاصمة السلطنة، ولم تكن المدينة الأولى فيها على غرار القاهرة أو المدينة الثانية على شاكلة دمشق؛ ولذا كان من الصعب الوقوف على مادة علمية تاريخية تخدم الباحثة في دراستها للحياة الاجتماعية في المدينة، بما يعكس حياة الحلبيين في حلب وقراها في أعيادهم واحتفالاتهم وبيوتهم ووسائل تسليتهم وترفيههم...إلخ.

وتتمثل الصعوبة الثانية في عدم اهتمام المؤرخين بالفئات الاجتماعية الأخرى من المسلمين وغير المسلمين من أهل الذمة وأوضاعهم الاجتماعية، ناهيك عن كون تلك المنطقة المحيطة بحلب – والتي تُعتبر المدخل الشمالي الشرقي لسلطنة المماليك – لم تشهد استقرارًا طيلة قرن وربع من الزمان؛ لأنها صارت مسرحًا للحروب المتعددة بين المماليك والمغول، وتزامن ذلك مع الصراع ضد الأرمن والحروب بين القبائل العربية والتركمانية نفسها، وبينها وبين السلطنة من جهة وحلب من جهة أخرى.

وواجهت حلب في تلك الفترة العصيبة مصيرها أمام تقدم المغول بشكل خاص في أغلب هجماتهم على بلاد الشام، ولم يتم ترميم الحصن والأسوار التي أصيبت بأضرار فادحة في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م سوى في نهاية القرن التالي، فكانت حالة مدينة حلب في منتصف ذلك القرن مُزرية؛ فبسبب تعرضها المباشر للجبهتين الشرقية والشمالية، واحتلالها من قبل المغول مرات ثلاث تحولت إلى حاله فقر مُدقع في عام ٦٥٨هـ/١٣٦٠م، وتهدم الحصن والأسوار والجامع الكبير وبعض الأبنية المحيطة، وفي عام ٦٧٩هـ/١٢٧٠م جرى نهب الجوامع ومنازل الأمراء وقصور السلاطين وإحراقها.

ومن الدراسات السابقة في هذا الموضوع، دراسة جورج فريد طريف داود بعنوان "مدينة حلب في العصر المملوكي"( )، وتناول في تلك الدراسة مدينة حلب من النواحي السياسية والحضارية في العصر المملوكي، ولم يخصصها للنواحي الاجتماعية التي أهدف إلى دراستها بشكل منفصل ومركز. وعلاوة على ذلك فإن هناك دراسة زياد عبد العزيز المدني بعنوان "مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب "الدر

(١) جورج فريد طريف داود: مدينة حلب في العصر المملوكي، ماجستير تاريخ إسلامي، الأون،١٩٧٧ص ٣ ٤ ٦٩ ١.

المنتخب في تكملة تاريخ حلب"علاء الدين أبو الحسن ابن خطيب الناصرية( )، وقد ركزت هذه الدراسة على العصر الثاني، وعالجت كافة المظاهر السياسية والحضارية في مدينة حلب، ومن خلال الرؤية التي قدمها ابن خطيب الناصرية عن مدينة حلب، وقد قارنت الباحثة بينه وبين المصادر الأخرى المعاصرة. وشبيه بها دراسة مروان أحمد دخان بعنوان "حلب في العصر المملوكي الثاني"( )، ولكن من خلال كافة المصادر المملوكية.

أما دراسة كمال بدور التي حملت عنوان "حلب في العصر المملوكي الأول"( ) فإنها على العكس من ٣
الدراستين السابقتين اللتين ركزتا على دراسة العصر المملوكي الأول وتناولت فيها الباحثة كافة النواحي السياسية والحضارية في حلب. أما دراسة عادل عبد الحافظ حمزة بعنوان "نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (٦٥٨-٩٢٢هـ/١٢٦٠-١٥١٦م)( ) فقد تناولت تاريخ نيابة حلب طوال العصر المملوكي، وعكف فيها على دراسة الأوضاع السياسية والحربية والإدارية وبعض النواحي الحضارية في نيابة حلب طوال العصر المملوكي.

وقد أفادت الباحثة من هذه الدراسات الرائدة وبخاصة في منهج المعالجة والأفكار التي طرحتها، علاوة على الوقوف على المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، ولكنني أسعى إلى تسليط الضوء على النواحي الاجتماعية وحدها، بهدف إبراز ما به من خصوصية وتفرد وتميز نتيجة للظروف التي مرت بها حلب والتي عرضت لها أعلاه. وفي ظل ذلك فقد حرصت الباحثة على دراسة الحياة الاجتماعية في تلك الفترة المضطربة لتقديم صورة متكاملة عن الحياة الاجتماعية لسكان حلب من حيث طبقاتهم الاجتماعية وعناصرهم وفئاتهم الاجتماعية وعلاقتهم بعضهم البعض داخل المجتمع الحلبي، ناهيك عن دراسة أهم عاداتهم وتقاليدهم ومستوى معيشتهم وما إلى ذلك بما يُسلط الضوء على صورة المجتمع بصورة واضحة في تلك الفترة المهمة.

(١) زياد عبد العزيز المدني: مدينة حلب في العصـــر المملوكي الثاني من خلال كتاب "الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب" علاء الدين أبو الحسن ابن خطيب الناصرية، ماجستير تاريخ إسلامي، كلية الآداب، الجامعة الأردنية،١٩٨٣م ص ٣ ٢٣٢.

(٢) مروان أحمد دخان: حلب في العصر المملوكي الثاني، دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق ، ٢٠٠٩م، ٥٠١.

(٣) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي الأول، ماجستير تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، سوريا،٢٠٠٢م ص ٩٧ ٢٤٦.

(٤) عادل عبد الحافظ حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك(٦٥٨ ٩٢٢هـ/١٢٦٠ ١٥١٦م)، ٢ج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م ص ٦- ٤ ٢ ٢.

ولا ريب في أن مدينة حلب – باعتبارها قاعدة للمملكة الحلبية –كانت مركزًا رئيسًا لأهم الحوادث التي وقعت في شمال بلاد الشام، ولذا وفي ظل تلك الملابسات فقد باتت الإشارات التي وقفت عليها الباحثة قليلة ومتناثرة، وخاصة أن تلك من أهم الصعوبات التي يواجهها الباحث في الحقل الحضاري، حيث تتفرق المعلومات بين معاجم الجغرافيا، وكتب التراجم والتاريخ ودواوين الشعر وغيرها، فضلًا عن ما يترتب على طبيعة الدراسة في الحقل الحضاري من الاستنتاج والقياس والاستنتاج للوصول إلى صورة متكاملة ومعبرة عن المجتمع الحلبي في العصر المملوكي.

وانقسمت الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وملاحق، وقائمة بأهم المصادر والمراجع. وقد تناولت في التمهيد عرضًا لأهم الأوضاع العسكرية في حلب وتجلياتها الإيجابية والسلبية على الحياة الاجتماعية، ناهيك عن مناقشة طبيعة التقسيم الطبقي في حلب، وفقًا للاصطلاح الشائع في العصر المملوكي.

وعالج الباب الأول "عناصر السكان وطبقاتهم الاجتماعية في حلب" وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول، حيث تناولت في الفصل الأول "عناصر السكان في المجتمع الحلبي" أهم العناصر السكانية التي توطنت في حلب مثل العرب والبدو والتركمان والأكراد والأرمن ومن سواهم. بينما أشتمل الفصل الثاني "الطبقة الحاكمة" أهم أرباب وظائف السيف وفي مقدمتهم النائب الذي يُمثل السلطان المملوكي في حلب وينوب عنه هو ومعاونوه ومن دونهم، إضافة إلى دراسة أرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية، وكذا الجند الذين شكلوا القوة الضاربة في حلب؛ لتأمينها من جهة، ولتحقيق سياسة السلطنة في المنطقة المحيطة بمدينة حلب من جهة ثانية، بينما أشتمل الفصل الثالث "طبقة العامة" التي تشكلت من عامة الحلبيين، مثل: القضاة والعلماء والتجار والفلاحين وأهل الذمة، وغيرهم.

واحتوى الباب الثاني "دور فئات المجتمع في الحياة العامة" على فصلين، وقد أشتمل الفصل الأول "دور الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي" دور كل من الأمراء والوزراء والأعيان في الحياة العامة في مدينة حلب، أما الفصل الثاني " فئات العامة ودورهم في المجتمع" فتناول بالدراسة نقابات التجار والحرفيين، إضافة إلى دور أهل الذمة في الحياة العامة في المجتمع الحلبي، ودور العامة في توجيه الرأي العام في مدينة حلب، ومدى نجاحهم في التصدي للظلم والتعسف الذي تعرضوا له.

وانقسم الباب الثالث "حياة الأسرة في المجتمع الحلبي" إلى فصلين حيث أشتمل الفصل الأول "المساكن" مدى تطور العمارة في حلب، وتأثرها بالوضع العسكري والكوارث الطبيعية" في حلب والمنطقة المحيطة بها، ناهيك عن عرض أهم الملامح التي اتسمت بها مساكن الطبقة الحاكمة وأهم ما يميزها، وكذا مساكن العامة وأهم سماتها، فضلًا عن الزلازل وأثارها المدمرة على العمارة الحلبية. وتناولت في الفصل الثاني "الحياة العامة في المجتمع الحلبي" أهم العادات والتقاليد التي سادت في المجتمع الحلبي وخاصة الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة والملابس، ووسائل التسلية والترفيه ومجالس العلم والوعظ.

كما تناول هذا الفصل وضع الصحة العامة والنظافة وخاصة دور النواب في الاهتمام بالصحة العامة والنظافة من خلال العناية الصحية بأخلاق والسلوك المجتمعي والعناية بالبيئة، والعناية بالبيمارستانات والعناية بالحمامات العامة والخاصة. وشملت الدراسة خاتمة تضمنت أهم نتائج الدراسة التي توصلت إليها، علاوة على تضمن الدراسة مجموعة من الملاحق التي تضفي بعض الوضوح على عناصر الدراسة، وذيلت الدراسة بقائمة المخطوطات والمصادر والمراجع العربية والمعربة التي اعتمدت عليها في إعداد الدراسة.

وأخيرًا فإنني أحمد الله عز وجل على توفيقه وسداده، ولا يفوتني التقدم بوافر الشكر والعرفان لأستاذي الدكتور إبراهيم بن عطية الله بن هلال السُّلمي لكل ما قدمه لي من توجيه وإرشاد؛ حتى خرجت هذه الدراسة إلى النور. كما أتقدم بالشكر والعرفان لجامعتي الشامخة "أم القرى" حفظها الله وأساتذتها وطلابها لإتاحتها الفرصة لي لألتحق ببرنامج الماجستير في التاريخ الإسلامي، كما لا يفوتني تقديم الشكر والعرفان لأساتذتي في قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية لدعمهم وعونهم ولكل من ساعدني بغية إنجاز هذه الرسالة.

ولا أدَّعي الكمال؛ لأني إنسان يجتهد وفي الاجتهاد توفيق مثلما فيه إخفاق، والله أسأل أن يكلل اجتهادي بالتوفيق والسداد، وأن تكون دراستي من صنوف العلوم النافعة لي ولغيري في الدنيا والآخرة، وبالله التوفيق والسداد.

الباحثة **المشرف** **عميد الكلية**

شروق بنت سفر بن عطيه الله اللحياني **د. أبراهيم بن عطيه الله السلمي** **أ د .الشيخ رائد بن خلف العصيمي**

التمهيد

الوضع السياسي والعسكري وأثره على الحياة الاجتماعية في حلب في العصر المملوكي.

يُعد عصر سلاطين المماليك من الفترات المهمة في تاريخ المنطقة العربية والعالم الإسلامي عمومًا، وفي مصر والشام خصوصًا، وذلك لأنه يمثِّل مُنعطفًا مُهمًا وخطيرًا في تاريخ المنطقة بعدما نجح المماليك في السير على خطى سادتهم من سلاطين الأيوبيين واستكملوا الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام المماليك بالتصدي للمغول – جنبًا إلى جنب مع جهادهم ضد الصليبيين. ونجح المماليك في التخلص من الصليبيين في النهاية في عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون(١)، مثلما نجحوا في التصدي لهجمات المغول على يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(٢).

وهذا يعني أن المجتمع الإسلامي عامة والمجتمع الحلبي خاصة عانى من كثير من الصعوبات السياسية والعسكرية نتيجة للتوتر والقلق الذي أرق المجتمع الحلبي بسبب موقعه المميز؛ مما عرض مدينة حلب إلى الكثير من هجمات القوى المعادية. ونظرًا لأن الأوضاع السياسية والعسكرية كان لها دور مهم ومؤثر على النواحي الاجتماعية في مدينة حلب فإن عرض الضغوط الحربية التي واجهتها المدينة يُوضح كثيرًا من ملامح الأحوال الأوضاع الاجتماعية في حلب في فترة الدراسة.

حرص المسلمون الأوائل على التوجه إلى مدينة حلب وفتحها سنة ١٥هـ/٦٣٧م؛ وذلك بسبب موقعها المميز في شمال بلاد الشام، ثم تعاقب على حكمها بعض الأنظمة السياسية بداية من الأمويين والعباسيين، ووصولًا إلى فرض المماليك سلطانهم عليها(٣). وقد بسط المماليك سيادتهم على حلب بعد

(١) الأشرف خليل بن قلاوون: فترة حكمه – (٦٩٣هـ ٦٨٩هـ)(١٢٩٠م – ١٢٩٣م)السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، ولد سنة(٦٦٣هـ ٦٩٣هـ)(١٢٦٧م ٢٩٣+)، مدة حكمة ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام تفي ثاني المحرم سنة، ودفن بالقاهرة ،السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي(٢/٢١٧).

(٢) الناصر محمد بن قلاوون: فترة حكمه – (٦٩٤هـ ٦٩٣هـ) ،(٧٠٨هـ ٦٩٨هـ) ،(٧٤١هـ ٧٠٩هـ).السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، ولد بالقاهرة(٦٨٤هـ ٧٤١هـ)(١٢٨٥م ١٣٤٠م).،السلوك لمعرفة دول الملوك(٢/٣١٣).

(٣) صالح القائد المسلم عياض بن غنم الحلبيين على تسليم مدينتهم سنة ١٥هـ/٦٣٧م، فطلبوا الأمان على أنفسهم وأولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم وقلعتهم، وقد وافقهم القائد عياض على شروطهم وبسط المسلمون سيادتهم على حلب. وخضعت حلب لسيادة الخلافة الأموية سنة ٤١هـ/٦٦١م، وتبعهم في حكمها بنو العباس حتى سنة٣٣٣هـ/٩٤٤هـ، وتلاهم في حكمها بنو حمدان ثم بنو مرداس سنة

صـــراع مرير بينهم وبين المغول الذي عرض حلب لســـيل من الهجمات؛ فبعد دخول المغول بغداد ســـنة ٦٥٦هـــ/١٢٥٨م فإنهم تحركوا صوب حلب بعد فرار الملك الناصر يوسف( ). حفيد صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق سنة ٦٥٨هـــ/١٢٥٩م، ولذلك استولى المغول على حلب وأعمالها بسهولة بالغة، وعلى الرغم من تسـلم هولاكو( ). للمدينة بالأمان فإنه غدر بأهلها وأعمل فيهم القتل والسـبي، علاوة على قيام المغول بتخريب أسوار حلب وصوامعها وبساتينها وعانت المدينة من ذلك الوضع لفترة طويلة تالية( ). ٣

على أنه ترتب على انســحاب المغول من حلب بعد هزيمتهم في عين جالوت ســقوط نفوذ الدولة الأيوبية في بلاد الشـام عامة وفي حلب خاصـة مثلما سـبق وسـقطت دولة الأيوبيين في مصـر وهو أمر أراح المماليك كثيرًا؛ ولذلك طاردوا المغول الفارين من عين جالوت في أنحاء الشـــام ونجح المماليك في بســـط نفوذهم على المدن الشامية وبخاصة مدينة حلب، ومنذ تلك اللحظة دانت حلب بالتبعية لسلطنة المماليك.

وعين السلطان المملوكي قطز (٦٥٨ــ٦٥٩هـــ/١٢٥٩-١٢٦٠م) . الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صـاحب الموصـل في نيابة حلب ليكون عينًا للمماليك على المغول وذلك بسـبب قرب بلاده منهم،

٤٠٢هـ/١٠١١م الذين اتخ وا منها عاصمة لملكهم، وانتهى حكم بني مرداس لحلب سنة٤٦٣هـ/١٠٧٠م على يد السلاجقة. ونجت حلب من الحملات الصـليبية التي اسـتهدفت بلاد الشـام بخلاف كل من الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس وعدد آخر من المد ن والموانى الشـامية التي سقطت في أيديهم. انظر في ذلك: البلاذ ي، أبي العباس أحمد بن يحي بن جابر (ت٢٧٩هـــ/٨٩٢م): فتوح البلدا ن، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشـر للجامعيين ٩٩ ٢٠٠٢؛ ابن العديم، كمال الدين أبي القاسـم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـــ/١٢٦١م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٣، دمشق ص ص ٢ ٥٥،٦٧،٦٨٦ ٩٤،٧٥٧٤،٨٩،٤٧٥٠١،١٥٧-١٥٨،١٨٢٨١،١٢٩٣٠٢،٣٢٣٤٢،٤٨٤٩٢،٥١٢٥٢،٥٣٣٥٢،٥٦٢؛ أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل صـــاحب حماة (ت:٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، جـ٤،بيروت، (د.ت)ص ص ٣ ٦،٦٦،٠٠٢،١٠١٩،١٢٠١،١٦٨،١٧٠-١٧١؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢ص ص ٣ ٩، ٥ ١١.

(١) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الظاهر بن العزيز بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، فترة حكمه – (٦٥٩ ٦٤٣)(١٢٤٥ ١٢٦٠م)، (٦٥٩ ٦٢٧هـ)(١٢٦٠ ١٢٢٩م).

الهمذاني –جامع التواريخ –رشيد الدين فضل الله الهمذاني (٧١٨ ١٢٤٧م) –المحقق : محمد صادق نشأت – دار النشر –دار احياء الكتب (٢/ ٣١٦).

(٢) هولاكو خ ن،بن طولي خ ن بن تولي ي خ ن حاكم مغولي(٦١٧ ١٢٦٥م) ، دفن في جزيرة إسلامي في بحيرة ورميا

(الهمذاني –جامع التواريخ) (٢/ ١/ ١٢٠)

(٣) أبو الفدا: المختصر، جـ٣ص ص ٠٠ ٢٠١٢؛ ابن الوردي (عمر بن مظفر الدين بن محمد بن أبي الفوارس، ت:٦٤٩هـ/١٣٤٨م): تاريخ ابن الوردي، جـ٢، المطبعة الوهبية، القاهرة،١٨٤٢م ص ص ٢ ٠ ٢.

وبذا يُعد الملك السعيد أول نائب لمدينة حلب في عصر سلاطين المماليك. وتعرضت مدينة حلب في الفترة التالية للغزو المغولي أكثر من مرة[١]، وكان غزوها مقدمة لسلسلة من المعارك التي وقعت بينهم وبين المماليك على فترات متباعدة ربما على مدار نصف قرن، وحملت تلك المعارك اسم معارك حمص[٢].

وقد بدأ ذلك الصراع بين الجبهتين بقيام المغول بمهاجمة مدينة حلب سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، وعلى الرغم من الأمان الذي منحه المغول للحلبيين فإنهم غدروا بهم وقتلوا بعضهم مما اضطر بعضهم إلى الفرار من حلب. وواصل المغول تقدمهم إلى الجنوب واصطدموا بالمماليك في معركة حمص الأولى[٣]. وحينما انتصر عليهم المماليك فإن المغول فروا إلى الشمال ودخلوا حلب وأخرجوا أهل المدينة من بيوتهم وقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم الآخر ونهبوا البيوت، واستمر الحال على ذلك لمدة أربعة أشهر تفشى فيها الغلاء وارتفعت الأسعار وقلت الأقوات في الأسواق وعانى الحلبيون من أوضاعهم المعيشية السيئة[٤].

---

(١) لم يتوقف المغول عن مهاجمة بلاد الشام بعد معركة عين جالوت ولم يتوقف المماليك عن الخروج لصدهم عنها، ونتج عن ذلك وقوع ثلاث معارك كبرى بين الطرفين حملت اسم معارك حمص انتصر المماليك في الأولى والثانية وانهزم المماليك في الثالثة، وقد تأثرت حلب بالمعارك الثلاث بسبب وقوعها في أقصى شمال شرق حدود ولة المماليك مما جعلها ممرًا لحملات المغول إلى قلب بلاد الشام حيث تقع حمص. عن تفاصيل مقدمات معارك حمص الثلاث انظر: النويري، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت فواز، ج٢٩، دار الكتب العلمية،بيروت- لبنان،٢٠٠٤م، ص١٢٢؛ ج١٣، ص١٢٠؛ ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله، ت:٧٣٣هـ/١٣٢١م): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولوخ هارمان، ج ٩، المعهد الألماني، القاهرة،١٩٧١م، ص١٣-١٤؛ المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي (ت:٨٤٥هـ/١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: سعيد عاشور، ج١ق ٣،، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٥٦-١٩٥٨م، ص٧٤٥-٧٧٨؛ وأيضًا: السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، ١٩٨٦م، ص٢٦٢-٢٦٤؛ منذر الحايك: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، ج٢،أوائل للنشر والتوزيع، دمشق،١٩٩٦م، ص٦-٩.

(٢) حدثت أول معارك حمص في ٥ من محرم٦٥٩هـ/١٠ من ديسمبر١٢٦٠م وعُرفت باسم معركة حمص الأولى، وبعد حوالي ٢١ عامًا وقعت معركة ثانية بين الطرفين حملت اسم حمص الثانية في ١٤ من رجب ٦٨٠هـ/٢٩ من أكتوبر ١٢٨١م، وبعد حوالي ١٨ عامًا وقعت معركة ثالثة حملت اسم حمص الثالثة عام ٢٨ من ربيع الأول٦٩٩هـ/٢٣ من ديسمبر١٢٩٩م . انظر: النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩، ص١٢٢-٢٤٢؛ ج١٣، ص١٢٠؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص٣٠٤-٤١٢؛ المقريزي: السلوك ج١ق٣، ص٧٤٥-٧٧٨، ٨٧٥-٨٧٧.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج١٣، ص١٢٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج٨، ص٣٠٨-٤٦٩؛ اليافعي (أسعد بن علي بن سليمان ت٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل منصور، ج٤، دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٧م، ص٤-١٠.

(٤) أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص٢٠٨؛ المقريزي: السلوك، ج١ص٥٦٤.

ولم يخرج المغول من حلب سوى حينما أخبرهم الصليبيون بأن جيشًا مملوكيًا كبيرًا في طريقه إلى حلب لمحاربتهم، فخرج المغول من حلب في الوقت الذي تقدم فيه أمراء المماليك إليها وتسلموها[1]. وعاود المغول مهاجمة المدينة بعد ثماني سنوات أي عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م في سلطنة المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)[2]. وهو الأمر الذي اضطر الحلبيون إلى الرحيل عن مدينتهم حينما وصلت إليهم أخبار الاعتداءات التي قام بها المغول في طريقهم إلى حلب فدخلها المغول. وحينما وصل الجيش المملوكي فإنه التقى بالمغول وانتصر المماليك مما دفع المغول للفرار إلى الشرق من حلب في طريقهم إلى الفرات. ولم يكد يمر عام واحد حتى هاجم المغول مدينة حلب واحتلوها مرة ثانية، وشجعهم على ذلك خلو المدينة من العساكر فعاثوا فيها فسادًا وأحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء واستباحوا المدينة على مدار يومين كاملين، ولم يسلم من الحلبيين سوى من فر منهم واختفى في الكهوف. ثم تراجع المغول عن حلب لعلمهم باتفاق الجيش المملوكي في مصر والشام على التحرك ضدهم. وكان من نتيجة ما سبق أن المغول والأرمن والصليبيين والكرج اتفقوا على غزو حلب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وحينما واصلوا زحفهم صوب الجنوب فإنهم التقوا بالمماليك فيما يُعرف تاريخيًا بمعركة حمص الثانية، وجرت المعركة قريبًا من سلمية وانهزم المغول وعادوا إلى شرق الفرات والمماليك يطاردونهم، وقد زحف الأرمن بعد هزيمتهم إلى حلب

(١) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: جمال محمد وفهيم شلتوت، جـ٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٩٠ ١؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٣١، ص ١ ٢٢٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ص ٨ ٦- ٩ ٦.

(٢) هو المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي أحد أشهر سلاطين المماليك البحرية ، فترة حكمه -(٦٨٩ ٦٧٨هـ)(١٢٧٩ ١٢٩٠م). توفي السلطان قلاوون بقلعة الجبل بالقاهرة في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة(٦٨٩ ٢١هـ)(١٢٩٠ ١٢٢٤م).

السلوك للمقريزي(١/ ١٢٠).

وأحرقوا مسجدها الجامع، ثم توقفت من بعدها هجمات المغول لمدة تسعة عشر عامًا[١]. وترتب على معركة حمص الثانية نجاة بلاد الشام من أيدي المغول وإلا ضاعت للأبد بما في ذلك حلب[٢].

وتعرضت حلب مرة أخرى لمهاجمة المغول بقيادة غازان بن أرغون (٦٩٥-٧٠٤هـ/١٢٩٥-١٣٠٤م)[٣]. في حملته على بلاد الشام، فاستولى على حلب وحماة ونزل بجيشه في وادي مجمع المروج. وتحرك إليهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثانية (٧٠٨-٦٩٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م) وجرت معركة كبيرة في وادي الخازندار تُعرف بمعركة حمص الثالثة وانتصر فيها المغول، وهي الهزيمة الأولى للمماليك على يد المغول منذ معركة عين جالوت، وتقدم المغول صوب دمشق واحتلوها، وقام غازان بتعيين الأمير بكتمر على حمص وحلب في حين عاد غازان إلى بلاده[٤].

ونجح المماليك بعد عام واحد في استرداد كل من دمشق وحلب، وعين السلطان الناصر محمد في نيابة حلب الأمير قرا سنقر[٥]. بيد أن غازان لم يستسلم بسهولة وقرر التحرك إلى الشام، وحينما علم الحلبيون بقدومه هربوا إلى الجنوب ومعهم نائبهم قرا سنقر، وهنا عاث المغول في حلب وأنطاكية وغيرهما، ونهبوا الدواب والأغنام والأبقار، وسبوا الرجال والنساء والصبيان من أهالي حلب ونواحيها[٦].

ووقعت آخر غزوات المغول لمدينة حلب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م حينما اجتاز الخان المغولي قطلو شاه نهر الفرات مما اضطر أهالي مرعش وماجاورها إلى الفرار إلى حلب، وبعدها بقليل أغار المغول على

---

(١) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية والدولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ط ١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣م، ص ٣٠٧.

(٢) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٧م، ص ٣٨٢؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م): تاريخ ابن الفرات (الدول والملوك)، تحقيق: قسطنطين رزيق، م ٧، بيروت، ١٩٣٦م، ص ١٢٠.

(٣) هو السلطان محمود غازان بن أرغون بن أباقا (أبغا) بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان، فترة حكمه -(٦٩٤ ٧٠٣هـ)-(١٢٩٤ ١٣٠٣م)،(٦٦٣ ٧٠٣هـ) (١٢٦٤ ١٣٠٣م)،المقريزي- السلوك (٣/ ٤٧٤)

(٤) أبو الفدا: المختصر، ج٤ص ٤٥؛ المقريزي: السلوك، ج١ص ٨٠٩ ٩٠٩.

(٥) هو قراسنقر المنصوري، وفاته بمراغة التي كان حاكما لها وله نحو تسعين سنة .

البداية والنهاية -إسماعيل بن عمر بن كثير -الناشر- مكتبة المعارف -بيروت- ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) -(١٤/ ٦١)

(٦) أبو الفدا: المختصر، ج٤ص ٤٥؛ المقريزي: السلوك، ج١ص ٨٠٩ ٩٠٩؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢ص ٢٤٩.

التركمان غربي حلب، فخرج إليهم عسكر حلب واستخلصوا ما نهبه المغول وعادوا به إلى المدينة، ولكن ظل الطريق مفتوحًا أمام المغول الذين واصلوا تقدمهم إلى دمشق، واستعد السلطان الناصر محمد لملاقاتهم في معركة عُرفت بمرج الصفر قرب حمص، وفيها انتصر المماليك وفر المغول إلى بلدانهم(١).

وقد طرأ تطور مهم على العلاقات المملوكية المغولية أدى إلى تحسن العلاقات بين الدولتين – المملوكية والمغولية – في الفترة التالية، وتمثل ذلك التطور في دخول المغول في الإسلام شعوبًا وحكامًا، وترتب على ذلك توقف الصراع المحموم بين الطرفين؛ كي يلتقط الشاميون عمومًا والحلبيون خصوصًا أنفاسهم بعد صراع مرير كانت له نتائج وخيمة على أوضاعهم الاجتماعية(٢). وظلت حلب ونيابات السلطنة المملوكية في بلاد الشام آمنة من جهة مغول فارس حتى بدأت الموجة المغولية الثانية من موجات الزحف المغولي على بلاد الشام، وهي الموجة المغولية الأخيرة التي قام بها الخان المغولي تيمورلنك(٣). حينما هاجم بلاد الشام في القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميلادي ودخل حلب وخربها(٤).

ولا ريب في أن مدينة حلب عانت الأمرين خلال فترة الغارات المغولية بحيث أنهكت المدينة خلال العصر المملوكي الأول، وأثرت هجمات المغول بشكل كبير على التطور العمراني والاجتماعي في المدينة، وكان الحلبيون وأهالي المدن المجاورة يفرون جنوبًا فور علمهم بتقدم المغول إلى مدينتهم، وحينما تكرر ذلك حدثت حالة من عدم الاستقرار اللازم اجتماعيًا وعلميًا واقتصاديًا لأي مدينة تسعى إلى التطور، وخاصة

(١) عن معركة مرج الصفر انظر: المقريزي: السلوك، جـ١ق ٣ ص ٩٧٠، ٩٨٨، ٩٣٨.

(٢) محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٣٠٠.

أتت ثمار انتشار الإسلام بين مغول فارس أُكلها على المدى البعيد حينما اعتنق الخان القادم للمغول أحمد تكودار Teguder-Ahmad (٢٨٢-٢٨٤هـ) الإسلام وسعى إلى التحالف مع دولة المماليك. ولكن لم تدم السلطة في يد تكودار أحمد لأنه قُتل نتيجة لعلاقاته الطيبة بالمماليك. عن الرسائل المتبادلة بين تكودار أحمد والمغول انظر: المدوادار (الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري المدوادار): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: د. دونالد. س. ريتشاردز، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٩-٢٢٧؛ رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، ١٩٩٨م، ص ٤٠٧-٦٠٠.

(٣) تيمور شاه أو تيمور جهانكشا أو تمور لنك، فترة حكمه -(٧٧٠هـ/١٣٧٠م)، (٧٧٠-٧٣٧هـ/١٣٣٦م).

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، جـ ١، ص٢٢٣؛ فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين ص ٣٧٣-١١٧٤؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، من بداية دولة الطاهرية حتى نهاية دولة القاجارية(٢٠٥هـ/٨٢٠م-١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، ترجمة وتعليق: محمد علاء الدين منصور، مراجعة: السباعي محمد السباعي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٤٣٤-٤٤٩.

أن المغول كانوا يهددون كل من يقاومهم أو يتصدى لهم بالقتل والسلب والنهب قبيل قدومهم إلى المدن التي يخططون لغزوها[١].

وعلاوة على التهديدات التي وجهها المغول لأهالي حلب فإن الحلبيين كانوا على علم مُسبق بما فعله المغول في بغداد من قتل وسلب ونهب وتدمير سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فضلًا عن الفظائع التي ارتكبها المغول في سكان المدن والقرى الواقعة على الطريق من بغداد إلى حلب؛ ولأجل ذلك سعى الحلبيون إلى تجنب ملاقاة المغول بالفرار في كل مرة يتقدمون فيها إلى مدينتهم؛ لأنه لا طاقة لهم بمواجهة المغول وحدهم أو احتمال الفظائع التي كانوا يرتكبونها في حق العزل من سكان المدن التي هاجموها[٢].

وإضافة إلى ذلك فقد عانى سكان بلاد الشام من الكثير من العواقب الوخيمة نتيجة لتغير السيادة على مدنهم بين المغول والمماليك وتداولهم على حكمها، وقتل المغول من سكان مدنهم خلق كثير بلا جريرة انتقامًا من رعايا السلطنة المملوكية التي عرضتهم لهزائم عدة وخاصة عقب هزيمتهم في معركة حمص الأولى. إضافة إلى معاناة سكان تلك المدن – وعلى رأسها حلب – من غلاء الأسعار بصورة جنونية تعدت كافة الاحتمالات وقتما حاصر المغول بعض المدن على شاكلة حصارهم لمدينة حلب عقب هزيمتهم في حمص الأولى أيضًا، حيث غلت الأسعار وعدمت الأقوات وشحت بين العامة[٣].

وتكرر مشهد القتل والغلاء فيما بعد حيث اقترن بكل هجوم قام به المغول على بلاد الشام سواء في معارك حمص الثانية أم الثالثة أم في غيرها من اللقاءات الحربية التي وقعت بين المماليك والمغول، وصاحب هجمات المغول على حلب حوادث متنوعة من التدمير والقتل والنهب[٤].

وعلى هذا النحو عانى المجتمع الحلبي من جراء الحوادث التي مرت بها المدينة، وتكبد سكانها كافة العواقب التي نتجت عن الصراع السياسي والعسكري الذي باتت حلب محورًا له؛ نتيجة لموقعها المتقدم على الجبهة الشمالية الشرقية لسلطنة المماليك. وترتب على تلك الحوادث تأخر تطور المدينة؛ خاصة بعد

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣ص ٢٠٨؛ المقريزي: السلوك، جـ١ص ٥٦٤.

(٢) أبو الفدا: المختصر، جـ٣ص ٤٥؛ المقريزي: السلوك، جـ١ص ٨٠٩٩٠٩؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢ص ٤٩٢.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨ص ٦٩٦؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٣٠ص ٣٤٢٤٢؛ جـ٣١ص ٥٧٢٥٩٢

(٤) اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤ص ٢٧١؛ المقريزي: السلوك، جـ١ق ٢ص ٨٨٨.

هجمات كل من هولاكو سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وغازان سنة ٦٩٩هـ/١٢٩١م؛ ولذا وصفت هذه الفترة الأولى من العصر المملوكي بأنها من أسوأ الفترات التي شهدتها مدينة حلب في العصور الوسطى[١].

وقد حرص المماليك في الفترة التي تلت هدوء موجة التوسعات المغولية على اتخاذ حلب قاعدة عسكرية متقدمة لمراقبة مغول فارس والعراق أولًا ثم التركمان والعثمانيين بعدئذ، وأملى عليهم هذا الموقف ما حبت به الطبيعة موقع مدينة حلب من أهمية وتأثير فاتخذوها نيابة كبرى ضمن النظام الإداري الذي وضعه المماليك لحكم بلاد الشام. وحرص سلاطين المماليك على اختيار من يلي نيابة حلب من الأمراء الأكفاء بعد أن دأب بعضهم على استغلال ابتعاد حلب عن القاهرة — عاصمة السلطنة – وحاولوا الاستقلال بها عن سلطنة المماليك في مصر، وشرع بعضهم في مرات قليلة وانطلاقًا من حلب في الزحف نحو القاهرة لخلع السلطان ذاته.

وبالقدر الذي تعرضت فيه حلب في أوقات الصراعات الكبرى التي نشبت بين المماليك والمغول والصليبيين وغيرهم – وغدت بالنسبة لسلطنة المماليك بمثابة أسد رابض على الجبهة الشمالية الشرقية يرقب حركات الأعداء وتنطلق منها الجيوش لصد خطر أعداء الدولة – فإن حلب نعمت في فترات الأمن والاستقرار بنشاط اقتصادي وعلمي وفكري واجتماعي وفني واسع النطاق.

أما عن الوضع الطبقي في المجتمع المملوكي عامة والحلبي خاصة فقد أشار المؤرخون إلى وجود طبقتين في حلب: الطبقة الحاكمة – أو طبقة الخاصة أو الطبقة العليا التي شغلت قمة الهرم الاجتماعي في حلب – وطبقة العامة – أو الرعية أو الطبقة الدنيا – التي شغلت قاعدة ذلك الهرم الاجتماعي.

وبالرغم من الصعوبات التي تواجه الباحثة في دراسة الحدود الفاصلة بين هذه الطبقات لعدم وضوح المصطلحات التي عبر بها المؤرخون عنها واختلاف دلالات بعضها وتطور بعضها الآخر طوال العصر المملوكي فإنه يمكن الإشارة باطمئنان ودونما تفاصيل إلى أن الطبقة الخاصة أو العليا أو الحاكمة هي

(١) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ٦ – ٩ ٦.

الأعلى من حيث القوة والمال والسلطة والمكانة الاجتماعية، بينما تُعد طبقة العامة أو الرعية بمثابة الطبقة الدنيا وإن شغل بعض فئاتها مثل الأعيان والعلماء والتجار المكانة الأبرز في طبقة العامة[١].

ولما كانت أعلى مقاليد الإدارة في الدولة المملوكية في حلب بين أيادي الطبقة الحاكمة فإنهم جسدوا المصالح الموجهة للدولة، وعكست منزلتهم الرفيعة سلطة الدولة وغناها، بينما مثَّل أعيان طبقة العامة – وهم أدنى في المرتبة والامتيازات والسلطة من أعضاء الطبقة الحاكمة – الأعضاء القياديين في طبقتهم العامة، وحرصوا على الإبقاء على الصلات الوثيقة التي ربطتهم ببعض فئات الطبقة الحاكمة، وصاروا همزة الوصل بين الطبقتين الحاكمة والعامة؛ نظرًا لأن المماليك كانوا يميلون إلى الانعزال عن رعاياهم من العامة؛ ولذا نجح أعيان العامة في تحقيق مكانة طيبة وقوية لدى الطرفين[٢].

وعلى ذلك كان المجتمع الحلبي الشامي في عصر سلاطين المماليك عبارة عن مجتمعين يقوم كل منهما على بناء طبقي حاد: طبقة من الحكام العسكريين لهم كامل الحقوق والامتيازات ولهم حق الإدارة والحكم، فضلًا عن الموارد العامة من الأراضي الزراعية والمراعي والمصايد والغابات والأحراش والمسطحات المائية التي كانت بحوزتهم بحكم القوانين الإقطاعية[٣] التي نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعي

---

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٤٥؛ إيرا م لابيدوس: المدن الإسلامية في عهد المماليك، ترجمة: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٧٣ ١٠.

(٢) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ص ٢٢٠. لا توجد مفارقة في أن ينطبق مسمى الأعيان عادة على أرفع الناس منزلة وأكثرهم احترامًا في كل طبقة، مما يعني وجود أعيان من المماليك وأعيان من التجار وأعيان من العلماء وأعيان من العامة، وسوف نقصر توظيف مصطلح الأعيان على الفئات التي تنتمي إلى طبقة العامة، ويُمثل هؤلاء العلماء والقضاة وكبار التجار وغيرهم من أثرياء طبقة العامة. انظر: إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية، ص ٣٨٠ + ٩ ٣ ١٠.

(٣) الإقطاع: يُعد نظام الإقطاع المملوكي بمثابة امتداد للنظام الإقطاعي السلجوقي والزنكي والأيوبي، وقد سعى ذلك النظام إلى إيجاد دخل ثابت للأمراء والجنود مقابل الخدمة العسكرية التي يقدمونها للدولة. ولكن النظام الإقطاعي المملوكي كان مختلفًا عن الإقطاع الأيوبي لأن الأخير كان = وراثيًا بينما صار الإقطاع زمن المماليك يعني استغلال الأرض والانتفاع بها دون ملكيتها. ولم يقتصر الإقطاع على الأرض وإنما شمل جوانب أخرى كالمكوس والزكاة والخراج. واستمر الإقطاع على تلك الوتيرة حتى قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمسح الأرض فيما يعرف بالملوك الناصري وقصر الإقطاع على الأرض، ربما لتذمر الأمراء من تراكم الخراج وعجزهم عن دفع الضرائب المقررة عليهم، وتظلم الرعية من مقطعي المكوس وضمانها بسبب تعسفهم في جباية الضرائب. وقد مُسحت حلب بمقتضى ذلك الملوك عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، وبموجبه ألغيت الضرائب المفروضة على الحبوب، وإن لم يُطبق من الناحية العملية سوى بعد عدة سنوات. أما النص على عدم توريث الإقطاع فتم العمل به في حلب في العصر المملوكي، ومثلما كان للأمراء إقطاعات فقد كان للأجناد أيضًا إقطاعات مقابل الخدمة العسكرية وبديلًا عن الرواتب النقدية. انظر: المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٧١٠، ٦٢٥، جـ ٣، ص ١٨٠، ٨٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٨، ص ٩٠؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م): أنباء الغمر بأبناء العمر، جـ ٣، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، ١٩٦٧-١٩٦٨م، ص ٤٠٥؛ ابن الشحنة، محب الدين أبو الفضل (ت: ٨٩٠هـ/١٤٨٥م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشره:

العسكري الذي جسدته دولة المماليك[1]، أما طبقة العامة فحُرم أفرادها من غالبية المميزات الاجتماعية، كالتعليم والثروة وتعنت السلطة في علاقة غير متكافئة قامت على التبعية والمنفعة والتسلط[2].

ونظرًا لأن نيابة حلب في العصر المملوكي ضمت مساحة واسعة من الأراضي التي انقسمت إلى نيابات صغرى، وضمت الأخيرة عددًا من القرى التي قُدرت بثلاثة آلاف ومئتي قرية بينما قدرها آخرون بثمان مئة ونيف وعشرين قرية، فلا شك في ضمها لعناصر شتى ومتباينة من الأجناس والأعراق والملل والطبقات الاجتماعية الذين لا يقل عددهم عن مئتين وخمسين ألف نسمة تقريبًا[3]. وقد توزع هؤلاء على الطبقتين الحاكمة والعامة، وانقسموا إلى فئات مهنية وحرفية متباينة، مثلما انقسموا إلى مسلمين وأهل ذمة، وإلى أعراق وأجناس متباينة ومتعددة، ولكل منهم حياته الخاصة سواء على المستوى الفردي والجماعي، أم على مستوى علاقتهم بالجهاز الإداري وعلى رأسه نائب السلطنة في حلب[4].

وقد قامت المدن المملوكية بعامة وحلب بخاصة بدور حضاري مهم في عصر سلطنة المماليك، بيد أن حلب تأثرت اجتماعيًا نتيجة لتراجع عدد السكان خاصة خلال العصر المملوكي الأول بسبب تأثر نموها السكاني بالحروب التي خاضتها سلطنة المماليك ضد المغول، إضافة إلى الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها المدينة مما أسهم في تراجع أعداد السكان وتأثر نمط حياتهم نتيجة لذلك. وأضف لذلك هجمات التركمان والبدو على مدينة حلب في نهاية العصر المملوكي، وتزامن ذلك مع بعض حركات التمرد والعصيان وانفلات حالة الأمن، واضطرار بعض سكان حلب للهجرة إلى أماكن أكثر

يوسف سركيس، جـ ١، المطبعة الكاثوليكية،بيروت ص ص ٨ ٨؛ ابن قاضي شهبة، تقي الدين أحمد (ت: ٨٥١هـ/١٤٤٨م): تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق،١٩٧٧م، ص ص ٣ ٦ ٢،٦٦ ٣؛ إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط، القاهرة،١٩٦٨م، ص ٦ ٩.

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٤ ٣.

(٢) كمال الدين سرور: حلب في العصر المملوكي، ص ٢ ٢.

(٣) عادل عبد اللطيف حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك جـ ١، ص ٤ ٢ ٢.

(٤) قاسم عبد قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٧ ٢.

استقرارًا الأمر الذي أثر سلبًا على الوضع الاجتماعي في حلب( ). وفي ضوء هذا التمهيد الموجز يمكن فهم كثيرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية في مدينة حلب.

الباب الأول

عناصر السكان وطبقاتهم الاجتماعية

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: عناصر السكان في المجتمع الحلبي.

الفصل الثاني: الطبقة الحاكمة.

الفصل الثالث: طبقة العامة.

(١) ابن خطيب الناصرية، الحسن علاء الدين (ت:٨٤٣هـ/١٤٣٩م): الدر المنتخب في تاريخ حلب، جـ ٢، مخطوط بمكتبة دارلأ وقاف الإسلامية، حلب، رقم١٢١٢، ورقة١٤٧. وقد اعتمدت على نسخة مصورة من المخطوطة ذاتها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٠ ٥ ٦ تاريخ.

الفصل الأول

عناصر السكان في المجتمع الحلبي

أولا: العرب.

ثانيا: القبائل الكردية.

ثالثا: التركمان.

رابعا: الأرمن.

خامسا: القبائل العربية البدوية.

الفصل الأول

عناصر السكان في المجتمع الحلبي

ترتب على الموقع المتوسط والمميز لمدينة حلب أنها باتت إتجاهًا لكثير من العناصر السكانية المتنوعة سواء من الحاضرة أم البادية، واستقر كل منهم في موضع أملته الظروف الراهنة. وقد انحدر هؤلاء السكان من عدة أجناس أو أعراق، وهي كالآتي:

(١) العرب:

هم أول تلك العناصر التي سكنت حلب، حيث غلبت العناصر العربية على سكنى حلب قبل الفتوحات الإسلامية. وحينما دخل العرب حلب فإنهم لم يحافظوا على نقاء العنصر العربي في المدينة بسبب كثرة الهجرات التركمانية والكردية إليها فيما بعد. وعلى الرغم من ذلك فقد نجحت قبيلة آل فضل من ربيعة من طي في الحفاظ على طباعها العربية البدوية( ). وقد بدأت تلك القبيلة في الظهور في منطقة حلب في نهاية القرن السادس وبداية السابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، ونتيجة لكثرة أفرادها فقد بات لهذه القبيلة أهمية كبيرة لدى سلاطين الأيوبيين والمماليك( ).

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤ ص ٩٤٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٢ ص ٢١١؛ جورج فريد: مدينة حلب، ص ٥٦-١٧٥.

(٢) ابن فضل الله العمري (أحمد بن يحي بن فضل الله العمري، ت ٧٤٩هـ): مسالك الأنصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، السفر الرابع، الإمارات، ٢٠٠٢م ص ٣٠٩ ٦٠؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م ص ١٠٥؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٠٦.

ونتيجة لذلك فقد أسست تلك القبيلة إمارة وذلك في محاولة من السلاطين لربط القبائل العربية بالجهاز الإداري للسلطنة المملوكية، وصار أمير العرب يُعين بمقتضى تقليد سلطاني. وتبادل كل من آل عيسى بن مهنا(١) وآل علي(٢) الإمرةَ من وقت لآخر، وقُدر لهم ونتيجة لهيبتهم وخاصة آل مهنا المحافظة على الأمن وطرق التجارة أكثر من غيرهم، مما دفع سلاطين المماليك وأمراء حلب إلى التقرب من آل عيسى بن مهنا وإخضاعهم للطاعة؛ لأن تمردهم كان يعني خلق المزيد من الصعوبات للسلاطين ولنواب حلب وللمدينة وسكانها ذاتها(٣).

وحرص سلاطين المماليك على إقطاع تلك القبائل بعض الإقطاعات في حلب وحماة(٤) وسرمين(٥) وسلمية(٦) مقابل خدماتهم العسكرية والأمنية التي كانوا يقدمونها إلى سلطنة المماليك، وخصوصًا في الحفاظ

(١) آل عيسى بن مهنا: هم فرع من قبيلة آل فضل ويعتبرون من القبائل الرحالة التي كانت تنتقل فيما بين بلاد الشام والجزيرة الفراتية، وتضم مساكنهم جماعات من زبيد وكلب وهذيل وغيرهم، وقد اقتصرت رحلاتهم على المناطق الواقعة ضمن حدود بلاد الشام خلال الحقبة المملوكية. وقد امتدت منازل آل مهنا ما بين حمص وقلعة جعبر حتى مدينة الرحبة، مما يعني أنهم انتشروا ما بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات. انظر: ابن فضل الله العمري: قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، تحقيق:دوروثيا كرافولسكي،بيروت،١٩٨٥م،ص ٣٤ ١-١٤٤؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأنصار،ص ٩٠ ٣٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧،٦٧+٧٠ ١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥،ص ٢٠ ١١٢؛ جورج فريد: مدينة حلب،ص ٥٥ ٥٧+ ١؛ عبد العزيز المدني: مدينة حلب،٤٠٧+٢٠٢.

(٢) آل علي: من القبائل التي تنحدر عن آل فضل وهم من أشهر من ينتسبون إليها بعد آل عيسى بن مهنا وكان لهم دور مهم في حلب ونواحيها في العصر المملوكي، وتفوق عليهم آل مهنا وكانت الإمرة دائمًا لآل مهنا. انظر: ابن فضل الله العمري: قبائل العرب،ص ٣٤ ١-١٤٤؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأنصار،ص ٥٦ ٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥،ص ٣١ ٢؛ ابن أيبك الدواداري:كنز الدرر، جـ٨،ص ٨ ٨،٣٤٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥،ص ٤٠ ٣، جـ٧،ص ٦٥ ١. انظر أيضًا: عبد العزيز المدني: مدينة حلب،٢٠٤-٢٠٥.

(٣) مصطفى الحيلي: الإمارة الطائية في بلاد الشام، منشورات وزارة الثقافة والشباب، عمان،١٩٧٧م،ص ٥٦٦٦.

(٤) حماة: تقع في الإقليم الرابع بين حمص وقنسرين على ضفاف نهر العاصي الذي يخترق الشام من الجنوب إلى الشمال. وتعتبر مدينة حماة واحدة من قواعد ممالك بلاد الشام في العصر المملوكي، وهي مدينة قديمة تشتهر بقلعة قوية مبنية بالحجارة الملونة، ناهيك عن القصور والدور والمباني الرائعة، إضافة إلى المدارس والمساجد والربط والزوايا والأسواق الراتقة. انظر: أبو الفدا، إسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماة (ت: ٧٣٢هـ): تقويم البلدان، دار صادر،بيروت،١٨٤٠م،ص ٣٦ ٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥،ص ٤٠ ١.

(٥) سرمين: هي مدينة تقع غرب حلب على مسافة مرحلتين منها وتقع في الإقليم الرابع، وهي غير مسورة وبها أسواق ومسجد جامع، ويشرب أهلها من الماء المجتمع في الصهاريج من الأمطار، وتتسم التربة في سرمين بارتفاع الخصوبة ولذا يكثر بها شجر التين والزيتون. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان،ص ٦٥ ٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥،ص ٦٢ ١.

(٦) سلمية: بلدة من عمل حمص من الإقليم الرابع، وتقع على طرف البادية وتتسم بخصوبة تربتها وبكثرة المياه والشجر وبينها وبين حمص قرابة مرحلة. انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان،ص ٦٥ ٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥،ص ٤١ ١.

على طرق المواصلات والطرق التجارية والبريد وقوافل الحجاج( )، إضافة إلى دورهم في مساندة جيوش المماليك ضد المغول لقرب نفوذهم من العراق الخاضع للمغول، علاوة على تزويد السلطان والجيش بالخيول والجمال( ). كما شاركوا أيضًا بعض نواب حلب الخارجين عن طاعة السلطنة المملوكية، بينما كان لهم أحيانًا دور إيجابيٌ ممثل في مساعدة السلطنة في إخراج بعض نواب حلب الذين خرجوا على طاعة السلطنة( ).

وفي كل الحالات فإن خروجهم عن طاعة السلطنة أو دعمهم لها في مواجهة النواب الخارجين عن سلطان المماليك كان يعني المزيد من الآثار السلبية على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في حلب التي كانت تشهد دمارًا في القرى والمزارع ناهيك عن توقف الطرق التجارية ونزوح السكان عنها في أوقات الخطر( ). أما في الأوقات العادية فكان لهم نشاط تجاري مع حلب بسبب إشرافهم على الطرق التجارية؛ ولأنهم أيضًا يمتلكون قطعانًا كثيرة من الحيوانات، مثل الإبل والخيول والأغنام، ومن ثمَّ كانوا يترددون على أسواق حلب لبيعها، وقد حملت بعض أسواق حلب أسماء بعض تلك الحيوانات( ). وهكذا غلبت تلك القبائل العربية وغيرها على غالبية التركيبة السكانية في حلب في الفترة قيد الدراسة( ).

(٢) القبائل الكردية:

(١) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب في تاريخ حلب، جـ٢، ورقة٢٣٣، ٣٤٢.

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ٢، ورقة٣٤٢؛ العلي: العراق بين احتلالين، جـ١، ص٦٦ ٤.

(٣) ابن حجر: أنباء الغمر، جـ٨، ص٤٠ ١؛ ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ٢، ورقة٢٣٣؛ المقريزي: السلوك، جـ٣، ص١٥ ٦؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ص٤٥ ٣؛ ابن إياس، محمد بن أحمد (ت: ٩٣٠هـ/١٥٢٤م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ١، ق ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، المنشورات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية في القاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٤، ص٢٣ ٧.

(٤) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ص٤٥ ٣؛ ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ٢، ورقة٢٣٤؛ المقريزي: السلوك، جـ ٣، ص١٥ ٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص٣ ٢ ٧.

(٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ص٤٥ ٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص٢٣ ٧؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص٦٠ ٢-٧٠ ٢.

(٦) عن القبائل العربية الأخرى التي استوطنت حلب وما حولها انظر: ابن فضل الله العمري: قبائل العرب، ص٤٥ ١، ٥٤-٥٥١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص١٩ ١، ٣١-٣٢٢؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٢٣ ٢، ٢٦٣.

أما العنصر السكاني الثاني الذي غلب على التركيبة السكانية في حلب فممثل في الأكراد الذين دخلوا بلاد الشام في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ نتيجة لاجتياح التركمان لمواطنهم في أرمينية(١)

وديار بكر(٢). وقد أفاد منهم قادة بلاد الشام بصفتهم قوة عسكرية ضد الخطر الصليبي. وكان كل من عماد الدين زنكي(٣). ونورالدين محمود(٤). من أبرز من أفاد من قوة الأكراد في حروبهما ضد الصليبيين، ومنحوهما في مقابل ذلك إقطاعات في منطقة حلب كبداية لتوطنهم فيها بكثرة، وخاصة بعد خضوع بلاد الشام للأيوبيين واعتماد الأيوبيين عليهم كقوة عسكرية ضمن الجيش الأيوبي في بلاد الشام بعامة وحلب بخاصة(٥).

وسرعان ما ازداد وجود الأكراد في حلب بشكل أكبر حينما اجتاح المغول العراق سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وغالبًا ما دخل بعضهم إلى حلب وخاصة أن الأكراد مثلوا طبقة اجتماعية مرموقة في

(١) أرمينية: هي بلد جبلي غير ساحلي يقع في القوقاز في أوراسيا، عند ملتقى غرب آسيا وشرق أوروبا. ويحيط بها على سبيل الإجمال من الغرب بلاد الروم وشيء من بلاد الجزيرة ومن جهة الجنوب بعض بلاد الجزيرة وبلاد العراق ومن جهة الشرق بلاد الجيل والديلم إلى بحر الخزر ومن جهة الشمال بلاد القيتق. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥ ص ٩٦١+ ٤١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٣٥٣.

(٢) ديار بكر: تقع في الجزيرة الفراتية، وتتشكل الجزيرة الفراتية نحو الشمال بين الشام والعراق، وإلى الشرق – جنوب آسيا الصغرى – في ثلاث وحدات سياسية مُمثلة في: ديار ربيعة وحاضرتها الموصل في الجنوب الشرقي، وديار مضر (الرقة والرحبة وحران والرها) في الجنوب الغربي، ثم ديار بكر التي تتكون من آمد وميافارقين وتقعان في الشمال. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥ ص ٤٩٤.

(٣) الملك عماد الدين الأتابك زنكي بن الحاجب قسيم الدولة أقسنقر بن عبدالله التركي ، فترة حكمه –(٥٢١ –٥٤١ هـ)(١١٢٧ ١١٤٦م). قتل في (٤٧٧- ٥٤١هـ) (١٠٨٤+ ١١٤٦م).سير أعلام النبلاء(٢٠/ ٥٣٢)

(٤)الملك العادل أبو القاسم نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، يلقب بالملك العادل ، ومن ألقابه الأخرى ناصر أمير المؤمنين، فترة حكمه –(٥٤١ – ٦٩هـ)(١٧٣+ ١١٥٤م)،(٥٦٩هـ ١١ هـ) (١٧٣+ ١١٨م) (توفي وهو في التاسعة والخمسين من عمره) .سير أعلام النبلاء –(٢٠/ ٥٣٢).

(٥) ابن خلكان، (أحمد بن محمد بن إبراهيم، ت: ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، جـ ٣،بيروت – دار صادر، ١٩٧٠م،٤٩٧٨٩٤؛ أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، ت٦٦٥هـ): الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمد حلمي محمد، جـ ١ق ٢، القاهرة،١٩٦٢م ص ٤٧ ٥؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: "أضواء على الأكراد الهكارية في عصر صلاح الدين الأيوبي"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ٦١، ١٩٩٤م ص ٤٩ +٩٠ ٤١؛ عفاف سيد صبره: "دور الفقهاء وعلماء المسلمين في جهاد الصليبيين"، بحث منشور في كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة،١٩٨٥م ص ٦ ٥ ٧ ٥.

حلب لها مكانتها العسكرية ضمن الجيش المملوكي[1]، وصار لهم إقطاعات كثيرة وشغلوا مكانة مهمة في الجهاز الإداري للدولة حيث تولى بعضهم حجابة حلب، وتولى بعضهم الآخر وظائف دينية على غرار منصب الإفتاء. وكانت علاقة الأكراد بالعناصر الأخرى في حلب طيبة حيث لم يدخلوا في نزاع أو يتورطوا في أية حوادث عصيان أو تمرد ضد السلطنة المملوكية، ومن آثارهم في حلب حارة الأكراد على طريق فارس[2].

(٣) التركمان:

ويُعد التركمان العنصر السكاني الثالث الذي عاش في حلب، وقد اجتاح التركمان شمال بلاد الشام بما في ذلك حلب في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي مُستغلين حالة الضعف السياسي والاقتصادي الذي ساد المنطقة وقتها. وقد أفاد منهم عماد الدين زنكي – ومن بعده ولده نورالدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي[3]. – باعتبارهم قوة عسكرية لها وزنها في التصدي للصليبيين بعدما سكنوا حلب في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[4].

أما في العصر المملوكي فقد عاش التركمان ضمن مجموعتين: إحداهما عاشت داخل مدينة حلب وتمتعت بمكانة اجتماعية وعسكرية واقتصادية مرموقة في نيابة حلب، ومُنح أفرادها إقطاعات بوصفهم يُمثلون جانبًا من قوة الجيش المملوكي، وشغل بعضهم مناصب مرموقة في الجهاز الإداري وخاصة حجابة حلب. ولعل من أهم القبائل التركمانية في حلب: الإينالية والأوشرية والبياضية. وكان للتركمان في حلب حارة تسمى حارة التركمان، وهؤلاء يُعرفون بتركمان الطاعة، وكانوا أمراء برتبة طبلخانة[5] أو ممن هم دونه،

---

(١) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٢٠١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٢) ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن طولون (ت:٩٥٧هـ/١٥٥٠م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ج١، القاهرة،١٩٦٢+١٩٦٤م، ص ٦١ ٣، ج٢، ص ٥ ٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٤ ٢.

(٣) الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب الملك ويني التكريتي ، المشهور بلقب صلاح الدين(٥٣٢ هـ/ ١١٣٧م)(١٩٤+ ٢٨٩ هـ/ ١٣٧ ١م).سير أعلام النبلاء(٢١ / ٢٧٨)

(٤) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن القلانسي (ت: ٥٥٠هـ/١١٥٥م): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: أمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص ٨ ٩.

(٥) الطبلخانة: رتبة عسكرية يقوم بها دق الطبول والأبواق على أبواب الأمير الذي حصل على تلك الرتبة، وهو أمير تحت إمرته غالبًا أربعين فارسًا،أي أمير من الطبقة الثانية، ويُعين منهم أرباب الوظائف وكبار الولاة. انظر: محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، الهيئة

ويخاطبه نائب حلب بلقب السامي. ولا شك في أنهم كانوا أوفر حظًا من عناصر سكانية أخرى وخاصة أنهم مارسوا نشاطًا اقتصاديًا ملحوظًا[١].

أما المجموعة الأخرى من التركمان فعاش أفرادها خارج أسوار حلب، ولم يكن لهم وجود مُؤثر مثل المجموعة الأولى، وحصل بعض أفرادها على إقطاعات نظير الخدمات التي قدموها لسلطنة المماليك، وخاصة دورهم المؤثر في حفظ طرق التجارة والمسافرين، ودعم الجيش المملوكي وقت الضرورة. وشارك بعضهم في الصراع بين نواب حلب الشرعيين والنواب المتمردين على السلطنة، وترتب على ذلك الصراع تدمير القرى والمزارع ونهب القوافل ومن ثمَّ إثارة حالة من عدم الاستقرار في مدينة حلب وما حولها[٢].

(٤) الأرمن والمارونيين:

لم تقتصر العناصر السكانية في حلب على العرب والأكراد والتركمان وإنما عاش في حلب أيضًا عناصر أخرى مثل الأرمن، والمارونيين الذين بات ظهورهم واضحًا اعتبارًا من سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٩م[٣]، وعلى ما يبدو فقد انعزلوا عن بقية العناصر السكانية الأخرى مكتفين بحيهم الخاص في الجزء الشمالي الغربي من مدينة حلب[٤].

(٥) القبائل العربية البدوية:

لم تكن القبائل العربية البدوية من العناصر المستقرة في حلب بشكل دائم؛ لأنهم اعتادوا على التنقل والترحال من موضع لآخر ربما خوفًا من سطوة نواب حلب عليهم لما كانت تقوم به بعض القبائل البدوية أحيانًا من أعمال السلب والنهب. وفي أوقات معينة سعى نواب السلطنة إلى الإفادة من جهود تلك القبائل في تأمين بعض المناطق مثل جعبر وشط الفرات. واشتهر من بين القبائل البدوية آل فضل بن ربيعة

العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٩ ٤؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص ٢ ٢٠٦، ٧ ١٠.

(١) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٤ ١٠؛ المقريزي: السلوك، جـ ٢، ص ٧٠ ٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣٣ ٢؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ٣ ٦- ٤ ٦.

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ٢، ورقة ٧ ١٤.

(٣) جرجس منش المارديني: "موارنة حلب الشهباء"، مجلة المشرق، ١٩٠٣م، ١ ٦ ٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ١ ٢ ١، ١٣٥، ١٣٧؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣ ٢ ٢٢٨، ٢؛ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس (ت: ٦٨٥هـ): تاريخ مختصر الدول، تصحيح: أنطون اليسوعي، لبنان، ١٩٨٣م، ص ٣ ٥ ١، ١٤٩، ٤٢ ٤ ٤ ٥ ٤.

الذين تسببوا في بعض المتاعب لنواب حلب أحيانًا، بينما دانت بعض القبائل بالطاعة لنواب حلب – وعُرف أمثالهم في مصر بعربان الطاعة( ) – أحيانًا أخرى( ). ١ ٢

وظلت القبائل البدوية في حلب على ولائهم للسلطنة المملوكية، ولكنهم حينما كانوا يشكون في نيات السلطان المملوكي أو نائب سلطنته فإنهم كانوا يُسارعون إلى إرضائه خوفًا من بطشه واتقاء لغضبه. وأدرك نواب حلب مدى قوة البدو في تلك المناطق المحيطة بحلب واستعانوا بهم ضد أمراء المماليك المتمردين على السلطنة، وكان لهم دور مهم في تخليص حلب من بعض الأخطار المحيطة بها( ). وحرصت السلطنة المملوكية على عدم إثارة تلك القبائل؛ كي لا يتسببوا في إزعاج السلطنة، وأحيانًا كان السلطان يتدخل بين أمراء البادية المتخاصمين للإصلاح بينهم( ). وحينما كانوا يفشلون فإنهم كانوا يناصرون أحد المتنازعين حتى يقضي على الآخر كي يعود الاستقرار إلى المنطقة( ). ٣ ٥

وبشكل عام فإن القبائل العربية في حلب لعبت دورًا مهمًا في تاريخها حيث كثيرًا ما استغلوا اضطراب الأوضاع بها أو في السلطنة عامة وسعوا إلى الاستيلاء على حلب، وتدخلوا في أحايين أخرى لتعيين نواب حلب، وحدث تعاون بين نواب حلب وأمراء القبائل البدوية في أحايين أخرى كثيرة( ). ٦

وبالرغم من هذا الثراء العرقي الذي شكل البنية الاجتماعية في مدينة حلب فقد ظل العنصر العربي هو الغالب على سكان حلب، وظلت العناصر الأخرى قليلة إذا ما قُورنت بالعناصر السكانية الأخرى التي عاشت في المدينة، وذلك لأن غالبية تلك العناصر كانت منتظمة في الحملات العسكرية وخاصة العنصر التركماني الذي لم يكن مُنتميًا بكليته إلى المجتمع الحلبي طوال العصر المملوكي الأول.

---

(١) عرب الطاعة: هم بعض قبائل العرب الذين استوطنوا القرى وعملوا بالزراعة ودخلوا في طاعة السلطنة المملوكية؛ ولهذا عرفوا بعرب الطاعة، ولكن شدة الغلظة ظلت موجودة في كثير منهم. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣ ص ٣٢٢ – ٢٣٢.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: المقريزي: السلوك، جـ ٢ق ٣ ص ٩٢ ٦، جـ ٣ق ١ ص ٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٤٥؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، جـ١ ص ١٦، ص ٤ ٨.

(٣) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ورقة ٧٠؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، جـ٨ ص ٩٩ – ٢٠٠، ٢٦١.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ٤ق ١ ص ٥ ٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، جـ٣ ص ٤٢ – ٤٣، ٢٣٣، ٤٣٤، ٤٦١.

(٦) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور.

بينما عاش بعض التركمان في أماكن في حلب معتمدين على رعي الأغنام والإبل وغيرها من الماشية التي أمدوا بها المجتمع الحلبي. وحتى العنصر التركي فإنه كان ينسحب من حلب حينما يُكلف بمهمة عسكرية ولا يعود سوى بعد انتهاء الأخطار المهددة لحلب والمنطقة المحيطة بها، بينما ظلت أقلية منهم من أهم رجال الحرب والإدارة وسيطروا على مُقدرات حلب واقتصادها، ولكنهم ظلوا في النهاية أقلية محصورة في مجال الجيش والوظائف العسكرية. ولم تُشر المصادر إلى كثير من حالات المصاهرة بين المحليين من الحلبيين. وظل العرب من أهل حلب وباقي مدن نيابتها وفي ريفها وباديتها هم العنصر الأقوى والمسيطر على مقدرات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وأسهموا أيضًا في الدفاع عن بلدانهم كمتطوعة في أوقات الخطر( ) [1].

وهكذا غلب التنوع والثراء على تلك التركيبة الاجتماعية لسكان حلب، بحيث تألفوا من فئات عرقية مختلفة من تركمان وأكراد وعرب الذين شكلوا النسبة الغالبة من السكان، ولعل وقوع حلب في منطقة نائية بعيدًا عن مركز السلطنة المملوكية في القاهرة هو ما شجع على قيام حركات التمرد والعصيان ضد السلطنة المملوكية مرات عديدة، وفي الوقت ذاته باتت حلب هدفًا لأعداء السلطنة الذين يقعون على حدود السلطنة المملوكية وقريبًا من حلب، وذلك ما جعل منها بداية لكل علاقة مضطربة بين المماليك وجيرانهم من التركمان والمغول والعثمانيين بشكل متكرر نتيجة لوقوع حلب في منقطة تجارية حيوية تمر عبرها خطوط التجارة الدولية؛ ولذا فقد ازدادت فيها الأطماع الخارجية.

(١) ابن كثير: البداية والنهايةج ٤ ص ٣ ٩ ٢؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ٢ص ٢ ٤ ٤؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكيلأ ول، ص ٣ ٠ ٢- ٥ ٠ ٢.

الفصل الثاني

الطبقة الحاكمة

أولا: أرباب وظائف السيف.

ثانيا:أرباب الوظائف الديوانية.

ثالثا: أرباب الوظائف الدينية.

رابعا: الجند.

الفصل الثاني

الطبقة الحاكمة

ظهرت في مصر دولتان للمماليك[١]: الأولى المماليك البحرية (٦٤٨هـ/٧٨٣هـ) وهي تسمية لها علاقة بحقيقة أن غالبية سلاطين هذه الدولة كانوا من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم في قلعة في جزيرة الروضة في نيل مصر ونُسبوا إلى هذه القلعة البحرية التي كان الملك الصالح نجم الدين الأيوبي[٢]. قد بناها لهم، وكان مماليكها من التركمان[٣].

أما الدولة الثانية فممثلة في دولة المماليك البرجية (٧٨٤هـ/٩٢٣هـ) وهي تسمية تعود إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك كانوا يسكنون برج القلعة على جبل المقطم وقت حكم المماليك البحرية، وكان أبرز عناصر المماليك البرجية من عنصر الجركس أو الشركس[٤].

---

(١) المماليك: جمع مملوك وهو عبد يباع ويُشترى، غير أن التسمية اقتصرت في معظم الدول الإسلامية المتأخرة على فئة من الرقيق الأبيض حيث يشتريهم الأمراء المماليك من أسواق النخاسة لتكوين فرقة عسكرية وبخاصة في أيام السلم وإضافتهم إلى الجيش في أيام الحرب، ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المماليك في مصر والشام. انظر: أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ١٠.

(٢) أبو الشكر نجم الدين أيوب بن شاذي، الملقب الملك الأفضل نجم الدين، فترة حكمه – (٦٤٧ – ٦٣٨هـ) (١٢٤٩ – ١٢٤٠م)، (٦٠٣ – ٦٤٧هـ) (١٢٤٩ – ١٢٠٦م)، السلوك (١/ ٤٠٢).

(٣) يوجد رأي يذهب إلى أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب يُعد أول من رتب المماليك البحرية، وأنه أول من أسهم بذلك في إطلاق مصطلح البحرية عليهم نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غير أن هناك من يرى أن تسمية المماليك البحرية لم تكن عائدة إلى بحر النيل وإنما إلى طبيعة الطرق التي سلكها هؤلاء المماليك من بلاد القوقاز وآسيا الصغرى والبحر الأسود في طريقهم إلى مصر والشام، بمعنى أنهم جاؤوا من بلاد ما وراء البحار فارتبط ذلك بهم وسموا بالمماليك البحرية. لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٣٩-٣٠، ص ١٠.

(٤) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٩.

وقد سعى المنصور قلاوون إلى إنشاء فرقة مملوكية من المماليك الجراكسة الذين كانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلى الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود، وقد توافرت منهم أعداد كبيرة في أسواق الرقيق، وقد أسكنهم قلاوون في أبراج القلعة فانسحب عليهم لقب "المماليك البرجية". وتمكنوا هؤلاء فيما بعد من الظهور على مسرح الحوادث السياسية وأقاموا دولة المماليك الجراكسة باعتلاء السلطان الظاهر برقوق للسلطنة. لمزيد من التفاصيل عن عصر المماليك بعامة والمماليك الجراكسة بخاصة انظر: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٤٠-٥، ص ١٠.

وقد حكم المماليك المجتمع الحلبي بعد الهزيمة التي ألحقوها بالمغول في عين جالوت واستردوا البلاد مستغلين قوتهم العسكرية في فرض إرادتهم على الحلبيين. وشكل المماليك شريحة من الغرباء ضمت النخبة الحاكمة والأمراء المماليك من أصحاب الرتب العالية وأصحاب دواوين الجيش والمال، وشكلوا كتلة هيمنت على البلاد وسيطرت على الأرض عن طريق نظام الإقطاع العسكري، واستغلوا موارد الأرض وحرموا فلاحي حلب من أبسط حقوقهم في معيشة كريمة من ناتج عملهم وذلك لذهابه كله إلى ضرائب للمماليك أصحاب الإقطاعات، واحترف هؤلاء العمل العسكري، ولم يُشكلوا مؤسسة سياسية تتولى إدارة البلاد عن طريق الوراثة وإنما كانوا مجموعة أفراد تُسند إليهم الوظائف العسكرية والإدارية، وكان الأقوى بينهم يستولى على السلطنة(١).

وقد تعاقب على حكم سلطنة المماليك في مصر عدد من السلاطين الأقوياء ابتداءً من عز الدين أيبك( ). أو شجر الدر( ). – إذا ما اعتبرناها أول من تقلدت سلطنة المماليك في مصر – وحتى طومان باي (٥).الذي قُتل على أيدي العثمانيين عام٩٢٣هـ/١٥١٧م( ).

٦ وقد كثرت خلال هذا العصر حوادث التعيين والخلع التي مارسها سلاطين المماليك( )، وترتب على عدم احترام المماليك لمبدأ وراثة العرش – باستثناء بعض فترات دولة المماليك البحرية – نشأت

(١) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، جـ٧ص ٢١ ٢٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٠ ١ص ٣٤ ٢؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢ص ١٤ ٤؛ كمال الدين وزير: حلب في العصر المملوكي الأولى ص ٢٢٣.

(٢)الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي النجمي، فترة حكمه – (٢٥٧هـ ٢٥٠ م)،(٢٥٧هـ ١٩٧ م)، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي(١ ٤٧٢)

(٣) شجر الدر (أو شجرة الدر) الملقبة بعصمة الدين أم خليل ، خوارزمية الأصل ، وقيل أنها أرمينية أو تركية ،كانت جارية اشتراها السلطان الصالح نجم الدين أيوب(٦٤٤ ٥٥هـ)(٢٥٧هـ ٢١٧ م)، النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة ،ج(٢ ١ ٦٥٣)

(٤) الأشرف أبو النصر طومان باي آخر سلاطين المماليك ، فترة حكمه – (٩٢٣هـ ٢٢ ٩٢٣هـ)(٥١٧هـ ٥١٦ م)، وهو السلطان الوحيد الذي شنق(٩٢٣هـ ٢٨٢ ٩٢٣هـ)(٥١٧هـ ٤٧٧ م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور(١ ٨٢٢)

(٥) محمود عباد ي، ووسيم حسن: تاريخ دولة المماليك في مصر ص ٣ ٤؛ محمود شلبي: حياة الملك الظاهر بيبرس الأسد الضاري قاهر التتار ومدمر الصليبيين ص ٧ ٣ – ٨ ٣.

(٦) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع في عصر سلطنة المماليك ص ٨ ١.

الصراعات بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة( ). وفي ضوء ذلك سوف نستعرض في الصفحات التالية أهم أرباب الوظائف في حلب في العصر المملوكي بوصفهم يُمثلون الطبقة الحاكمة في ذلك المجتمع.

أولًا: أرباب وظائف السيف:

تميزت دولة المماليك بتنظيمها الإداري المتقن، وكان السلطان المملوكي على رأس هذا التنظيم في القاهرة، بينما تبعه عدد كبير من الموظفين وكان من أبرز رتبهم: أمراء المئة وأمراء الأربعين وأمراء العشرة( ) وأمراء الخمسة( )،وتمثلت أبرز مهامهم في مساعدته في شؤون الحكم والإدارة.

ومثَّلَ التنظيم الإداري في بلاد الشام امتدادًا للتنظيم القائم في مصر ولم يختلف عنه سوى في الحجم؛ فقد قسم المماليك بلاد الشام إلى ست ممالك ممثلة في دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد( ). والكرك( ) ، وكان على رأس كل مملكة منها نائب سلطنة، ويُعينه السلطان من بين كبار الأمراء في القاهرة، وكان لكل مملكة جيشها ودواوينها. ولم تختلف مملكة حلب في تنظيمها عن بقية الممالك. ويمكن الوقوف على صفوة الفئة الحاكمة في حلب ودورها فيها على النحو التالي:

نواب السلطنة: هم مساعدو السلطان في أموره العامه أو غالبها في نيابات السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام في دمشق وحلب وطرابلس وحماة والكرك. ويُعد نائب حلب بمثابة الساعد الأيمن للسلطان في

(١) البيومي إسماعيل: مصادرات الأملاك ص ٦ ٦٧. وكان سلاطين المماليك يفتخرون بأنهم من المماليك لأن علاقة المملوك بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبودية، بحيث تربوا تربية طيبة وأُحسن إعدادهم لوظائف الحكومة والإدارة والجيش. وكانت الأستاذية التي تربط بين الأستاذ ومماليكه من أقوى الروابط بينهم. وكان السيد يحرص على تناول طعامه مع مماليكه وزيارتهم. وكان موفقًا في حكم المماليك أنه لا يصل المملوك إلى منصب الأمراء إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رمي النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرونته على ركوب الخيل. انظر: أحمد مختار العبادي: دولة المماليك ص ٤ ٩٥؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ص ٨ ٢- ٩ ٢.

(٢) أمراء العشرة: هو أمير تحت إمرته عشرة فرسان وأحيانًا عشرون، وهو أمير من الطبقة الثالثة، ويعين منهم صغار الولاة وأرباب الوظائف. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٢ ٢.

(٣) أمراء الخمسة: هو أمير تحت إمرته خمسة فرسان، ومن ثم فإنه أمير من الطبقة الرابعة وهي أقل درجات الإمارة وتولي درجة كبار الأجناد.

(٤) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وهي من جبال لبنان . معجم البلدان –شهاب الدين –أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي –(المتوفي ٦٢٦هـ ٢٢٨ م).– الناشر –دار صادر –بيروت –لبنان – ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م (٣ ٤١٢).

(٥) الكرك :بسكون الراء وآخره كاف –قرية في أصل جبل لبنان معجم البلدان (٤ ٥٢٤)

تصريف شؤون السلطنة في نيابة حلب؛ لأن النيابة عُدَّت من أعلى وظائف أرباب السيوف. وتشغل نيابة حلب المرتبة الثانية بعد نيابة دمشق وذلك؛ لأن مملكة حلب من أوسع البلاد الشامية أعمالًا ويتولى نيابتها أمير يعينه السلطان بتقليد، على أن يكون من ضمن أمراء "مقدمي الألوف[١]"، أو مُنتقلًا إليها من نيابة أخرى ويكون في خدمته ١٥٠٠ مملوك[٢].

وتتمثل أهم واجبات نائب حلب ومهامه في تنفيذ الأحكام الشرعية، وتفقد العساكر الإسلامية وحثهم على الخدمة، واختيار الأكفاء لشغل الوظائف المرتبطة به وهي كثيرة وسوف يتم تناولها بعد قليل. إضافة إلى دوره في رعاية الأوقاف وعمارة البلاد ونشر الأمن والعدل بين رعاياه في حلب، وتنفيذ ما يصدر إليه من المراسيم السلطانية. ويمكن اختزال اختصاصات نائب حلب بأنه يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان المملوكي، ولكن في نيابته في حلب[٣].

ولا يخفى ما في رتبة نائب حلب من تميز؛ لأن غالبية نواب الممالك تُكاتبه فيما تكاتب به السلطان، ويُراجعونه كما يُراجعون السلطان، وكذلك بعض أصحاب الوظائف الرفيعة في حلب مثل الوزراء وكتاب السر[٤]. وقد تناوب على إمرة حلب عدد كبير من النواب، وتولاها بعضهم أكثر من فترة نيابة ومن

(١) مقدمي الألوف: هي رتبة عسكرية يقو ن بها إمرة مئة مملوك، وهو مقدم في الحو وب على ألف جند ي من أجناد الحلقة، وقد كانوا أعلى مراتب الأمراء. انظر: محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشىص ٩ ٤.

(٢) القلقشند ي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ ٤، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦ ١؛ ابن شاهين الظاهو ي: زبدة كشف المماليكص ٤ ٠ ١؛ ابن فضل الله العمو ي، أبو العباس أحمد بن يحي (ت: ٧٤٢هـ/١٣٤١م): التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٣ ٩ ١؛ حسن الباشا: الفنو ن الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ ١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٨ ٥ ١؛ محمد أحمد دهما ن: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٩ ٤ ١٠.

(٣) القلقشند ي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٦ + ٧ ١؛ حسن الباشا: الفنو ن الإسلامية والوظائف، جـ٤، ص ٨ ٥ ١.

(٤) القلقشند ي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٧ ١٠.

هؤلاء الأمير دمرداش( )، والأمير يلبغا الناصـــري( ) وغيرهما كثير على ما يوضـــح الجدول المرفق بملاحق الدراسة( ).

كان السلاطين يعمدون إلى عزل النواب وذلك خشية قيامهم بالتدبير لحركات عصيان ضدهم، سواء في حلب أو بالامتداد خارجها، فيعملون على التمرد والعصيان ضد السلطنة سواء في حلب أم بالامتداد إلى خارجها، مما يُهدد بإقصاء السلطان ذاته في القاهرة على ما فعل نائب حلب يلبغا الناصري الذي انضم إليه نواب بلاد الشام، وتسبب في إقصاء السلطان برقوق( ).

ونظرًا لكثرة عزل نواب حلب بشكل متكرر، وفي مدد زمنية قصيرة، فإن أكثرهم حرص على جمع الأموال من الحلبيين سواء بالطرق الشرعية أو بغيرها دون اهتمام بشؤون البلاد من إقامة الجسور وحفر الترع وما إلى ذلك. وهذا الأمر كان له نتائج خطيرة ترتب عليها تدهور أحوال الحلبيين وخاصة الفلاحين. كما اعتاد بعض السلاطين إسناد نيابة حلب إلى بعض الأمراء للتخلص من معارضتهم، وذلك ما حدث في نيابة الأمير شيخ المحمودي( ).

(١) الأمير سيف الدين دمرداش بن عبد الله اليوسفي، فترة حكمه –(٨١١هـ ٨٢٨ هـ) (١٤٠٨– ١٤٢٤م)، مقتله(٨٢٨ هـ – ١٤٢٤ م). المنهل الصافي(٨ ٤٤٢)

(٢) يلبغا بن عبد الله الناصر ي، الأتابكي ، الأمير سيف الدين ، ونسبته بالناصر يعلى جالبه خواجا ناصر الدين ، فترة حكمه – (٧٩٣هـ – ١٣٩٠ م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٢ ٨ ١٦٢)

(٣) انظر الملحق رقم (٢) بملاحق الدراسة.

(٤) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ٢، ورقة ٤٤٢٨؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت:٨٥٣هـ/١٤٤٩م): الدرر الكامنة في أعيا ن المئة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، جـ ٥، ط ٢، القاهرة،١٩٦١ +١٩٦٧ م ص ١٧ ٢؛ ابن تغ ري بر ي: النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٥ ٢ ٢.

(٥) السلط ن الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمو ي الشركسي، فترة حكمه –(٨٢٤هـ ٨١٥هـ/ ١٤٢١+ ١٤١٢ م)، حاكم مملوكي ، مرض السلط ن الملك المؤيد عام ٨٢٤هـ وتوفي في ٩ محرم ٨٢٤هـ / ١٤٢١ م بعد حكم دام ثمانية سنوات وخمسة أشهر(٧٧٢– ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١+ ١٣٧٠ م)، السلوك لمعرفة د ولة الملوك . دار الكتب القاهرة

أو من خلال إسناد نيابة حلب إلى بعض الأمراء الذين يميلون إلى كثرة المعارضة بهدف امتصاص غضبهم على ما حدث في نيابة سيف الدين جكم[١]، لحلب[٢].

ولا يُشترط في كل الأحوال أن يقوم السلطان بتقليد أحد الأمراء نائبًا له في حلب إذا ما استدعت الضرورة ذلك ولا يراجعه فيه أحد[٣]. وبالرغم من كثرة الاضطرابات التي تعرضت لها حلب في العصر المملوكي؛ نتيجة لظلم بعض النواب، وكثرة حركات التمرد والعصيان، وعدم استتاب الأمن والنظام، فإن ذلك لم يكن الشكل الدائم والمألوف للحياة في حلب؛ لأن بعض نواب حلب اتصفوا بالعدل ونعمت حلب في ظل حكمهم لها بالرخاء والأمان والاستقرار[٤].

نيابة القلعة: يُعرف صاحب هذه الوظيفة بنائب القلعة ويُعينه السلطان بنفسه، وليس لنائب حلب من سلطان عليه. وكانت رتبته أمير طبلخانة[٥] قبل التمرد الذي قام به يلبغا الناصري نائب حلب سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م، وحينها غير السلاطين رتبة نواب قلعة حلب إلى أمير مئة مقدم ألف[٦]. ويرجح قيام السلاطين بهذا الإجراء لحرصهم على المساواة بين رتبة نائب حلب ونائب القلعة بهدف حماية المدينة والقلعة من طموحات النواب الخارجين عن طاعة السلاطين. وكان بعض نواب حلب لا يُوقرون نواب القلعة ولا يُقدرونهم نظرًا لتدني رتبتهم مما دفع السلاطين إلى رفع رتبهم على ما سلفت الإشارة. إضافة إلى ظهور الخطر التركماني والخطر العثماني في تلك الفترة؛ ولأن حلب كانت معرضة لأخطارهم بشكل متكرر بسبب موقعها

---

(١) الأمير سيف الدين جكم بن عبد الله بن عوض الظاهري، الملقب بالملك العادل ، قتل جكم يوم الأربعاء(٨٠٩هـ - ١٤٠٦م)، المنهل الصافي(٣/ ٣٩٤).

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ٢١٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١٤ص ٧١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ص ٤٣٣؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ٣٤١.

(٤) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ ٣، مكتبة القدسي، القاهرة،١٩٣٦-١٩٣٨م ص ٦٧؛ الصيرفي، علي بن داوود الخطيب الجوهري (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، جـ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،١٩٧٠م-١٩٧٣م ص ٦٤؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ٣٤١.

(٥) ابن ناظر الجيش، عبد الرحمن بن محمد التميمي الحلبي (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م): تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق:روفلد فسلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة،١٩٨٧م ص ٣٥؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٣٠١.

(٦) أمير مئة مقدم ألف: هو أمير تحت إمرته مئة أو ألف فارس ممن دونه من الأمراء، وهو أمير من الطبقة الأولى وهي أعلى مراتب الإمارة، ومنهم يُعين النواب وأكابر أرباب الوظائف. انظر: محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشى ص ٤٩.

القريب من مكمن خطورتهم( ) على ما سبقت الإشارة،[1] ومن ثَّم باتت رتبة نائب قلعة حلب مهمة لتلك الأسباب.

وتمثلت أهم واجبات نائب القلعة في حفظ القلعة وعمارتها وفتح أبواب القلعة وإغلاقها وعمل حصر بذخائرها وأموالها( ). وحرص نائب القلعة على[2] تخصيص عدد مناسب من الجنود الذين قُدروا أحيانًا بأربعين جنديًا لحراسة قلعة حلب( ). ومع الوقت بات نائب آلقلعة عينًا لسلطان القاهرة البعيدة على نائب حلب، ويرى زياد المدني أن السلطان كثيرًا ما تدخل لعزل نائب حلب حينما يصله من نائب القلعة ما يفيد بظلم النائب لرعاياه أو بسبب خروجه عن طاعته فيعمل على عزله وتولية غيره( ).

وشغل عددٌ من الأمراء مكانة نائب القلعة، منهم الأمير ناصر الدين بن سلار (٧٩٠هـ/١٣٨٨م)، والأمير محمد بن بلبان بن ناصر الدين ( ). (٧٩١-٧٩٢هـ/١٣٨٩-١٣٩٠م)، والأمير شاهين بن عبد الملك الدودار (٨١٦-٨١٤هـ/١٤١١-١٤١٣م)، والأمير يشبك الساقي( ). (٨١٦-٨٢٠هـ/١٣١٤-١٤١٧م) والأمير شاه الأرغوني( ). (٨٢٠-٨٢٦هـ/١٤١٧-١٤٢٢م) وغيرهم كثير( ).

---

(١) الصيرفي: أنباء الهصر ٥ ٢ ٣.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٨ ٥ ٢؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريفص ٥ ٩ ٦ ٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٧ ٢.

(٤) زياد المدني: مدينة حلبص ٥ ٣ ١، الصيرفي: أنباء الهصر ٥ ٢ ٣.الصيرفي —أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان التنوخي المصري (٤٦٣ — ٥٤٢هـ) (١١٤٧ + ١٠٧١ م)

(٥) محمد بن بلبان ناصر الدين بن الأمير سيف الدين المهمندار الحلبي، فترة حكمه -(٧٩٢ ٧٩١هـ)(١٣٩٠ + ١٣٨٩م)، (ت ٧٩٢هـ - ١٣٩٠م)، إعلام النبلاء بتاريخ حلب والشهباء(٨ ١٠٧) —دار القلم العربي —حلب —سوريا

(٦) الأمير سيف الدين يشبك بن عبدالله الساقي الظاهري الأعرج، فترة حكمه -(٨١٦ ٨١٤هـ)(١٤١٣ + ١٤١١م)

(٧) الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري أحد أمراء المماليك ونائب السلطنة على الشام، فترة حكمه -(٨٢٦ ٨٢٠هـ)(١٤١٧ ١٤٢٢م)، الوافي بالوفيات —الصفدي -(٨ ٢٢٨) —دار احياء التراث العربي

(٨) انظر عنهم: ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ٤ص ٧ ١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٤ ص ٢ ٨ ٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ ٣ص ١ ٦ ١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٢ص ٥ ٧ ٢، جـ ٣ص ٣ ٠ ١.

وقد لوحظ أن جميع نواب حلب – على ما يبين الجدول المرفق بملاحق الدراسة – في الفترة المملوكية الأولى ينحدرون من أصول غير عربية، ويُلحظ أيضًا أن معظم نواب حلب نُقلوا إليها من المدن الشامية الأخرى سواء من صفد أو طرابلس أو حماة وربما من دمشق أحيانًا، وخاصة في عصر المماليك البحرية[١].

الحجوبية: تعتبر الحجوبية أو الحجابة من وظائف أرباب السيوف أيضًا، ويتقلدها أمير يحمل لقب حاجب الحجاب[٢]، وغالبًا ما يكون من أمراء الألوف، ويعد تقليده وظيفته من مهام السلطان أيضًا وليس نائب حلب، ويتبعه ثلاثة حجّاب آخرون من أمراء الطبلخانة، أو ربما من أمراء العشرة ولكن يعين هؤلاء نائب السلطنة، ولا يسمح حاجب الحجاب لأحد بدخول دار نيابة حلب غيره[٣].

أما المهام التي وكلت إليه في حلب فممثلة في أن يتصرف في شؤون النيابة حينما يغيب نائب حلب، إضافة إلى سعيه لتحقيق العدالة وإرساء قواعدها بين الأمراء والجند، والقبض على نائب السلطنة امتثالًا لأوامر السلطان[٤]،والمشاركة في الحملات العسكرية التي يقوم بها نائب حلب للدفاع عنها أو لصد خطر خارجي يهددها، كما يفصل الحاجب بين الأمراء والجند[٥].

الأتابكية[٦]: ويعبر عن صاحبها بأتابك العسكر، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب، وليس له وظيفة ترجع إلى الحكم أو الأمر أو النهي، وغايته الرفيعة علو المقام. وتعني الأتابكية في العصر المملوكي قيادة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦ ص ٢٨٤؛ جورج فريد: مدينة حلب في العصر المملوكي ص ١٢١.

(٢) حاجب الحجاب: مهمته حراسة باب القاضي وطلب الإذن منه في الحاجات على حد سواء. انظر: السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ت: محمد على النجار وغيره، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٢، ١٩٩٣م ص ٦١.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، جـ٣ ص ٣٧٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦ ص ٤١٨ ٢١٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١ ص ٥ ٨٣.

(٥) المقريزي: السلوك، جـ٢ ص ٨٨٩؛ الصيرفي: نزهة النفوس، جـ٣ ص ٣٥٣.

(٦) الأتابك: تعني الأب الأمير، وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش. وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة ويدعى أيضًا أتابك العسكر ولم تكن له صلاحيات أمر ونهي. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦ ص ٨١؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٣٢ ص ٢٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٤ ٨١.

الجيش وقت السلم والحرب ووضع الخطط العسكرية[1]، وقد تولاها الكثير من الأمراء طوال العصر المملوكي[2].

وظيفة رأس نوبة: وموضوعها الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم. وقد يضاف إلى رأس نوبة جهة اختصاص أخرى مثل رأس نوبة السقاة ورأس نوبة الأمراء، وكبير رؤوس النوب كان يقال له "رأس نوبة النوب" وقد يشار إليه بأنه "رأس رؤوس النوب"[3].

شد الأوقاف: وهي من وظائف أرباب السيوف الذين يعينهم السلطان، وهو معنيٌّ بالتحدث على سائر أوقاف مملكة حلب[4]، وهو من الأمراء مقدمي الألوف وتشمل صلاحياته كافة نيابة حلب بعكس دمشق التي كان شاد أوقافها قاصر على أوقاف مدينة دمشق وحدها، وهو أيضًا أمير طبلخانة[5].

المهمندارية: وهي من الألقاب الفارسية التي تعني مسك الضيف ويسمى صاحبها مهمندار[6]، ويعينه نائب حلب. وجرت العادة أن يُعين في حلب اثنان من المهمندارية: الأول برتبة أمير طبلخانة، والآخر جندي حلقة. ويختص المهمندار باستقبال الرسل القادمين من أمراء التركمان والعرب[7].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٣، ص ٢٣٠؛ النويري: نهاية الأرب، جـ ٨، ص ٢٢٨،٦؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٤١٢.

(٢) عن أهم الأمراء الذين تقلدوا منصب الأتابكية في حلب انظر: ابن تغري: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٩،١٥٠، ٢١٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٢٢٠،٢، ٣٧٥.

(٣) جرت العادة أن يقوم بوظيفة رأس نوبة أربعة أمراء هم: مقدم ألف وثلاثة طبلخانة ممن تحت إمرة كل منهم على الأقل أربعين فارسًا. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٨٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٨، ص ٢١.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٦، ص ١٨.

(٦) المهمندار: هو مستقبل الرسل الواردين وشيوخ العرب وغيرهم، و"مهمن" بالفارسية تعنى الضيف. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٧٤١.

(٧) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ص ٣٨٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٥، ص ٢١٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٨٢؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص ١٤١.

شد الدواوين: ويسمى صاحبها بشاد الدواوين[1] ويعينه نائب حلب، وتختص هذه الوظيفة باستخراج الأموال المستحقة على حلب والممثلة في الخراج[2] والعشور[3] والغنائم وما سواها. وتتسع دائرة اختصاص شاد الدواوين إلى إمداد قلاع نيابة حلب وحصونها المنتشرة في حيزها بالأموال والذخائر والغلال[4].

ولاية المدينة: ويسمى صاحبها بوالي المدينة ويعينه نائب حلب. وتنحصر مهام والي المدينة في ضبط الأمن ومكافحة الجريمة والإشراف على مراكز الشرطة في نيابة حلب، علاوة على اهتمامه بتقصي حوادث الجرائم والسرقات وإفادة نائب حلب بنتائج تحقيقاته[5].

شد البريد: ويُسمى صاحبها بشاد البريد، وتنحصر مهامه في الإشراف على البريد والموظفين القائمين عليه ومراقبتهم والتفتيش عليهم[6].

ثانيًا: أرباب الوظائف الديوانية:

هم أصحاب الوظائف العليا التي تدير نظام السلطنة، وولاية هذه الوظائف من الأبواب السلطانية، وهم:

١-نظر المملكة: وتُعد من أعلى الوظائف الديوانية ويُسمى متوليها بناظر المملكة، ويحمل لقب وزير أحيانًا في حالة ولايته منصب الوزارة في القاهرة، ويعينه السلطان. ويتبع الوزير مجموعة أخرى من الموظفين منهم المستوفي والكاتب، بيد أن السلطان لا يُعين هؤلاء وإنما يعينهم نائب حلب. وتمثلت أهم واجبات الوزير في جباية أموال الأعشار والتجار والخراج، وتوزيع الإقطاعات واستثمار الزروع[7]، ويحمل أثقال المملكة ويحفظ أموالها وينميها، ويستخدم الأشخاص الكفاة الثقاة، ويُوليهم أعمالهم ويلزمهم بإتباع العدل

(١) شاد الدواوين: أي فتشها وضبط حساباتها، وهو مساعد الوزير والمشرف على استخلاص الأموال وعادة يكون أمير عشرة. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٥ ٩.

(٢) الخراج: عبارة عن الضريبة التي فرضتها السلطنة على الأراضي الزراعية ويدفعها الفلاح لصاحب الإقطاع ويوردها الأخير للدولة، وتختلف تلك الضريبة من منطقة إلى أخرى تناسبًا مع خصوبة التربة وطريقة ري الأرض، وتؤخذ الضريبة إما مقاسمة أو ضريبة مقدرة سواء زاد عائد الأرض أو نقص. انظر: النووي: نهاية الأرب، جـ٥ ص ٤ ٥ ٢٨٠،٢٨٩،٢٩٠؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ١ ٧ ٢.

(٣) العشور: ضريبة يدفعها المسلم على محاصيله باعتبارها زكاة أو صدقة. انظر: النووي: نهاية الأرب، جـ٥ ص ٩ ٥ ٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥ ص ٩ ١ ٢، جـ٢ ص ٥ ٥ ١؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٥ ٩.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥ ص ٦٠٦٨٣؛ السبكي: معيد النعم ص ٣ ٤ ٤.

(٦) المقريزي: السلوك، جـ٣ ص ٣ ١ ٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥ ص ٠ ٢ ٢.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٥ ص ٨ ١ ٣٩٣ ٣، جـ٢ ص ٦ ٦ ١؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك ص ٨ ١ ١٩٠ ١.

في أعمالهم ويحذرهم من الظلم والخيانة. ويراعي الوزير تصرفاتهم ويطلع على أقوالهم وأفعالهم؛ فيحذر المخطئ وينبهه إلى خطئه ويعلي مكانة من أحسن في عمله[1]. ولكن انحصرت مهامه وتراجعت مع سلطنة الظاهر برقوق؛ نتيجة لاستحداث منصب نائب السلطنة في مصر. وعلى ما يبدو أن حلب شهدت تطبيق ذلك الإجراء، حيث أصبح الوزير يختص بجمع المكوس وإمداد مراكز البريد بالأموال والأطعمة[2].

ديوان المكاتبات: ويختص هذا الديوان بالمراسلات التي ترد إلى نائب حلب والتواقيع الصادرة عنه. ويختص برئاسة هذا الديوان موظف يسمى كاتب السر الذي يعينه السلطان، وهو أحد أهم المطلعين على خفايا الأمور التي قد يسعى نائب حلب إلى إخفائها عن السلطان[3]. ويشترط في متولي هذه الوظيفة أن يكون على دراية بالآيات القرآنية وأسباب نزولها، والأحاديث النبوية وفهم مدلولها، وأن يكون على دراية كبيرة بتاريخ الملوك والسلاطين، وعلى وعي وثقافة بالأحكام والأمثال ووقائع الحروب[4]. وقد طرأ على طريقة تقليدهم وظائفهم بعض الانحراف والفساد حينما صار متولوها يتقلدونها ببذل الأموال مع منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[5].

وتبع ديوان المكاتبات بعض الموظفين منهم: كتّاب الدست الذين يوقعون على جوانب القصص بعد كُتّاب السر، ويقرؤون القصص في موكب نائب السلطنة. أما كتّاب الدرج فيُوقعون ما يُوقع عليه كتّاب السر وكتّاب الدست من المكاتبات والتقاليد والمراسيم، ناهيك عن كتابة عهود القضاة ومنشورات إقطاع الأمراء والجند[6].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص ٨ ٧+ ١٨٦، ٨ ١٢.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٨ ٥ ٢؛ حكيم السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ١١٩ ١٨ ١ ١؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص ٧ ٤ ١. وعن بعض الذين تقلدوا هذه الوظيفة في حلب انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص ٨ ٢ ٣.

(٣) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٨ ٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص ٩ ١ ٢.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٨ ٥ ٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٢، ص ٨ ٢ ٣؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٨ ٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٦، ص ٩ ١ ٢. وأيضًا سعيد عاشور: مصر والشام، ص ١ ٠ ٣. وعن بعض الذين تقلدوا هذه الوظيفة انظر: ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ١، ورقة ١٩٦، جـ ٢، ص ١٨٤، ١؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر، جـ ٢، ص ٨ ١؛ العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد (ت:١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ ٧، مكتبة القدس، ١٣٥٠هـ، ص ٩ ٥، ١٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٢، ص ٨ ٥.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، جـ٢، ص ٩ ٥ ٢.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص ٧ ٣ ١؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٠ ٠ ١.

نظر الجيش: ويختص بشؤون الجنود واحتياجاتهم وإقطاعاتهم وأموالهم، ويتولاه موظف يُسمى ناظر الجيش ويعينه السلطان، ومن أهم واجباته: إعداد قوائم إقطاعات الجنود التي يعينها نائب السلطنة وتجهيزها وإرسالها إلى السلطان، وإثبات ما يصدر إليه من المناشير الإقطاعية الخاصة بالمقطعين والتي يرسلها السلطان إليه. وفضلًا عن ذلك فإنه مُكَلف باستعراض الجيش في المناسبات(١)، وعلى ما يبدو أن تلك الوظيفة كانت تُسند إلى القضاة في بعض الأحيان(٢).

نظر المال: ومن اختصاصاتها الإشراف على واردات حلب ومصروفاتها، ويتولاها موظف يُسمى ناظر المال ويعينه السلطان ويتبعه الكتّاب والشهود الذين يعينهم نائب حلب(٣).

نظر الأوقاف: وتهتم بأوقاف نيابة حلب ويتولاها موظف يسمى ناظر الأوقاف أو الوقف ويعينه نائب حلب. ويُعد هذا الموظف المسؤول عن الأوقاف واستثمار أموالها وعقاراتها(٤).

نظر الجامع: يختص صاحبها بالإشراف على الجامع الكبير في مدينة حلب، ويتولاها موظف باسم ناظر الجامع ويعينه نائب حلب. ومن أهم واجبات ناظر الجامع: الإشراف على أوقاف الجامع وتسلم التبرعات وعمارة الجامع وما إلى ذلك(٥).

---

(١) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٣٠١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٢٣، ٣٢٠؛ جـ٢، ص ٦٦١؛ سعيد عاشور: مصر والشام، ص ١٠٣؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٥٠١.

(٢) رضي الدين الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي (ت:٩٠٨هـ/١٥٠٣م): در الحبب في أعيان حلب، تحقيق: محمود حمد الفاخوري، جـ٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢م، ص ١٠٥.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٢١؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٥، ص ٢٩٥.

(٤) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ٢، ورقة ٣٤٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٢١؛ السبكي: معيد النعم، ص ٤٦-٥٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٢١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٢٠. وعن بعض الذين تقلدوا هذه الوظيفة في مملكة حلب انظر: ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص ٢٢٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٥، ص ١٦٥.

نظر الخاص: من ضمن الوظائف التي استحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتختص هذه الوظيفة بتحصيل المواريث العشرية ورسوم البهارات ورسوم القناصل الأجانب في حلب، إضافة إلى توزيع الأضاحي على العامة والخاصة، وكذا خِلَع النواب والقضاة[١].

الأستادارية[٢]: لقب فارسي يعني المسك، وقد أشار ابن الشحنة إلى أهم واجبات الأستادار في حلب بأنه يتولى شؤون إقطاع نيابة حلب[٣].

ثالثًا: أرباب الوظائف الدينية:

كثر أرباب الوظائف الدينية في حلب ما بين قضاة وأمناء وقضاء عسكر ومن سواهم وأسندت إليهم مهام محددة، وذلك على النحو التالي:

القضاء: يعد القضاة من أهم أرباب الوظائف الدينية الرفيعة في العصر المملوكي عامة وفي حلب خاصة؛ وذلك لارتباط تلك الوظيفة بأحكام الشريعة الإسلامية. وقد عهد المماليك إلى العناصر المحلية من حلب وغيرها ولاية منصب القضاء في ممالكهم[٤].

وبالرغم من وجود المذاهب السنية الأربعة في حلب فقد اتسم كل من المذهبين الحنفي والشافعي بالانتشار وكثرة الأتباع في حلب وعُيّن لكل مذهب قاضٍ لأجل ذلك[٥]. وقد انتشر المذهب الشافعي بين

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣٣٠؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٧٠ + ٨٠ + ١٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص ٦ ٤ ٢.

(٢) الأستادار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان ومصروفاته وتنفيذ أوامره، وهو لقب فارسي مركب. انظر: محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشى، ص ٨ ٢.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٦٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ١٠، ص ٨ ١ ٢.

(٤) القضاة وموضوعهم التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأمور الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه، وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرًا وأجلاها رتبة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ص ٤ ٣.

(٥) الغزي: نهر الذهب، جـ١، ص ٨٩ + ٩ ١.

الحلبيين أكثر من المذهب الحنفي، وربما لأجل ذلك كان القاضي الشافعي من أعلى القضاة الأربعة، وتولى تعيين نواب له في سائر نيابة حلب، بينما كان للمذاهب الأخرى نواب لقضاتها في مدينة حلب فحسب( ).

واشترط لتعيين القاضي: العلم والمعرفة وحسن السيرة والتفقه في الدين وأحكام الشريعة، ولا يُعينه نائب حلب، وإنما يعينه السلطان نفسُه. وتمثلت أهم مهام القاضي في فض المنازعات بين الخصوم، وحماية الأوقاف، وتوزيع الصدقات وكفالة الأيتام، والإشراف على المساجد وعقود النكاح، والنظر في دعاوى بيت المال والتأكد من عدم زيف النقود. **الوظائف التابعة للقاضي**: يتبع القاضي مُوظفًا يُسمى كاتب( ) التوقيع( )، فضلًا عن **الأعوان**( )،[3] **والأمناء**( )، و**الترجمان**[4]( )، و**العدول**[5]( ). ولا يمكن[6] تجاهل دور هؤلاء وغيرهم ممن ضنت المصادر بذكر أي مادة تُفصح عن دورهم، وبخاصة أنه لا يمكن الاستغناء عنهم كمساعدين للقاضي.

قضاء العسكر: من الوظائف الدينية الرفيعة التي تتعلق بقضاء العسكر وخاصة فض الخصومات والمنازعات بين الجند والمتعلقة بالغنائم والديون المؤجلة. وقد يتولى هذه الوظيفة مُوظف يُسمى قاضي العسكر ويُعينه نائب السلطنة. ويُوجد في حلب قاضيان للعسكر: أحدهما شافعي المذهب والآخر حنفي المذهب، ويتخذ

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٣٥٣، جـ ٤ ص ٣٤١؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٩؛ المقريزي: السلوك، جـ ٣ ص ٨٥٩.

(٢) الكاتب: مهمته كتابة دعاوى المتقاضين وكتابة أحكام القضاء، ويُشترط فيه أن يكون ملمًا بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وأن يكون حسن الفهم عن اللافظين من عوام الواقفين للقضاء. انظر: السبكي: معيد النعم ص ٦٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٢٥، جـ ٤ ص ٣٤١٢٤؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٩-١٢٠؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ١٩؛ ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ٢، ورقة ٣٥٢؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة ق ٤٢٤. وعن قضاة المذاهب الأخرى في حلب في الفترة قيد الدراسة انظر: زياد المدني: مدينة حلب ص ٨٥٤٦٤١.

(٤) أعوان القاضي: مهمتهم إحضار الخصوم إلى دار القضاء، والقيام بين يدي القاضي عند نظره في القضايا احترامًا له. انظر: علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وعهد الناصر محمد بوجه خاص، دار النهضة المصرية، القاهرة ط ٢، ١٩٤٨م ص ٩٠٢.

(٥) الأمناء: مهمتهم التحفظ على أموال اليتامى والغائبين. انظر: السبكي: معيد النعم ص ٦٢.

(٦) الترجمان: يقوم بدور الوسيط في التفاهم بين المتقاضين بعضهم البعض أو بينهم وبين القاضي إذا كانوا لا يعرفون العربية، ويُشترط فيهم وفيمن سبقوا العلم والأمانة. انظر: علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وعهد الناصر محمد بوجه خاص، دار النهضة المصرية، القاهرة ط ٢، ١٩٤٨م ص ٩١٢.

(٧) العدول: من مهامهم مراجعة السجلات والعقود؛ لمعرفة صحتها ومطابقتها للشرع، والشهادة أمام القاضي بما شهدوه، والشهادة على حكم القاضي، وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي. انظر: عبد الخالق حسين: النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م ص ٢٠٤؛ علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك ص ١٩٢.

أحدهما من خيمة كبيرة مقرًا له لفض المنازعات والفصل بين الخصوم وتسجيل القضايا التي ينظرها في سجل خاص( ) [1].

إفتاء دار العدل: وهي من الوظائف الدينية التي تختص بإصدار الفتاوى ذات العلاقة بالقضايا الشرعية المهمة بصفتها المرجع الأعلى للفتوى. وكان في حلب مفتيان: أحدهما شافعي والآخر حنفي، ويُعين المفتي من قبل نائب سلطنة حلب( ) [2].

وكالة بيت المال: وفضلًا عن ذلك فقد وُجد في حلب وظيفة وكيل بيت المال وهي من الوظائف الدينية التي تُشرف على بيت المال من مبيعات ومشتريات، ناهيك عن الإشراف على عقود البيع والشراء والإيجار وكان يتولاها موظف يُسمى وكيل بيت المال الذي يُعين من قِبَل السلطان( ) [3].

مشيخة الشيوخ: ويتولى صاحبها الإشراف على جميع الخانقاوات والفقراء في حلب من حيث الاهتمام بتعليم الفقراء ورعايتهم، وكان يتولاها شيخ الشيوخ الذي يُعَيَّنه نائب حلب. وإضافة إلى ذلك فقد كان شيخ الشيوخ يقدم التهاني إلى السلطان في الأعياد والمناسبات المختلفة( ) [4].

الحسبة: من ضمن الوظائف الدينية وقد تولاها موظف يُسمى المحتسب( ) ويعينه نائب حلب، ويُشترط فيه أن يكون حرًا عاقلًا، وأن يكون صارمًا في التزامه بالدين وعارفًا بالمنكرات. وتُعد الحسبة من أخطر الوظائف الدينية لارتباطها بحياة الناس اليومية( ). ويباشر المحتسب اختصاصه بالمحافظة على الآداب العامة، وحثّ

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٦، ص٣٧٣، ٢٢٢؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص٢٣٠ ـ ٢٥١؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٦، ص٢٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢، ص٢٢٣ ـ ٢٣٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، جـ٤، ص٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٧، ص٦.

(٣) ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص٣٠ ـ ٣١١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢، ص٢٢٣ ـ ٢٣٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٢؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص٢٧١؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٩.

( ) اختصاصات المحتسب: شملت مختصاصاته الرقابة على الأسواق لمنع التدليس والغش والتلاعب، وامتدت للإشراف على نواح أخرى، كالإشراف على مؤدبي الصبيان والجراحين والمجبرين والأطباء، والإشراف على المساجد والمحافظة على نظافة الطرق، والرفق بالحيوان، ومراقبة الآداب العامة وغير ذلك مما شملته اختصاصات المحتسب والاحتساب. انظر: نيقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م، ص١٣٤؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٦.

(٦) ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي (ت: ٧٢٩هـ/١٣٢٩م): معالم القربة في أحكام الحسبة، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٤٥؛ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل(٧٧٤هـ): البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق: أحمد عبد الوهاب ،جـ١٤، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٨٥.

الرعية على المصالح العامة، ومنع المضايقة في الطرقات، وإزالة المباني المتداعية وما شابه، والإشراف على الأسواق، ودور ضرب العملة، ومراقبة الموازين والمكاييل والغش والأسعار، وأخذ العهود على العطارين بعدم بيع العقاقير الطبية، ناهيك عن امتداد اختصاصه إلى تعيين نوابه في سائر نيابة حلب[١].

خطابة الجامع الكبير: هي من ضمن الوظائف الدينية وموضوعها إقامة الشعائر الدينية بالجامع مثل إقامة الصلاة في أوقاتها، وإمامة المصلين، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتولى خطابة الجامع خطيب الجامع الذي يعينه نائب سلطنة حلب[٢].

وبالنسبة لكبار الأمراء في حلب الذين شكلوا الطبقة الحاكمة واعتبروا من أعيان الأمراء، فكان منهم على سبيل المثال: الأمير عيسى بن موفق بن المزهر مبارك (٦٧٢هـ/١٢٧٣-١٢٧٤م)، والأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر (٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤٢م)[٣]، والأمير شهاب الدين أحمد ابن الأمير علاء الدين مغلطاي الشمسي، والأمير إبراهيم بن عبد الله الحرابي الشهير بأمير قوصون (ت:٧٦٧هـ/١٣٦٥-١٣٦٦م)[٤].

رابعًا: الجند

كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذين يعتمد عليهم في دعم سلطته أو في صراعه ضد الآخرين؛ ونظرًا لتعدد فئات الجيش المملوكي، وتنوعهم فقد قسم السلطان الظاهر بيبرس فرق الجند على أساس ثلاث طوائف، يتكون كل أفرادها من المماليك على النحو التالي[٥]:

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٨٣-٣٨٧؛ ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٤٠-٢٥١؛ النويري: نهاية الأرب، جـ٧، ص٢٩٣-٣٤٠؛ نيقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، ص١٣-٣٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٢٤-٢٣٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ٢، ص٣٠٣-٣٣٠؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ص٣-٨-٤٠.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٦، ص٦-٦٤؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٧٣-١٠٤؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص٣٤٠-٣٤٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٤، ص٧-١٥.

(٥) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص٢٨-٠-١٠٢،

المماليك السلطانية: وهم على نوعين مماليك للسلاطين السابقين، وأطلق عليهم اسم القرانصة أو القرانيص، ومنهم طائفة المماليك الخاصكية أو الأحداث[1]، وهم مماليك السلطان القائم قبل اعتلاء العرش، ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بانضوائهم صغارًا في خدمة السلطان؛ لأنه تولى تربيتهم وتدريبهم وكانوا يلازمونه في خلوته[2]. كما يُطلق على مماليك السلطان عامة اسم مماليك الطباق[3] لأنهم كانوا يسكنون طباق القلعة[4]. وبلغ المماليك السلطانية مركزًا اجتماعيًا مرموقًا فاق مركز بقية المماليك؛ وذلك لشدة قربهم من السلطان الذي كان يُقطعهم الإقطاعات ويُؤَمِّرهم[5].

جيوش الأمراء: وشكل هؤلاء الجزء الثاني من الجيش المملوكي العام، إذ كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم والنيابات يكونون جيوشًا صغيرة تتراوح أعدادهم ما بين ثلاثمئة وثمانمئة مملوكي، ويؤكد قاسم عبده قاسم أن غالبية جيوش أمراء المماليك كانت تتمركز خارج القاهرة[6].

جنود الحلقة: يمثلون أهم فرق الجند المعروفة في ذلك الوقت، وهم من أهم الفرق التي حازت الإقطاعات في الجيش المملوكي، ويتكونون من الأمراء الذين انفصلوا عن إقطاعاتهم بالوفاة أو النفي أو كبر السن. وجرت العادة أن يضم السلطان هؤلاء المماليك إلى الحلقة لذا كانوا من حيث المرتبة أقل من المماليك السلطانية. وتحدد المصادر جنود الحلقة بأنهم على وجه الدقة فرق مأجورة من التركمان وأمراء البادية، وأكبر الظن أن

---

(١) الخاصيكة أو الأحداث: هم أقرب المماليك السلطانية إلى السلطان، وهم الحرس الشخصي ويدخلون عليه في خلواته وأوقات فراغه، وينالون من ذلك ما لا يناله كبار الأمراء، ويتوجهون في المهمات الشريفة ويتأنقون في مركوبهم وملبوسهم. انظر: المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، جـ٢ ق ٢ ص ٦٤٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٤ ص ٧٠؛ محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٦٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٨ ٢٠٨.

(٣) الطباق: جمع طبقة وهي ثكنات جيوش المماليك في القلعة، وضمت كل طبقة المماليك المجلوبين من بلد واحد، ويعكس مفهوم الطباق المدرسة العسكرية في المفهوم الاصطلاحي الحالي. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٥٠١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٥١٦ ١٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٦ ١٠.

(٦) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ص ٥٠ ١٠.

الفرسان المكونين لنواة الحلقة كانوا من أبناء وأحفاد الإقطاعيين المحليين في مصر وبلاد الشام ولكنهم فقدوا حقوقهم في ضياعهم الأصلية(١).

ويُطلق عليهم أيضًا اسم أولاد الناس وهم أبناء المماليك، وكانوا مستخدمين بأغلبيتهم في قوى عسكرية مساندة وهي الحلقة التي أحدثت خصيصًا بهدف إيجاد توظيف ملائم اجتماعيًا وماليًا لأولاد الأمراء السابقين. وفي الواقع أصبح العديد من أبناء الأمراء هم أمراء من خلال ترقيتهم في سلك الحلقة(٢). وكان أجناد الحلقة بمثابة الحرس الوطني في عصرنا الحالي، كما كانوا يقومون بدور قوات الاحتياط التي يتم تجنيدها واستدعائها للمعارك الكبرى(٣).

وكان السلاطين يُولونهم عناية كبيرة لتربيتهم وتدريبهم؛ لأنهم بمثابة الحرس السلطاني الخاص، كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرًا وأكبرها إقطاعًا سواء في البلاط أو الجهاز الحكومي(٤)، وقد أولاهم السلاطين اهتمامهم وخاصة في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم أيام السلطان الملك الظاهر برقوق وزاد عددهم وذلك لطول مدة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك وشرائهم(٥).

أما مماليك نائب حلب أو الأمراء فيعتبرون حرسًا خاصًا بهم، وقد بلغ عددهم حوالي ألفين، وهو ذاته عدد أمراء المماليك تقريبًا(٦). بينما شكل العرب والتركمان قوة غير نظامية ملحقة بالجيش المملوكي. ولا أدل على ضعف الجيش المملوكي في حلب في أواخر العصر المملوكي من فشله في صد الهجمات التي تعرضت لها حلب، وعجزه في أحايين كثيرة عن إخماد حركات التمرد والعصيان التي قام بها بعض الأمراء العرب والتركمان(٧).

---

(١) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المماليك، ص ١٠٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٧؛ سعيد عاشور: مصر والشام، ص ١٠٣.

(٢) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية، ص ٦٩١.

(٣) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٠١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٦١.

(٥) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٠١.

(٦) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف المماليك، ص ٣١.

(٧) ابن الشحنة:الدر المنتخب، ص ٣٩٢-٣٢٤-٢٨٤-٢٤٢ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠١؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص ٤١.

كما ضـــم جيش نيابة حلب مماليك الأمراء وأجناد الحلقة، وبلغ عدد ذلك الجيش حوالي ثمانية آلاف مملوك، وهي نسبة تعادل ٢٥% من جيش بلاد الشام بأكمله، وبذا تأتي حلب في المرتبة الثانية بعد دمشق بالنسبة لعدد جيشها( ). وكان للظاهر بيبرس ١٢ ألف جندي خاص، وهؤلاء كان ثلثهم في مصر وثلثهم في دمشق وثلثهم في حلب، وكان يطلبهم عند حاجته إليهم( ). وفي سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م صارت حلب أكبر رتبة من دمشق وأضيف إليها من عسكر دمشق أربعة آلاف فارس، ربما لرغبة المماليك في زيادة قواتهم الدفاعية على الولايات الشمالية وخصوصًا في حلب التي تعرضت وقتها لغارات الأرمن( ). كما وُجد قسم من جنود حلب داخل قلعتها لمدة معينة تحت إشراف نائبها( ).

وبذا تشكلت طبقة الخاصة من الموظفين من أرباب السيوف والوظائف الديوانية وعناصر الجيش وأمراء المماليك، وشكل هؤلاء طبقة اجتماعية اقتصادية مميزة عن سائر الفئات الاجتماعية الأخرى؛ نظرًا لحيازتها الإقطاعات التي لم تملكها طبقة العامة.

(١) جورج ﻫ ود: مدينة حلب ص ١٣ + ٤ ١ ١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ١ ص ٨ ٣ ٦، جورج ﻫ ود: مدينة حلب ص ١٣ ١ ١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٣ ص ٧ ٢ ١.

(٤) جورج ﻫ ود: مدينة حلب ص ١٣ + ٤ ١ ١.

الفصل الثالث

طبقة العامة

أولا: القضاة والعلماء.

ثانيا: التجار.

ثالثا: الفلاحون.

رابعا: أهل الذمة.

الفصل الثالث

طبقة العامة

تتمثل الطبقة العامة في المجتمع الحلبي، من فئات مختلفة ومتعددة، ولكل منها علاقته الخاصة بالسلاطين والمماليك، وأثرها في المجتمع الحلبي.

أولًا: القضاة والعلماء:

يُعد القضاة والعلماء من عامة الشعب وإن كانوا من الشريحة الأعلى من بين شرائح العامة في المجتمع الحلبي. وقد شمل تعبير العلماء العديد من الفئات الاجتماعية، مثل العلماء والمعلمين والقضاة والشيوخ والوعاظ والمحتسبين، وكانوا من أكثر فئات العامة احترامًا وإجلالًا بسبب حرمة الوظائف الدينية التي قاموا بها والعلم الديني الذي حملوه؛ إذ كانت العلوم الدينية أساس التعليم في هذا العصر مما جعل بعض المؤرخين يطلقون عليهم مصطلح المعممون أو أهل العمامة، وكان سلاطين المماليك يقربون أهل العمامة إليهم ضمن سياسة الاهتمام بالمظهر الديني، وبات من المعتاد صعود كبار القضاة والفقهاء لتهنئة السلطان بالمناسبات الدينية المختلفة[١].

وقد تمركز نفوذ هؤلاء في حلب في المدارس والحارات والقرى التي سكنوها وعرفوا بها أو انتسبوا إليها، ونال بعضهم مكانة اجتماعية مرموقة بسبب الوظائف التي شغلوها كالقضاء والنظارة والحسبة وغيرها[٢]. وقد اشتهرت بعض البيوت الحلبية في مجالات العلم المختلفة وخاصة العلوم الدينية وعلوم العربية وآدابها والتاريخ" من أمثال تلك البيوت العلمية: بيت محمد بن محمد الأسدي (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٣-١٢٧٤م) الذين ذاع صيتهم في العلوم الدينية وعلم التاريخ، وبيت المؤرخ ابن شداد (ت: ٦٤٨هـ/١٢٨٥-١٢٨٦م) الذين ذاع صيتهم في التدوين التاريخي، علاوة على أسرة كل من ابن العديم وابن الشحنة وابن العجمي الذين تفردوا في

(١) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت: ٩٠٢هـ): التبر المسبوك في ذيل الملوك، نشره: أحمد زكي، القاهرة،١٨٩٦م ص ١٨ ١؛ قاسم عبد قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٦ ٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣ ص ٢٩٢؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: ٨٥٢هـ): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، جـ١،بيروت، (د.ت)ص ٥٦ ٤ ٧ ٥ ٤.

التدوين التاريخي ناهيك عن العلوم الدينية وعلوم العربية وآدابها، فضلًا عن غيرهم من البيوت العلمية التي ذاع صيتها في حلب." [1].

وعلاوة على ذلك فإن غالبية قضاة حلب ينسبون إلى طبقة العامة، ويليهم الأعيان ممن ينسبون إلى البيوت الكبيرة في حلب، ومنهم بيت عبد الواحد بن السابق الحلبي الذي اشتهر منه الشيخ محيي الدين أبو العباس احمد بن علي (٦٧٩هـ/١٢٨٠١٢٨١م)، وإبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن هبة الله بن محمد بن هبة الله المعروف بابن الرعباني (القرن التاسع الهجري،الخامس عشر الميلادي)، علاوة على الشهابي أحمد بن أغلبك الحلبي الحنفي (ت: ٨٥٠هـ/١٤٤٧م)، وكذا القاضي ضياء الدين بن النفيس الشافعي الحلبي[2]، وغير هؤلاء ممن أسهموا[3]بقسط وافر في الحياة الاجتماعية بنيابة حلب مثل بيت السفاح[4].

وكان هؤلاء العلماء على صلة وثيقة بالمجتمع وذلك بواسطة صلات اقتصادية وعائلية ومذهبية، فضلًا عن أنهم كانوا يُشاركون المجتمع مشكلاته واهتماماته ومصالحه، وخاصة أنهم كانوا ينتمون إلى كل مستوى اجتماعي في حلب.

أما عن العلاقة التي ربطت بين العلماء والفقهاء والقضاة وبين المماليك فقد كان لها أكثر من وجه؛ حيث كان بعضهم يعتمد إلى حد كبير على سلاطين المماليك من أجل دعمهم ودعم المؤسسات العلمية التي التحقوا بها[5]، ووقف بعضهم كوسطاءَ بين المماليك والمجتمع الحلبي؛ نظرًا لأنهم يكونون الطبقة الموحدة للمجتمع الإسلامي، ومن خلالهم تُنجز كافة الأعمال الشرعية والقضائية في الدولة المملوكية.

---

(١) انظر: الكتبي (محمد بن شاكر، ت٧٦٤هـ/١٣٦٢+١٣٦٣م): عيو ن التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة داوود، جـ ١ ٢، العراق، ١٩٨٤ص ٧ ٥ ٣؛ الطباخ، محمد راغب: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ ٤، المطبعة العلمية،١٩٢٦ص ١٧ ٥؛ ابن تغري بر ي: النجوم الزاهرة، جـ١٥، ص ٦ ٨ ١٠

(٢) ابن إياس: النجوم الزاهرة، جـ٥ص ٦ ٥ ٢،٣٠٦؛ جـ٥ص ٦ ٨ ١.

(٣) ابن تغري بر ي، جمال الدين أبو المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين ونبيل محمد عبد العزيز، جـ١، القاهرة،٨٨٤+٩٨٥ ١ص ٠ ٢ ٣.

(٤) سبط بن العجمي: كنوز الذهب، جـ ص ٤ ٩ ٠١ ٣،٢٣٥،٢٤١،٢٤٩+٢٥٨،٢٦٦+٢٦٨ ٢؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٧٤ ٧،٣٢+٣٤ ٢؛ الغزي: نهر الذهب، جـ٢ص ٤ ٣ ١،٢٩٦؛ إيرا لابيد وس: تـ ن إسلاميق ٢ ٣ ١،٢١٩.

ونشـأت علاقات طيبة بين القضـاة والسـلاطين الذين قربوهم واسـتجابوا لمطالبهم، وذلك وفقًا لما حدث من استجابة السلطان لالتماس القاضي علاء الدين بن مفلح الحنبلي قاضي الحنابلة[١]، بعزل نائب حلب الأمير قايتباي الحمزاوي وذلك لرفضـه حضـور مجلس الشـرع للنظر في مظالم ارتكبها في حق عامة حلب[٢]. وهذا يعني أن علاقة قضـاة حلب لم تكن دومًا طيبة بنواب حلب، وذلك لانتهاك بعض النواب لحرمة الأوقاف الحلبية التي كانوا يستحلونها ويقطعونها لأنصارهم[٣].

أما من الناحية الدينية فهؤلاء كانوا من المسلمين، ولكن لم يكونوا جميعًا على مذهب واحد حيث انتشرت في حلب مذاهب أهل السنة الأربعة: الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي، وانتشرت هذه المذاهب الأربعة في حلب على فترات مختلفة، حيث كان القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي قرن انتشار المذهب الحنفي، بينما انتشر المذهب الشافعي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وانتشر المذهب المالكي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ثم انتشر المذهب الحنبلي في ثنايا القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ولم يكن للشيعة وجود مؤثر في حلب في العصر المملوكي[٤].

ويُعد كل من المذهبين الحنفي والشافعي من أكثر المذاهب السنية انتشارًا في حلب، ولم يخلُ الأمر من حدوث خلافات بين قضاة المذاهب الأربعة كانت تستوجب تدخل السلطان لعزل القضاة المتنازعين، ويُلحظ توزع بعض أحياء مدينة حلب على أسس مذهبية؛ فبعضها للحنابلة وبعضها للمالكية وبعضها للشافعية وبعضها الآخر للأحناف وإن لم تكن في بؤر منعزلة عن بعضها البعض مثلما لم يترتب على هذا

---

(١) علاء الدين بن مفلح – هو : علي بن أبي بكر بن إبراهيم بن مفلح –قاضي حلب الحنفية(المتوفى : ٨٨٢هـ – ١٤٧٧م). كتاب –الضوء اللامع(٥/ ١٩٨) .محمد بن عبد الرحمن السخاوي شمس الدين (المتوفى : ٩٠٢هـ) –الناشر–دار الجيل –بيروت ١٤١٢+ ١٩٩٢

(٢) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان (ت:٩٠٢هـ/١٤٩٧م): التبر المسبوك على ذيل السلوك، بولاق،١٨٩٦م، ص ٨ ١ ١٠.

(٣) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج١، ورقة ٥٠ ٤٥.

(٤) على الرغم من وجود الشيعة بكثرة في حلب في العصر الزنكي إلا ن وجودهم لم يكن ملحوظًا في حلب في الفترة قيد الدراسة، وبالرغم من محاولات نواب حلب للقضاء على البقية الباقية منهم فقد ظلت منطقة شمال ظاهر حلب معقلًا للشيعة وشيوخهم حتى نهاية القرن الثامن الهجري/القرن الرابع عشر الميلادي، وواكب ذلك استمرار النزاع بين السنة والشيعة ولكن في الخفاء، وذلك لما تمتع به المذهب السني من سلطة ونفوذ لكونه مذهب السلطنة المملوكية ونيابة حلب. انظر: الصفاعي، فضل الله بن أبي الفخر (ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م): تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبله، دمشق،١٩٧٤م، ص ٤٥ ١؛ الغزي: الكواكب السائرة، جـ٢ ص ٧ ١٢٩،٢.

الانتماء المذهبي أية مشكلات طائفية أو اجتماعية[1]. وينتمي جميع العلماء والفقهاء إما إلى هذا أو ذاك المذهب، وحتى المتصوفة كانوا أحيانًا – إن لم يكونوا دائمًا – ينتمون إليها[2].

ثانيًا: التجار

شكل أعيان التجار في المدن الإسلامية طبقة ثرية ذات نفوذ، وحظيت بمكانة اجتماعية لائقة، ونال بعضهم مكانتهم الاجتماعية لدى السلطان وأمراء المماليك من مقدار ثرواتهم. وكان التجار النبلاء في عداد أكثر الناس غنى في أيامهم، وفي أحيان كثيرة كانوا أندادًا للأمراء. وكان التعاون بين الدولة والتجار أمرًا مهمًا؛ إذ لم يتمكن التجار في قطاعات اقتصادية عديدة من الاستمرار في أعمالهم بدون حماية السلاطين والأمراء، ولم يكن النظام المملوكي يستطيع الاستغناء عن خدمات طبقة هؤلاء التجار وخاصة أنهم كانوا ينتمون إلى كافة فئات طبقة العامة سواء من كبار التجار أم صغار التجار[3]. وتمثل العامل الأهم في دخول التجار إلى الدوائر الحكومية في رعاية الأمراء لهم؛ فالأشخاص الذين كانوا مستخدمين كأمناء سر للأمراء أو في العمليات التجارية كانوا غالبًا يشغلون وظيفة رسمية من قبل السلطنة[4] على شاكلة الخواجا[5] وهو لقب تشريف يُطلق عادة على التجار الذين يعملون في خدمة السلطنة، وعلاوة على ذلك فقد أفادت السلطنة من خدمات هؤلاء التجار في تجارة الرقيق وذلك للحصول على عدد مناسب من المماليك الذين يشكلون عصب الجيش المملوكي[6].

---

(١) ابن الشحنة، محب الدين أبو الفضل (ت: ٩٠٨هـ/١٤٨٥م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشره: يوسف سركيس، المطبعة الكاثوليكية،بيروت ص ٦١ ٢؛ الغزي: نهر الذهب، ج٢ص ٩٠ ١؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ١١ ٢١٢.

(٢) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية ص ٨٨ ١- ٩ ١٨.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ٥١ ٤ ٥ ٢.

(٤) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية ص ٩٧ ٩٩-٢١٦،١ ٧ ١ ٢.

(٥) الخواجا: لفظ فارسي دخيل في التركية ورسم في اللغتين بهاء في آخره، وهو لقب تكريم عندهم يُرادف الأغا والأفندي والسيد، ويُطلق أيضًا على الأساتذة المعلمين والمشايخ المعممين، ولقب به كبار التجار منذ القرن السابع الهجري، وظل مستعملًا في مصر حتى القرن الثالث عشر الهجري. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٩ ٦.

(٦) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢ص ٤ ٣ ١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢ص ١ ٤ ٤؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكي الأول ص ٢ ٢ ٤ ٢ ٢.

وكان السلطان يفوض أمر تلك التجارة المهمة للغاية إلى التجار، وكثيرًا ما كان يقوم بتأمين الأموال مُقدمًا، وقد حمل العديد من تجار الرقيق لقب خواجا، وصاروا شخصيات مهمة في الدوائر المملوكية، وغالبًا ما كان تجار الرقيق يشغلون مناصب ذات تأثير هائل في السلطنة[1]. أما صغار تجار المدن والحرفيون فقد مارسوا التجارة على نطاق ضيق، وكان بعضهم يمتلك الحوانيت الصغيرة[2]. ويرى كمال بدور أن العلماء والتجار اكتسبوا مكانتهم ونفوذهم الاجتماعي من الوظائف التي تقلدوها في نيابة حلب، وكانت عنصرًا مهمًا للوجاهة والتميز الاجتماعي[3].

ثالثًا: الفلاحون

شكل الفلاحون معظم أهل البلدات والقرى التي انتشرت في الريف الحلبي. وقد استغلهم أصحاب الإقطاع. وعند الحديث عن الحيازة الزراعية بشكل عام نجد أنفسنا أمام نوعين من الحائزين: فهناك الفلاح الذي يحوز الأرض التي يقوم بزراعتها، سواء مالكًا لها أو قائمًا بزراعة تلك الأرض مقابل حصوله على حصة من ريعها. وهناك الحائز الذي يستولي على جزء من الفائض من ريع الأرض الزراعية. ويوجد ثلاثة أطراف يتعاملون مع الأرض الزراعية: الفلاح الحائز، والمستحق الحائز، والدولة[4].

وقد تركزت الزراعة في خارج مدينة حلب في القرى بينما خلت المدينة ذاتها من أي نشاط زراعي. ولم يكن الفلاح في وضع جيد حيث أثرت عليه الكثير من العوامل التي أسهمت في سوء وضعه العام، فمن جهة فرض عليه العمل الإلزامي أو القسري في الإقطاع لمدة ثلاث سنوات متتالية، ولم يكن مسموحًا له بترك ذلك العمل وإلا فإنه يُعاد إليه جبرًا، ومن جهة أخرى فقد تعرض الفلاح إلى تعنت الجباة الذين كانوا يتفننون في فرض الضرائب التي ناء بها كاهله، وكان عليه أن يسددها بغض النظر عن قيمة ما تنتجه أرضه؛ ولأجل ذلك فقد أوشكت قرى بكاملها على الانهيار؛ نتيجة لفداحة تلك الضرائب وتعرض الفلاحين لدرجات متفاوتة من الظلم[5].

---

(١) إيرا لابيدوس: المدن إسلامية، ص ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ص ٢٤٥-٢٥١؛ الشيزري: نهاية الرتبة، ص ص ١-١٠.

(٣) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ص ص ٢٤٢-٢٦٨، ص ص ٢٧٠-٢٧٢.

(٤) النووي: نهاية الأرب، مجلد ٨، ص ص ٢٥-٢٧؛ إيرا لابيدوس: المدن إسلامية، ص ٧.

(٥) السبكي: معيد النعم، ص ص ٣-٤؛ النووي: نهاية الأرب، مجلد ٨، ص ص ٢٥٩-٢٦٠؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جزء ١، ص ص ٦-٤.

وتعين عليه سداد نفقات الحملات العسكرية تحت ما يسمى الضرائب الطارئة لتجهيز الجيش" هي ضرائب متعلقة بتجهيز الحملات العسكرية ضد تركستان الأبلستين خلال خروجهم عن طاعة السلطنة سنة ١٤٦٨/٨٧٢م، حينما أمر السلطان نواب الممالك الشامية ومن بينها حلب بتجهيز الإقامات والعلوفات للجيش المصري المتوجه لمقاتلة شاه سوار، وأن النواب جمعوا دراهم لتجهيز تلك الحملة"( )، ولا ريب في أن عدم الاستقرار الذي نتج عن حركات التمرد والعصيان أدى إلى تدمير قرى كثيرة وإتلاف المحاصيل الزراعية، مما زاد في تدهور أوضاع الفلاح. كما أثرت الأوبئة والطواعين التي منيت بها حلب على أوضاع الفلاحين؛ لأنها أتلفت الزرع والأشجار خلال فترة انتشار الوباء( ).

ويشمل مصطلح العامة أيضًا طوائف الحرفيين وبعض سكان أهل المدن من الفقراء طبقة الذين شغلوا المرتبة الأدنى في الهرم الاجتماعي، ولم يكن لبعضهم مساكن خاصة بهم؛ ولذا عاشوا في المساجد والزوايا والشوارع وتجولوا في الحارات( ). وقد عاش هؤلاء على أعمال الخير والإحسان التي يوفرها لهم السلاطين والأمراء وأغنياء حلب بشكل عام وفي المناسبات والأعياد الدينية وبشكل خاص. وقد عانت هذه الطبقة من البؤس والحرمان، ولجأ بعض أفرادها إلى السلب والنهب لتعويض الحرمان الذي عانوا منه وخاصة في الفترات الحرجة التي اقترنت بغزوات المغول وحركات التمرد والعصيان التي كانت تتعرض لها حلب( ).

أما الرقيق( ). فشكلوا فئة سكانية مكونة من الخدم والجواري والخصيان. وقد لمس تجار الرقيق أن سلاطين المماليك وأمراءهم يقدرون بضائعهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة، فنشطوا في جلب المماليك، وقد أسهم في هذه التجارة أيضًا بعض التجار الأوربيين( )، وخصوصًا من المدن الإيطالية الذين نافسوا

---

(١)انظر: الصيرفي: أنباء الهصر ٤ ٢ ٢.

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ١، ورقة ٢٠١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، جـ ٢ ص ٧٧؛ المقريزي: السلوك، جـ ٢ ص ٢٧٠ ١؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ٢٠ ٢.

(٣) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ ٢ ص ٩٠ ٤؛ السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت: ٧٧١هـ): معيد النعم ومبيد النقم، بيروت،١٩٨٣م ص ٥٥، ٣ ١١.

(٤) النويري: نهاية الأرب، حـ ٣١ ص ٨٥ ٢٢٦؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ ٢ ص ١٤٤؛ المقريزي، أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ): إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة،١٩٥٧م ص ١٤٣٤؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ٢١٢؛ إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية ص ١٤١ –١٤٢.

(٥) هم من فئة الفلاحين، كان السلاطين يستخدموا الرقيق في الاقطاعيات الزراعية.

(٦) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ٨ ٧ ١.

التجار الشرقيين في جلب المماليك إلى مصر والشام. وأدى ذلك إلى تنوع أصول المماليك تنوعًا واضحًا، وبالأخص في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فوجد منهم الأتراك، والشراكسة، والمغول، والصقالبة، والروم وغيرهم.

وقد انتسب هؤلاء المماليك غالبًا إلى أساتذتهم أي سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار، وأشرفوا على تربيتهم كالمماليك الظاهرية الذين نُسبوا إلى السلطان الظاهر بيبرس، والمماليك الأشرفية نسبةً إلى السلطان الأشرف خليل وهكذا، وأحيانًا يُنسب المملوك إلى التاجر الذي جلبه كالمماليك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان أحد كبار تجار المماليك، وقد اشتهر بحسن بضاعته مما أدى إلى الانتساب إليه من باب الفخر(١).

رابعًا: أهل الذمة

الإسلام والمسيحية واليهودية، هي الديانات التي كان سكان حلب يدينون بها، وشكل المسلمون النسبة الأكبر من السكان ويليهم المسيحيون وأخيرًا اليهود(٢).

وقد ضمت بعض المناطق غالبية من المسيحيين مثل أرمينية الصغرى التي ضُمت إلى نيابة حلب، علاوة على وجود عدد لا بأس به من المسيحيين في حلب عاصمة النيابة ذاتها، وكان لهم أسقفية بها، إضافة إلى أن إقليمَ الجزيرة وشمال بلاد الشام مركزٌ مهمٌ لنشاط مسيحي واسع منذ انتشرت المسيحية في أيامها الأولى، وصحب ذلك بناء الكثير من الكنائس والأديرة في ضواحي حلب(٣).

أما في مدينة حلب ذاتها فقد تحول عدد كبير من الأديرة والكنائس إلى مساجد ومدارس بعد الفتح الإسلامي، أما خارج حلب فقد وجد دير سمعان الواقع ضمن قرى معرة النعمان ويعرف بدير

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٩٧.

(٢) غلب المسلمون على سكنى حلب مقارنة بالمسيحيين واليهود وذلك منذ الفتح الإسلامي وهجرة قبائل تركمانية وكردية مسلمة إلى مدينة حلب في فترات زمنية لاحقة، وكان المسلمون في حلب على المذهب السني، بمعنى أن المذهب الشيعي لم يكن له وجود في حلب في الفترة قيد الدراسة وإنما كان وجوده في فترة زمنية سابقة خلال العصرين الزنكي والأيوبي، وحينما انتشرت المدارس السنية التي تصدت لذلك المذهب فقد تقلص أتباعه وكادوا يختفون معأ وائل العصر المملوكي. انظر: ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٦١؛ الغزي: نهر الذهب، ج ٢، ص ٩٠١؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص ٢١١.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، مقدمة محقق الكتاب، د؛ إسحق أرملة: "القرى السريانية في شمال سوريا"، مجلة الشرق، ١٩٨٠م، ص ٢٨٠١.

النقيرة[1]، ودير برصوما بالقرب من ملطية، وكنيسة بربارة وكنيسة أشمونيت وكنيسة بولص وكنيسة مريم وكنيسة فسبان في أنطاكية[2].

وانقسم مسيحيو حلب إلى شرقيين وغربيين، وكان الأرمن من أتباع الكنيسة الشرقية، وقد عكست أماكن العبادة طبيعة هذا التقسيم؛ فكانت للروم الأرثوذكس كنيسة تقع في محلة الصليبة وتم بناء هذه الكنيسة في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وكان لها أوقاف خاصة بها[3]، أما الكاثوليك فكان لهم كنيسة تقع في سوق محلة الجديدة أمام المدخل الشمالي الغربي[4]، ويعود تاريخ وجود تلك الكنيسة إلى بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[5]. أما كنيسة إلياس فمن الكنائس القديمة التي تعود إلى عام ٩١١هـ/١٥٠٥م تقريبًا[6].

وبالرغم أن المصادر لم تفصح عن أهم مهام البطاركة المسيحيين فإنه يمكن الاستنتاج من التنظيم الإداري المملوكي أن البطاركة تولوا تنظيم شؤون أتباعهم ورعاياهم الداخلية، وشكلوا حلقة الوصل بينهم وبين الدولة، ولم يتركهم المماليك يتدخلون في شؤون الدولة إلا عند رغبتهم في ذلك[7].

وكان المسيحيون قبيل العصر المملوكي يُساكنون المسلمين في محلاتهم غير منفردين عنهم، حتى أن أماكن دور عبادتهم كانت متجاورة في بعض الأحيان، واستمر الحال على ذلك حتى قدوم هولاكو سنة

---

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٩.

(٢) ابن شداد: عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم عز الدين (ت: ٦٨٤هـ/١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: الأب شارل لوي، ج١ق ١، نشر بمجلة الشرق، بيروت، ١٩٣٥م، ص ٤٨١.

(٣) الغزي: نهر الذهب، ج ٣، ص ٤٨؛ محمد أسعد طلس: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٦٨م، ص ١٠٣.

(٤) خير الدين الأسدي: أحياء حلب وأسواقها، تحقيق: عبد الفتاح قلعه جي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ٣٤.

(٥) الغزي: نهر الذهب، ج ١، ص ٣٩.

(٦) الغزي: نهر الذهب، ج ١، ص ٤٦؛ محمد أسعد طلس: الآثار الإسلامية، ص ٣٠٢.

(٧) حدث تواطؤ بين بعض المسيحيين في نيابة حلب وبخاصة في قرية قارا وبين الصليبيين ضد سلطنة المماليك، مما دفع بالسلطان الظاهر بيبرس إلى معاقبتهم سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥-١٢٦٦م، وأمر بعدئذ بتعيين إمام وخطيب بشكل دائم بها لإقامة شعائر الدين الإسلامي للمسلمين في قرية قار، وربما كان ذلك ردًا على ما فعلوه بمحالفة أعداء السلطنة ومعاونتهم. انظر: ابن أيبك الدواداري: الدرر الزكية في أخبار الدولة التركية، ج ٩، ص ١٢٠-١٢١؛ ابن الشحنة (أبو الوليد الحلبي، ت: ٨٠٦هـ/١٤٠٣-١٤٠٤م): روضة المناظر في أخبار أوائل وأواخر، بهامش كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج١١، ١٢، مصر، ١٣٠٣هـ، ص ١٥٣.

٦٥٨هـ/١٢٥٩م فأباد جيشه المسيحيين مثلما أباد غيرهم من المسلمين، ولم ينجُ منهم سوى عدد قليل، وحينما رحل المغول عن حلب سنة ٦٥٩هـ فقد أخذ من كل حي من المسيحيين يعمل على تحسين بيته وعمله، وعادوا إلى حالتهم السابقة واستمروا عليها حتى نهاية العصر المملوكي الأول[١].

أما اليهود فقد سكنوا في حارة اليهود وقد تحولت هذه المنطقة في العصر المملوكي إلى اسم الناصر والتي تركز فيها اليهود وخاصة دكاكينهم ومحالهم[٢]، وحينما زحفت الأسواق التجارية على المناطق السكنية في فترة متأخرة فقد أُعيد توزيع السكان، واضطر اليهود إلى التركز أكثر في البندرة وبحسيتا والقلة[٣]. وكان لليهود بيعةكبيرة تقع في محلة بحسيتا يُقال لها الكنيسة الصفراء وهي من بناء إبراهيم بن يعقوب كوهين عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م وقد مارسوا فيها طقوسهم وفيها تعلم أولادهم[٤]. وعلاوة على ذلك فقد كان لليهود بيع أخرى معروفة في حلب ذاتها بخلاف الكنيس الأعظم في بحسيتا، منها الكنيس الذي كان في باب الملك، وكنيس يُسمى بكنيس البابليين، وثمة جامع في حلب اسمه الحيات عثر فيه على حجر كتب عليه بالقلم الأشوري والخط العربي أن مكان الجامع كان كنيسًا يهوديًا، وهناك أخيرًا كنيس موجود في بستان قرب الناعورة وكان يُعرف بكنيس مثقال في العصر المملوكي[٥].

وقد لوحظ ضمن الجهاز الإداري المملوكي وجود مسؤول عن أهل الذمة، وهو بمثابة زعيم أو رئيس طائفة، ويعرف بالبطريك لدى المسيحيين، وكان مهتمًا بشؤون الكنائس والأديرة، وإليه يعود أمر مصالحة المتخاصمين عرفيًا قبل اللجوء إلى القضاء، لأن القضاء كان سيحكم بينهم وفقًا للشريعة الإسلامية، وفضلًا عن ذلك فقد كان من مهامه استمرار تضمين عظاته الإشادة بالعيش المشترك مع المسلمين والتركيز على

(١) الغوي: نهر الذهب، جـ ١ ص ٧ ٩.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٤.

(٣) عبد الفتاح قلعه جي: أحياء حلب وأسواقها، ص ٣ ٤.

(٤) الغوي: نهر الذهب، جـ ١ ص ٢ ٦.

(٥) سبط بن العجمي: كنوز الذهب، جـ ١ ص ٧ ١ ٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٢ ص ٥؛ الغوي: نهر الذهب، جـ ١ ص ٣ ٦ ١؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكي ص ٥ ٠ ٢ ٦ ٠ ٢.

الأخوة، وكان محظورًا عليه إيواء الغرباء القادمين من خارج السلطنة، وإذا حصل فعليه إخبار نائب السلطنة بذلك، وأن لا يخفي أي كتاب مرسل إليه من أحد الملوك الآخرين أو كتابة أية مراسلات إليهم( ).

أما اليهود فإنهم مارسوا في حارتهم حرفهم ومهنهم التي اشتهروا بها، وخاصة التجارة والطب( )، وغلب عليهم تمسكهم بتقاليدهم الدينية واعتزالهم معاشرة غير أبناء دينهم وخاصة المسيحيين( ). كما هاجر بعض يهود الأندلس أصحاب التخصصات إلى نيابة حلب سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٣-١٤٩٣م، ولا ريب في أن النشاط التجاري الواسع الذي اشتهرت به حلب هو ما جذبهم إليها، وهناك تجمعوا في درب خاص بهم صار يعرف فيما بعد بدرب اليهود( ). وهو أمر ينتفي معه اتهامُ المماليك بمنعهم أهل الذمة من حضور المواكب الرسمية التي يحضرها نائب حلب على ما حدث سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠-١٣٣١م عند الاحتفال بدخول نهر الساجور( ) مدينة حلب( ).

وبالرغم من ذلك تظل المعلومات عن اليهود قليلة، إلا أنه يمكن الافتراض أنه كان للطوائف اليهودية تنظيمات اجتماعية ودينية بدورهم وشاركوا من خلالها في الحياة الاقتصادية في حلب، بدليل وجود

(١) الغزي: نهر الذهب، جـ ١، ص ٣٦؛ سبط بن العجمي: كنوز الذهب، جـ ١، ص ٧١٥؛ كمال بور: حلب في العصر المملوكي، ص ٦٠.

(٢) ابن الشحنة: الدرر الكامنة، ٢ ٤٢؛ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، ت:٦٦٨هـ/١٢٦٦م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٣٨٦؛ الغزي: نهر الذهب، جـ١، ص ٤٠.

(٣) ابن الشحنة: الدرر الكامنة، ٢ ٤٢.

(٤) الغزي: نهر الذهب، جـ ١، ص ٣٦؛ سبط بن العجمي: كنوز الذهب، جـ ١، ص ٧١٥؛ كمال بور: حلب في العصر المملوكي، ص ٦٠.

(٥) نهر الساجور: ينبع نهر الساجور من الجهات الغربية لهضبة عينتاب، ويخترق مناطق ذات صخور أقل نفاذية من الصخور التي يجتازها نهر قويق. ويمر نهر الساجور في عدد من القرى والمزارع خارج مدينة حلب. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١، ص ١٧؛ الغزي: نهر الذهب، جـ ١، ص ٨٥؛ عبد الرحمن حميدة: محافظة حلب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ص ٣٠١.

(٦) ابن الشحنة: روضة المناظر، ٩ ٦١.

بعض التجار اليهود في درب اليهود وحارة اليهود ومشاركتهم في المواكب[1]، وكان لهم وظيفة رياسة اليهود والمسيحيين، وكان يعين رئيس اليهود أو بطريرك المسيحيين من قبل نائب حلب مباشرة[2].

وضمت الإدارة المملوكية موظفًا يسمى الحاشر كان مسئولًا عن الطوائف المسيحية واليهودية، وكان يعين شخصًا يدعى العريف على كل طائفة وتتلخص مهمته في كتابة أسماء المنتمين إلى طائفته، ومن أسلم منهم ومن مات ومن بلغ من صبيانه ومن قدم عليهم ومن سافر منهم، إضافة إلى جمع ضريبة الجزية منهم، والتحقق من شكاوى التعديات التي يقوم بها مسلمون ضد أهل الذمة، ومنع التعرض لأرواحهم وأموالهم وعليه ضمان ما يتلف منهم، وعدم منعهم من ممارسة شعائرهم أو من التردد على بيوت عبادتهم، وعليه معرفة المطلوب منهم وفقًا لعهد الذمة وخاصة الجزية والضيافة والانقياد لأحكام الشريعة الإسلامية، وأن لا يركبوا الخيل، وأن ينزلوا المسلمين في صدر المجلس أو صدر الطريق، وعليهم التميز عن المسلمين بالزي، وعدم رفع أبنيتهم أعلى من بيوت جيرانهم المسلمين وأن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة[3].

مما سبق: يتضح تباين في الفئات المكونة للطبقة العامة للمجتمع الحلبي ، وأن لكل فئة من هذه الفئات وضعها الاجتماعي التي تتميز به عن غيرها .

فهناك من هذه الفئات من له نفوذ ، ووضع اجتماعي متميز عن غيرها ؛ إما بسبب العلاقة مع السلاطين ، أو ما يملكونه من سلطة أو مال، أدى ذلك إلى اكتسابهم مكانة ونفوذ اجتماعي ، ووجاهة في المجتمع ، وتقليدهم المناصب الإدارية .

وإن كان هناك بعض الاختلافات الموجودة بين بعض هذه الفئات ، كما كان يحدث بين قضاة المذاهب ، وكان يصل في بعض الأحيان تدخل السلطان ، أو اختلافات بين هذه الطبقات ، والتباين بينهم ؛ من حيث المكانة في المجتمع ، أو النفوذ ، فكان لكل طبقة تأثيرها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الحلبي المتباين التكوين .

---

(١) وليام موير:د ور المماليك في مصر، ص ٨ ٤.

(٢) الؤي: نحر الذهب، جـ ص ٣ ٦ ١؛ سبط بن العجمي: كنوز الذهب، جـ ص ٧ ١ ٥؛ كمال:د ور: حلب في العصر المملوكيلأ ول، ص ٦ ٠ ٢.

(٣) القلقشند ي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ١ ٦ ٣ ٤ ٦ ٣؛ كمال:د ور: حلب في العصر المملوكيص ٧ ٠ ٢.

الباب الثاني

دور فئات المجتمع في الحياة العامة

الفصل الأول: دور الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي.

الفصل الثاني: فئات العامة ودورهم في المجتمع.

الفصل الأول

دور الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي

تنوعت الفئات الحاكمة في المجتمع الحلبي، واختلفت عن بعضها في دورها في الحكم، والمهمة المنوطة القيام بها،وهذه الفئات:

أولًا: دور نواب حلب في المجتمع الحلبي

قامت الدولة المملوكية على الصبغة العسكرية، ونشأت وترعرعت في جو مشحون بالأخطار الخارجية والداخلية مثل أخطار الصليبيين والمغول في الخارج، وحركات المعارضة والتمردات من القبائل العربية والأيوبيين وغيرهم في الداخل، وبالرغم من ذلك نجحت في التغلب على تلك الأخطار( ). وبالرغم من تمتع السلطان المملوكي بنفوذ واسع في الدولة وخاصة فيما يتعلق بشؤون السياسة والحرب وتقليد المناصب الكبرى وتوزيع الإقطاعات فإنه لم يستغنِ في أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة في الأمور المهمة، أما الإدارة المحلية في المدن والأقاليم فقد تولاها الولاة والنواب الذين تم اختيارهم من بين كبار الأمراء( ). ٢

وحرص نواب حلب – تمثيلًا للسلاطين في نيابتهم – على الحفاظ على حدود حلب، وكانت انتصاراتهم مُهمة في العصر المملوكي الأول – المعروف بعصر المماليك البحرية – حيث ضموا قسمًا من آسيا الصغرى، وبلاد الأرمن إلى الدولة المملوكية، وأصبحت تحت إدارة حلب ولكن نواب حلب أخفقوا في متابعة حمايتها وخاصة في عصر دولة المماليك الثانية — المعروف بعصر المماليك البرجية أو الجراكسة – التي كثرت فيها الصراعات الداخلية، وأثرت سلبًا على سياسة دولة المماليك الخارجية( ). ٣

---

(١) محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري،ص ٢ ،ص ٤ ٢.

(٢) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك،ص ٠ ٣ ٣، ٨ ٢ ٣.

(٣) المقريزي: المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، مطبعة بولاق، جـ ٢، القاهرة،١٩٨٧م،ص ١ ٤ ٢؛ بدر الدين العيني: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، ترجمة: هانز آرت، القاهرة،١٩٦٢م،ص ٥؛ ستانلي لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن وعلي إبراهيم حسن، النهضة المصرية، القاهرة،١٩٩٣م،ص ٩ ٩ ١؛ كمال الدين عبد الرحمن: حلب في العصر المملوكي،ص ٣ ٥ ١.

وكان نائب حلب يدعى نائب السلطنة الشريفة، ولا يقال له كافل السلطنة؛ لأن اللقب الأخير كان مختصًا بنائب دمشق فقط، ويصدر أمر تعيينه من السلطان بمرسوم شريف، ويُذكر فيه مهام النائب والأعمال التي يجب عليه القيام بها، وكان من أهم مهامه الأمور التالية:

١) تحقيق الأمن في نيابة حلب وأعمالها وحصونها.

٢) توجيه العساكر إلى المناطق المجاورة للنيابة للحفاظ على أمنها وصد المعتدين.

٣) حراسة الحدود وإعلام السلطان بأي تحركٍ للعدو.

٤) مراقبة القلاع بشكل دائم والاطلاع على مشاكلها وحلها، وتأمين احتياجاتها.

٥) تنفيذ أحكام الشرع والنظر في أحوال الرعية وأوقافهم ومصالحهم.

٦) العناية بعمارة البلاد.

٧) الرأفة بالرعية، وبسط العدل والرفق وتوخي الحق[١].

أما عن حق النائب في التولية والعزل حينما يكون ذلك في صالح السلطنة، حيث كان يحق له العزل والتولية لأرباب الوظائف الديوانية الصغيرة مثل كاتب الدرج أو كاتب الدست وغيرها[٢]، وأيضًا الوظائف الدينية كصغار المدرسين والخطباء في الجوامع وغيرها[٣]. أما طبيعة حكم النيابة فقامت على حكم الفرد المطلق، بمعنى أن النائب له التصرف في الأمور التي يباشرها برغم مراقبة السلطان له ومحاسبته على أعماله، ويتجسد ذلك في الاعتماد على عدد كبير من الموظفين الإداريين لإدارة النيابة، وهم خاضعون للنائب إداريًا، فالسلطان يعين أصحاب المناصب المهمة في النيابة إذ يختارهم من بين المخلصين له وممن يثق فيهم، وكان يبادر إلى عزل من ينحرف منهم أو يشك في إمرته أو يصل إليه خبر خروجه عن الطاعة، وكان يعمد أيضًا

(١) كمال بدر: حلب في العصر المملوكي ص ٥ ١٥.

(٢) كان يلي الديوان في بداية الدولة المملوكية كاتب واحد عرف بكاتب الدست، وأحيانا عرف باسم كاتب الدرج، وتارة يليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست وذلك على ما جرى في أوائل سلطنة الظاهر بيبرس وكانوا ثلاثة كتاب كان أرفعهم درجة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وظل الأمر على ذلك إلى أن ولي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في سلطنة المنصور قلاوون ولقب آنذاك بلقب كاتب السر، ثم نقل لقب كاتب الدست إلى طبقة أدنى من طبقة كتاب الديوان واستمر ذلك لقبًا على كل من ولي الديوان حتى زمن القلقشندي. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٣٦ ١٨٦، ١٤٦ ٢٥٦؛ كمال بدر: حلب في العصر المملوكي ص ٥٥ ١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٣٢ ٢٧٣، جـ٢ ص ٦٧ ٦٩١؛ كمال بدر: حلب في العصر المملوكي ص ٦٥ ١.

إلى مصادرة أملاكهم وأموالهم، وأما باقي الموظفين والمسؤولين الآخرين فيعود تعينهم إلى النائب. وكان نائب حلب يعين من الطبقة الأولى لأمراء المماليك؛ نظرًا لأهمية حلب على الحدود الشمالية للسلطنة ولأنها تأتي في المرتبة الثانية بعد دمشق. وكان النائب ينوب عن السلطان ويُمثله في حدود النيابة. ويمثل نظام حكمه نظام الحكم في مصر، وكانت النيابة شبه مستقلة تنظم شؤونها ودواوينها وموظفيها على غرار ما هو موجود في مصر ولكن بصورة مصغرة، لذلك كان للنائب حاشية ومماليك وأتباع كالسلطان في مصر[١].

وكان لبعض نواب حلب نشاطٌ اجتماعيٌ مميزٌ في المجتمع الحلبي، حيث أسهموا في إنشاء المدارس على ما فعل الأمير يشبك اليوسفي نائب حلب (٨٢٤-٨٢١هـ/١٤١٨-١٤٢١م)[٢] الذي أنشأ مدرسة وأوقف عليها أوقافًا كثيرة، وكان لبعض أفراد تلك الطبقة دور مهم في تشجيع العلماء والأدباء على ما فعل الأمير دمرداش نائب حلب والأمير جكم.

أما في العمران فقد حرص بعضهم على ترك بصمة خاصة بهم في مدينة حلب من خلال إنشاء المساجد، ويقف يلبغا الناصري في صدارة نواب حلب الذين شيدوا مسجدًا، وكذا فعل الأمير كمشغبا الحموي نائب حلب (٧٩٣-٧٩١هـ/١٣٨٨-١٣٩٠م)[٣]، وأنشأ نائب حلب الأمير[٣] تغري بردي (٧٩٦-٨٠٠هـ/١٣٩٣-١٣٩٧م)[٤] مسجدًا هو الآخر[٥].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٩١، ١٨٤، ٢٢٤، جـ٥، ص٤٥، جـ٢، ص١٤؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٢٣١؛ السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص٤٧٤-٤٨١؛ علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص١٩٢؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ص٣٥١-٤٠١.

(٢) يشبك بن عبدالله اليوسفي المؤيدي الأمير سيف الدين نائب حلب ، فترة حكمه -(٨٢٤هـ ٨٢١هـ)(١٤٢١م ١٤١٨م)، قتل عام (٨٢٤هـ ١٤٢١م)، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء -محمد راغب بن محمود هاشم الطباخ(ج٣، ص١٥)

(٣) كمشبغا الحموي الأمير سيف الدين ، هو من عتقاء الأمير يلبغا الخاصكي العمري، فترة حكمه - (٧٩٣هـ ٧٩١هـ)(١٣٨٩ ١٣٩٠م)، (ت ٨٠١هـ - ١٣٩٨م). ، وقد تجاوز ستين سنة، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء(ج٣، ص٣٨٢)

(٤) الأمير جمال الدين يوسف أبو المحاسن ابن تغري بردي أحد أمراء ولة المماليك البرجية، فترة حكمه -(٨٠٠هـ ٧٩٦هـ)(١٣٩٣ ١٣٩٧م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة -دار الكتب -مصر

(٥) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ص١٣٥، ٤٤٥؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص٢٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٩٦٢؛ ليلى الصباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣م، ص١٢١؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص٥١٢.

ثانيًا: الأمراء ودورهم في الحياة العامة

وزعت الوظائف الإدارية على الأمراء الذين سمح لهم بأن يتصرفوا بطريقة شبه مستقلة، وعُين لكل مدينة حاكمٌ وموظفون رسميون لولاية أمور الجيش وجباية الضرائب. وكان نائب حلب بمثابة القائد العام أما بقية الأمراء المتساويين في الرتبة فقد عُهد إليهم بمهمات مستقلة بغية مراقبة النائب وصيانة سلطة السلطان. وقد وقع على عاتق النائب والأمراء مسؤولية الخدمات العامة كنتيجة غير مباشرة لمهماتهم العسكرية والمالية، وقام بعض الأمراء ببعض الوظائف التي تتعلق بالشرطة، وتعزيز الصحة العامة، والأشغال العامة الضرورية لمدينة حلب، كما كانوا يساعدون في أوقاف المؤسسات الدينية والتربوية وإدارتها. وقد شغل بعض الأمراء مكانة مهمة نظرًا لتمتعهم بالنفوذ وتحكمهم في الموارد والثروات؛ ولذا فقد شغل بعضهم مكانة مهمة في الحياة الاجتماعية في حلب، علاوة على أنه لم يكن باستطاعة أحدهم أن يلتزم مشروعًا عامًا كبيرًا أو مرتفع التكاليف دون التعاون مع أمراء المماليك( )، ومن خلال ذلك فإنهم نجحوا في امتلاك بعض الحمامات العامة والخانات والقيساريات( ). والأراضي الزراعية وغيرها( ).

٣

وقد شاع بين بعض الأمراء بعض الظواهر السلبية؛ نتيجة لشدة المنافسة بينهم وبين بعضهم حيث بلغت درجة المنافسة بين الأمراء على السلطة إلى تزوير المراسيم السلطانية في سبيل التخلص من بعضهم بعضًا بالقتل، وقد شاعت تلك الظاهرة بشكل أوضح في عصر المماليك الجراكسة. وكانت أموال كبار المسؤولين محط أنظار الطمع السلطاني والمستفيدين منه؛ ولذا عمد هؤلاء المسؤولون إلى توجيه الأطماع السلطانية إلى أموال غيرهم، حماية لأنفسهم وممتلكاتهم. وقد عمل الأمراء الطامعون في السلطة في أواخر عصر السلاطين المماليك البحرية على التقرب إلى العامة من أجل كسب محبتهم، وتأكيد شعبيتهم بين طوائفهم المختلفة، ونجحوا في ذلك إلى أبعد الحدود، وقد يكون ذلك تمهيدًا للجلوس على كرسي الحكم في

(١) إيرا لابيدوس، المدن إسلاميقس ٨ ٩ ٨، ٥ ١٠.

(٢) القيسارية: اشتهرت حلب بصناعة النسيج وكانت القيساريات بمثابة مجمعات لأنوال النسيج العربية، وأحيانًا كان يلحق بالخان – للإقامة – قيسارية وحينها يصبح خان وقيسارية في وقت واحد، أو تُشكل القيسارية بناء مستقلًا مؤلفًا من غرف كثيرة يستأجرها الصناع للعمل والمبيت أحيانًا، وعند المساء تُغلق القيسارية بباب كبير للحماية والأمان.

(٣) انظر: عبد الفتاح قلعه جي: أحياء حلب وأسواقها، ٤ ١ ٤.

سلطنة المماليك، وكذلك اجتهد هؤلاء الأمراء في التودد إلى القضاة، وتفانوا في سبيل إرضائهم، ربما من أجل ضمان عامل الشرعية عند النجاح في الوصول إلى كرسي الحكم[١].

ثالثًا: الوزراء ودورهم في الحياة العامة

كانت الوزارة من أهم المناصب في مملكة حلب في بداية الدولة المملوكية، وكان يتم اختيار الوزير لهذا المنصب من بين أمراء المماليك من أمراء الطبلخانة. وقد تمتع بعض هؤلاء الوزراء بالقوة، وظهر بعضهم وقد قام بتوزيع العطايا دون استشارة السلطان، كما أنهم كانوا يعينون أمراء العشرة والأربعين في بلاد الشام[٢]. ومع الوقت ونتيجة لتدخل المماليك في شؤون الوزارة فقد ضعف منصب الوزير كثيرًا وأُنتُزِع منه كثيرٌ من مهامه، كما تدخل نائب حلب لتقليص مكانة الوزير وتجريده من أهم مهامه، مما جعل الوزير أقل مرتبة ودون سلطة وظيفية؛ ولذلك أصبح الوزير – مثله مثل ناظر المال – لا يتعدى عمله وليس له سلطة في التولية والعزل. ونظرًا لعدم استمرارية أهمية منصب الوزراء فقد أصبح يُطلق على من يشغل مكانه في النيابة اسم ناظر النيابة[٣].

رابعًا: أعيان حلب ودورهم في الحياة العامة

ينطبق مصطلح الأعيان عادة على أرفع الناس منزلة، وهكذا يكون لدينا الأعيان من المماليك، والأعيان من العلماء، والأعيان من التجار، والأعيان من الرعية، كما أن لعبارة الأعيان فضلًا عن ذلك معنى أكثر دقة؛ فهي تشير عادة إلى القادة من العلماء والفقهاء والمدرسين والقضاة والمشايخ، والوعاظ الذين كانوا أكثر أفراد المجتمع تقديرًا، وتنشأ مكانتهم العالية من احترام الدين الذي يمثلونه، ومن إسهامهم في صيانة الحياة الاجتماعية[٤]. وكان تماسك الحارات في حلب مُعززًا بالمسؤوليات الاجتماعية والإدارية المهمة التي تطورت فيها، وكانت تلك من أهم مهام أحد الأعيان القياديين ويدعى الشيخ عريف الحارة أو رئيس الحارة والناطق الرسمي الرئيس باسمها، وكان يجري اختياره من قبل نائب حلب. وقد تمثلت أهم واجبات عريف

(١) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع، ١٠٤، ١٦١+ ٧ ١٠١.

(٢) محمود نديم: الفن الحربي، ٧ ٢ ١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ٢٩٢+؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ٢٦٢ ١.

(٤) إيرا لابيدوس: مدن إسلامية، ٣٨ + ٩ ٣ ١.

الحارة في حفظ الأمن ومواجهة الخارجين على القانون والحد من انتشار الجرائم، وهذا يشبه ما كان يطبق في دمشق في العصر المملوكي( ) [1].

وكان شيوخ الحارات مخولين حق الجلوس في مقاعد الشرف في أثناء الاجتماعات العامة، ويستقبلون النائب والسفراء والزائرين من أصحاب المقامات الرفيعة، وكانوا يسيرون شؤون الحياة في حلب بالتشاور مع الأعيان من العلماء والتجار والموظفين الرسميين، وتمثلت وظيفته الرئيسة في التوسط بين متطلبات النظام المملوكي المالية وموارد الرعايا المالية( ) ووكلاء الإدارية المملوكية في تحديد الضرائب وجمعها.

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٤ ٢ ٤ ٢؛ الغوي: نهر الذهب، ج ص ٥ ٤،٨٧،٩٦،١٠٧،١١٧،١٥٦،٢٠٣ ٢٠٧ ٢، ٢٧٥،٢٨٨،٣٦٥،٣٧٥،٥٠٣؛ جورج داود: مدينة حلبص ٠ ٨.

(٢) إيرا لابيدوس: ن إسلاميص ٧ ٥ ١.

الفصل الثاني

فئات العامة ودورهم في المجتمع

تتمثل الحياة العامة في المجتمع الحلبي من أطياف مختلفة، وأدوار مختلفة، فلكل فئة من هذه الفئات دورها، وتفاعلها في المجتمع، وطريقة علاقة هذه الفئات ببعضها، وهذه الفئات هي:

أولًا: التجار والحرفيون

شغل التجار مكانة مؤثرة في حلب في العصر المملوكي نتيجة لموقع حلب التجاري المميز؛ وذلك نتيجة لمرور معظم تجارة الهند وفارس والصين في مدينة حلب في طريقها إلى أوربا وغيرها، علاوة على المنتجات الحلبية التي اعتادت حلب تصديرها إلى بعض البلدان الإسلامية، مثل الشام ومصر. وقد ترتب على ذلك زيادة أعداد السكان ومن ثم التجار في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي/الحادي عشر الميلادي نتيجة لسقوط القسطنطينية عام٨٥٦هـ – ١٤٥٣م، واضطرار بعض التجار البيزنطيين إلى الانتقال إلى حلب وغيرها فتحولت إلى مركز تجاري لنشاط التجار الأوربيين وغيرهم آنذاك. وقد حرص المماليك على تهيئة الأمن والاستقرار لدعم حركة التجارة الناشئة حرصًا على توفير مُناخ مناسب للتجار( )[١].

إن التجارة والحرف في العهد المملوكي كان شأنها شأن النقابات البيزنطية خاضعة لرقابة صارمة ترمي إلى الاحتفاظ بنشاطات العمال ضمن بعض الحدود السياسية والاقتصادية والمالية والأخلاقية، ولكن الإشراف لم يؤدِ بالضرورة إلى تأسيس نقابات، وقد فوضت المراقبة على التجار والحرفيين في المدن الإسلامية إلى المحتسبين أو المفتشين التجاريين( )[٢].

واستمد التجار الكبار شهرتهم من الدور الحيوي الذي لعبوه في اقتصاد مدينة حلب وغيرها؛ فقد توسط التجار في التبادلات التجارية، وتاجروا بالحبوب وعملوا في توزيعها بين القرى والمدن، وعملوا بصفتهم سماسرة لحساب الأمراء، وكان التجار المتجولون يتبادلون السلع بين المدن والنيابات المملوكية، وتوسطوا في

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٥ ٤ ٢٤٨ ٢؛ زياد المدني: مدينة حلبص ٨ ٩ ٢ ١٩٩.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٥ ٨ ٥، ٢٤١ ٥٠ ٢؛ الوي: نهر الذهب، ج ص ٨ ٧ ١٩٦، ٧؛ إيرا لابيد وس: ن إسلامية، ص ٥ ٦ ١- ٥ ٧ ١٠.

التجارة الخارجية في حركة السلع بين دولة المماليك ودول جنوب غرب آسيا وشرقها، وكذا شرق أوربا وغربها، ووجد التجار أنفسهم في جميع هذه الأنشطة التجارية مرتبطين بالدولة المملوكية.

ولم تكن طبقة العامة منظمة في مجموعات أو نقابات، وإنما عاشوا في الحارات أو الأحياء النائية وربما عاش بعضهم في الشوارع أو المساجد، وكان لبعضهم حوانيت صغيرة لبيع المواد الغذائية والسلع الأساسية لأهل المدينة، إضافة إلى عمل بعضهم في بعض الحرف، مثل: الخياطة والحياكة وغيرها التي كانت تقدم خدمات لأهل الحارة. وقد شكلت تلك الحارات أساس الحياة الاجتماعية في مدينة حلب، وارتكز تجانس الحارات وتماسكها أيضًا على الوحدة الدينية بين المسلمين والمسيحيين واليهود( ) [1].

ثانيًا: أهل الذمة

على الرغم من غلبة الدين الإسلامي على مدينة حلب بشكل تدريجي منذ دخول الإسلام إليها في بداية القرن الأول الهجري، فإن ثمة عناصر أخرى غير المسلمين كانت تعيش في المدينة وكان لها دور مهم في مدينة حلب قبل دخول الإسلام إليها بصفتهم كانوا من رعايا الدولة البيزنطية. وكان المسيحيون من أوائل من سكن حلب من أهل الذمة حيث عاشوا في نواحيها الشمالية الغربية، وهي الأماكن التي غلبت عليها الصبغة التجارية حيث الأسواق العامرة، مما يعني أن المسيحيين كانوا يزاولون نشاطًا تجاريًا في المدينة. وكالعادة فقد عاش في حلب من المسيحيين طائفتان: طائفة المسيحيين الأرثوذكس الذين يشكلون غالبية المسيحيين في حلب وربما في بلاد الشام منذ الانشقاق الذي حدث بين المذاهب المسيحية في مجمع خلقدونية عام ٤٥١م.

وقد آثر المسلمون أرباب هذا المذهب وخاصة أنهم كانوا ومنذ مجمع خلقدونية على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية التي يرأسها البابا الموجه والراعي للصليبيين الذين قاموا بغزو بلاد الشام والعراق واستقروا في المنطقة طوال القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ونشأت بينهم وبين المسلمين صراعات طوال تلك الفترة، ومن ثم لن يكون بينهم وبين الصليبيين أي تعاون. أما طائفة الكاثوليك فلا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من الحلبيين، ثم ازداد عددهم بعدئذ ولكن بصورة غير مؤثرة على الوضع السياسي والعسكري الراهن. وقد تحسنت العلاقات التي ربطت بين المسلمين حكامًا ومحكومين وبين

(١) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية ص ٦٥١ – ٢٠٠.

المسيحيين في حلب، وحرص المماليك على إعادة بناء الكنائس المسيحية وترميمها في حلب بعد تدميرها في أثناء الحملة التخريبية التي شنها الخان المغولي تيمورلنك عقب احتلاله للمدينة عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م( ).

وليس أدل على حسن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في حلب من مشاركة كل طرف في الاحتفالات الخاصة بالآخر ومنها احتفال خميس الرز، الذي اعتاد أهالي قرية روحين( ) الواقعة في جبل سمعان على الاحتفال به مرة واحدة في العام، وبالقرية طائفة كبيرة من المسيحيين وبها ثلاثة قبور( ).

أما اليهود فإنهم عاشوا في أحياء تقع في باب النصر والذي عرف فيما سبق بباب اليهود خلال الحقبتين الزنكية والأيوبية، وقد اتسم اليهود بعزلتهم الاجتماعية وحرصهم على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم ولم يختلطوا بغيرهم من المسلمين والمسيحيين. ولا يعني ذلك انقطاع الصلة بين الطرفين؛ لأن كلًا من المسلمين والمسيحيين كانوا يترددون على أحياء اليهود لقضاء أشغالهم واحتياجاتهم، وخاصة مع شهرة اليهود في الأنشطة الاقتصادية وعلى رأسها التجارة والصناعة بشكل خاص، ومنها صناعة الخمور( ).

وعلاوة على ذلك فقد تمتع اليهود بحرية الانتقال إلى حلب وهذا ما يُفهم من هجرة يهود الأندلس إليها في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وأقاموا فيها، وكان لهم أربعة كنس في حلب فحسب( ).

وقد شغل كل من المسيحيين واليهود مكانة مهمة في الجهاز الإداري في حلب، حيث سُمح لهم بولاية الوظائف المالية والإدارية وارتفع شأنهم فيها، مما تسبب في فزع بعض المسلمين من نفوذ أبناء هذه الطوائف، واتهموهم بالسيطرة على شؤون المسلمين. وعلى ما يبدو فقد حقق اليهود مكانة كبيرة في حلب

---

(١) الغزي: نهر الذهب، جـ٢، ص ٩٨ + ٩ ١.

(٢) روحين: بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الحاء المهملة وياء مثناة من تحت وآخره نون. قرية من جبل لبنان قريبة من حلب وفي لحف الجبل مشهد مليح يزار يُقال إن فيه قبر قس بن ساعدة الإيادي وهو مشهد مقصود للزيارة وينذر له نذرًا وعليه وقف، وقيل في روحين قبر شمعون الصفا وليس بثابت لأن قبر شمعون اتفقوا على أنه في رومية الكبرى في كنيستها العظمى في تابوت من فضة معلق بسلاسل في سقف الهيكل، وعلى أية حال فإن القرية تقصد للزيارة وهناك تنذر النذور بسبب الإشاعات التي تشير إلى وجود قبر شمعون بها ولذا أقبل عليها المسيحيون للزيارة والتبرك. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، (ت:٦٢٢هـ/١٢٢٥م): معجم البلدان، جـ٣، دار صادر،بيروت،١٩٧٧م، ص ٦ ٧.

(٣) تتمثل هذه القبور في: ممثلة في قبر قس بن ساعدة الإيادي، وقبر سمعان وقبر شمعون. انظر: ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١٥ ١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص ٦ ٧.

(٤) الغزي: نهر الذهب، جـ٢، ص ٤ ٠ ٢.

(٥) الغزي: نهر الذهب، جـ٢، ص ٤ ٠ ٢؛ ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ٢٠٤؛ زياد المدني: مدينة حلبص ٤ + ٠ ٢.

على ما يمكن فهمه من الأشعار التي قالها كاتب الإنشاء في حلب والشاعر الحلبي عبد الله بن يوسف بن أبي السفاح الحلبي (ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) حينما قال معبرًا عن استيائه من يهود حلب بقوله: [١]

أأرض حمى الشهباء دارًا قد علت ... عليها لأبناء اليهود سناجق

فإن نكست أعلامهم أنا راجع ... إليها وإلا فهي مني طالق

وقد ذكرت بعض المصادر وظيفة رئاسة اليهود والمسيحيين، وكان يعين رئيس اليهود أو بطريرك المسيحيين من قبل نائب حلب مباشرة، ولا يتدخل السلطان في ذلك التعيين[٢]. وكان اليهود والنصارى يتبعون السلطان في مواكبه الرسمية رافعين على أيديهم التوراة والإنجيل[٣].

ومن الناحية الاجتماعية فقد تمتعوا بحرياتهم ضمن نسق الحياة العامة للمجتمع الحلبي، وإن خضعوا من وقت لآخر لبعض القيود[٤]، ولكن لا يقاس عليها وليس سوى خروج عن القاعدة التي غلب عليها التسامح معهم، ولم تكن قيودًا دائمة أو مستمرة وإنما ارتبطت بمواقف استثنائية وخاصة أن المماليك كانوا غرباء عن المجتمع الحلبي، بينما كان المسلمون وأهل الذمة شعبًا واحدًا وعاملوا بعضهم بعضًا معاملة طيبة وكريمة، وقام المسلمون بحمايتهم والدفاع عنهم[٥].

ثالثًا: دور فئات العامة في الحياة العامة

تدهورت الأحوال السياسية في سلطنة المماليك في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وشمل ذلك الأوضاع الاقتصادية – العامة والخاصة – حيث عانى العامة من البطالة وقلة الأرزاق وكثرت

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢ ص ٧ ١٤.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٤ ٤،٢ ٤٢؛ القلقشند ي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ٥؛ كمالبه ور: حلب في العصر المملوكي، ص ٦ ٠ ٢.

(٣) وليم موير:د ور المماليك في مصر، ص ٨ ٤.

(٤) الشيزي، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت: ٥٩٠هـ/١١٩٤م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ت: السيد الباز العريني، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة،١٩٤٦ص ٠ ٦ ٠٧+ ١؛ القلقشند ي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ٥ ٧ ٣٥٩٣،٣٦٣؛ قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعيص ٦ ٧ ٣ ٨؛ كمالبه ور: حلب في العصر المملوكيلأ ولص ٨ ٠ ٢.

(٥) شيخ الربوة: نخبة الدهرص ٧ ٦ ٣٨٣؛ الغوي: نهر الذهب، ج ص ٥ ٧ ٠٨+ ١٥؛ كمالبه ور: حلب في العصر المملوكي، ص ٩ ٠ ٢.

حالات تذمرهم من سوء الأحوال. ونتيجة لذلك عمد الناس إلى الاستدانة في سبيل الحصول على النقود لشراء الطعام، كما تتبع أصحاب الديون مديونياتهم وكثرت الشكايات ضدهم، وتعرض العامة للابتزاز والسخرية الأمر الذي كان له أثر سيئ على حياتهم المعيشية وأرزاقهم اليومية( )، ناهيك عن صنوف مختلفة من العقاب ( ).

ولذا برزت في كتابات مؤرخي هذه الحقبة عبارات التذمر على شاكلة: "وبات الناس في قلق"، و"كثرت القالة بين الناس"، و"كثر تخوف العامة"، مما يؤكد عدم إحساس العامة أبان هذه الحقبة بالأمن والاستقرار، وأنهم كانوا في حالة توجس وترقب لما يطرأ من تغيرات سياسية وأزمات اقتصادية نتيجة عدم استقرار نظام الحكم في سلطنة المماليك، ولا شك أن عطاء الإنسان العادي في ظل هذه الأحوال غير المستقرة يكون ناقصًا ومُفتقدًا لصفتي الاستمرارية والثبات ( ).

ونتيجة لذلك وغيره من العوامل فقد قام أهالي حلب بالخروج على نوابهم سواء للتصدي لتمردهم على السلطنة أو لغضب العامة نتيجة لظلم النواب وتعسفهم معهم، وربما لتعديهم على الأوقاف وما سواها مما استدعى تدخل القضاة والعلماء. وقد قام أهالي حلب بالتصدي لنائبهم الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل نائب حلب ٦٥٨هـ/١٢٦٠م؛ وذلك لأنه أساء السيرة بتعمده ظلمهم وجبى منهم أموالًا تزيد عن خمسين ألف دينار، كما تقاعس عن طرد المغول من قلعة ألبيرة؛ لأنه بعث بفرقة صغيرة لم تنجح في التصدي للمغول وتعرضت للهزيمة على أيديهم، فقام العامة بخلع نائبهم وحبسوه في قلعة شيزر؛

(١) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع، ٢ ٩- ٣ ٩.

(٢) كانت عمليات العقاب التي استحقها المذنبون سببًا للفرجة عند العامة حيث كانوا يتزاحمون على مراكز العقوبة الأمر الذي كان يُثير انزعاج النائب الذي يُمثل الجهة المنفذة للأحكام العقابية. وكان انزعاج النائب يتفاقم في بعض الأحيان إلى حد الإيقاع بأولئك العامة المتفرجين مما يؤدي إلى إثارة مشاعر النقمة عند العامة ضد النائب، فيسعون في مطالبة السلطان بعزله. انظر: حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع، ص ٢ ٠ ١٠.

(٣) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع، ١ ٠ ١- ٢ ٠ ١٠.

لأنه لم يكن حريصًا على الصالح العام، وعينوا مكانه الأمير حسام الدين لاجين العزيزي الجوكندار ٦٥٨هـ/١٢٦٠م([٢]). واستمر نائبًا لحلب بناء على رغبة من أهلها([٣]).

ولم تكن تلك المرة الأخيرة حيث قدم مجموعة من أعيان حلب إلى السلطنة في القاهرة؛ كي يتظلموا من نائبهم الأمير بيدر البدري، فاستجابت لهم السلطنة وعزلت النائب حرصًا من السلطنة على تلبية رغبات أعيان حلب كسبًا لدعمهم ومساندتهم ضد النواب الثائرين، ولحرص الأهالي على مصلحة نيابتهم([٤]).

وكان لعامة حلب موقف مؤثر تجاه نائبهم الأمير سيف الدين طاز الناصري([٥]). الذي رفض الامتثال بالحضور أمام السلطان في القاهرة سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٧-١٣٥٨م، بل إنه توعد السلطان وهدد بغزو السلطنة، وتبعًا لذلك فإنه قام بالقبض على بعض أمراء حلب بدار العدل وحبسهم، ولم يقف جيش نيابة حلب وعامتها أمامه مكتوفي الأيدي، حيث رماه أهل القلعة بالنشاب وأعلنوا تحفزهم ضده، فخاف منهم وحاول تهدئتهم وأطلق سراح الأمراء الذين حبسهم، وخرج ليلًا فارًا من حلب إلى دمشق، فقُبض عليه وأرسل مُقيدًا إلى قلعة الكرك([٦])، وكان للعامة في حلب دوْر مهم في الثورة على الظلم الذي وقع عليهم من نوابهم، وخاصة حينما كان يتمرد النواب ضد السلطنة مما دفع بالسلطنة إلى التعاطف معهم ضد النواب لرفع الظلم عنهم، كما تعاون العامة مع السلطنة والنواب جميعًا ضد المغول بقيادة تيمورلنك الذي هاجم حلب سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م([٧]).

---

(١) حسام الدين لاجين بن عبدالله المنصوري، حامي عشر سلاطين المماليك ولة المملوكية، فترة حكمه (٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م)، (ت ٦٦٣ هـ - ١٢٦٣ م)، السلوك لمعرفة دول الملوك —دار الكتب —القاهرة

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢ ص ٢١٠؛ ابن أيبك الدواداري: ج ١٧ ص ٤٦٥؛ سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٨؛ محمد جمال الدين سرور: دور الظاهر بيبرس ص ٤٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ١٥.

(٤) الأمير سيف الدين طاز بن عبد الله الناصري، أحد الأمراء البارزين في عصر دولة المماليك البحرية (ت ٧٦٣ هـ - ١٣٦١ م).

(٥) حصن مشهور بناحية الشام ، ومعقل مشهور ، انظر المعطار —أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (المتوفى: ٩٠٠ هـ - ١٤٩٤ م) —المحقق —إحسان عباس —الناشر —مكتبة لبنان ١٩٧٤م— (ص ٣٩٤)

(٦) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢ ص ١٢.

وحينما قام الأمير يشبك نائب سلطنة حلب( ). بظلم الأهالي سنة ٨١٥هـ/١٤١٣م بأخذ أموالهم ظلمًا وجورًا فقد قرر الحلبيون الاجتماع وأغلقوا عليه أبواب المدينة ولم يمكنوه من دخول حلب، فحاربهم ذلك النائب على بانقوسا( ) وقتل بعضهم بيد أنه اضطر إلى الفرار إلى دمشق فطالب الحلبيون بقدوم الأمير دمرداش المحمدي( ) وعينوه نائبًا على مملكة حلب( ). وعلاوة على ذلك فقد قام الحلبيون بمهاجمة الأمير تغري برمش الذي ثار ضد السلطنة المملوكية سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨-١٤٣٩م( ).

وكثيرًا ما وقف الفلاحون في وجه نائب حلب لظلمه وتعسفه ضدهم على ما حدث سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م حينما طارد الحلبيون نائبهم الأمير تنم بن عبد الرازق( ). المؤيدي ورجموه ومنعوه من دخول حلب، فعزله السلطان جقمق( ). استجابة للأهالي( ). وكانت الأمور تصل إلى حد الحرب الأهلية نتيجة للعصبية القبلية والاختلاف المذهبي على ما حدث بين الحوارنة وأهالي قرية بانقوسا سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م( ).

---

(١) يشبك من مهدي ولیس "ابن مهدي"، فترة حكمه – (٨٧١هـ / ٤٦٦ + ١٤٦٧م)، لم يعرف له على والد ، السلطان الظاهر جقمق اشتری يشبك عندما كان عمره ١٣ عاما من تاجر اسمه "مهدي" فنسب اليه، النجوم الزاهرة(٦ / ١٠٣).

(٢) بانقوسا: بالقاف جبل في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال ، معجم البلدان(/ ٣٣١)

(٣) دمرداش المحمدي الظاهري برقوق ، ويعرف بالخاصكي، فترة حكمه – (٨٠٦ هـ – ١٤٠٤م) ، قتل بالإسكندرية (٨١٨هـ).

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ص ٢٤ ٣؛ بدر الدين العيني: السيف المهند ص ١٤ ٣ ٣١٥.

(٥) مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية، رقم١٤٦٣، ورقة ٧٠ ١ ٧؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ص ١٤١- ٥ ٤ ١

(٦) تنم بن عبدالرزاق المؤيدي، والاه الظاهر جقمق الحسبة ثم نيابة اسكندرية ثم حماة ثم حلب ،رجم من أهلها ، المنهل الصافي(/ ١٧٥)

(٧) الظاهر سيف الدين جقمق العلائي الظاهري سيف الدين أبو سعيد حكم مصر في الفترة(٨٥٧هـ ٤٢هـ)(٤٥٣+ ٤٣٨م)، عاش نيفا وثمانين سنة ، (ت ٨٥٧هـ – ١٤٥٣م)، السلوك لمعرفة دول الملوك –دار الكتب –القاهرة

(٨) السخاوي: التبر المسبوك ص ٠٠ ٢؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ص ٨ ٢.

وقد تم تفسير ما حدث في تلك السنة بناء على أن الحلبيين تعاطفوا مع أهل عزاز الذين تظلموا لنائب حلب لرفع الظلم الواقع عليهم، فنهرهم النائب فشق ذلك على الجميع فثاروا ضد النائب وبخاصة أنه كثيرًا ما صادر فلاحي القرى المجاورة لمدينة عزاز. انظر في ذلك: سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج٣، ورقة ٨+ ٩ ١، ٤٥ ٦ ٤٤؛ ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج ص ٥ ٧ ٢.

(٩) خليل الحلبي، شمس الدين محمد بن محمود المعروف بابن أجا(٨١٨هـ/٤٧٦ +٤٧٧ ١م): تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة،١٩٧٣م، ص ٥ ٧.

وعلاوة على ذلك فقد ثار بعض عامة حلب على نائبهم جانم( ). بسبب ظلم بعض المباشرين سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٦م، فقام النائب بحبس المباشرين ولكن لم يرضِ العامة حكم النائب وتعقبوا المباشرين وقتلوهم، وكان في ذلك تحديًا للنائب الذي اضطر إلى رفع الأمر للسلطان مطالبًا إياه بإنصافه وإلا تخلى عن النيابة ولكن السلطان أقنعه بالاستمرار في نيابته( )، مما يعني أن العامة كان بمقدورهم الوقوف للنائب الجائر وأن السلاطين كانوا يتفهمون تلك المواقف.

وربما لرغبة بعض أهل الفتنة في إثارة شغب بين الحلبيين على ما حدث في وجود الأمير يشبك الظاهري في نيابة حلب في سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م( ). وحينما سعى نائب حلب إلى جمع الضرائب من الحلبيين سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م بهدف إرسال حملة عسكرية إلى ماردين( ) فقد ثار الحلبيون على نائب القلعة الذي كلف بجمع تلك الضرائب وقتلوه مثلما قتلوا حاجب حلب أيضًا، وقد يقع صدام بين نائب حلب وبعض رعاياه، وذلك على ما حدث في نيابة أزدمر عام ٨٩٦هـ/١٤٩١م( )، حينما وقعت فتنة بين النائب أزدمر وبين جماعة من رعاياه في حلب، قتل فيها بعض مماليكه وعدد كبير من الرعايا، وأحرق جماعة من حاشية النائب، وإن تمكن قنصوه الغوري حاجب الحجاب من إخماد تلك الفتنة مما أدى إلى هدوء الأوضاع مرة أخرى( ).

كما ثار الحلبيون في حلب على نائبهم الأمير إينال الفقيه سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧-١٤٩٨م( )، بسبب تعاطفه مع الأمير أقبردي الدوادار بدمشق والذي ثار على السلطنة، وبالرغم من سعي الأمير إينال

---

(١) الأمير سيف الدين جانم بن عبد الله الأشرفي، فترة حكمه – (٨٥٩هـ – ٤٥٥ م) ، أقام باتابكية غزت حتى مات(٦٧ هـ – ١٤٦٢م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي(٣٦٨).

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢، ص ٥ ٧ ٢.

(٣) خليل الحلبي: تاريخ الأمير يشبك الظاهري، ص ٥ ٧.

(٤) ماردين : مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل ، بينها وبين مدينة دارا نصف مرحلة ، وهي في سفح جبل في قنته ، قلعة لها كبيرة ، وهي من قلاع الدنيا الشهيرة ، للروض المعطار (ص ٥١٨)

(٥) أزدمر بن عبد الله الظاهري فترة حكمه –(٨٩٦ هـ ٨٨٤هـ)(٤٩٣ + ٤٧٩ م)، قتل أزدمر بحلب، (الوافي بعد الصافي ٣٥١)

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٤ ٨ ٢٥٨ ؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان، ص ١ ٤ ١.

(٧) إينال بن عبدالله الأبو بكري الأشرفي الفقيه ، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية، (المنهل الصافي ٢١٥)

إلى تسليم حلب لذلك الثائر فقد قرر الحلبيون طرد الأمير إينال من حلب وحصنوا مدينتهم[١]، مما يعني أن الوعي بالخطر الداخلي والخارجي على حلب كان يدفع بالأهالي إلى التدخل لعزل النائب أو التصدي له بالروح والنفس، وربما تعاطفًا من السلطنة ضد الثائرين عليها من النواب مما كان يؤدي إلى حماية مدينة حلب من أخطار محققة.

وعلاوة على ذلك فلم ينظر الحلبيون إلى ثورات نوابهم ضد السلطنة بالارتياح نظرًا لما تسببه هذه الثورات من اضطرابات وعدم استقرار بما يعود بالضرر عليهم وعلى مصالحهم وأمنهم، علاوة على أنها لم تكن تستهدف الصالح العام لحلب والحلبيين وإنما اقتصرت أهدافها على مصالح شخصية للنواب؛ ولذا وقف الحلبيون ضد هذه الحركات بالمرصاد وطردوا النواب الثائرين من نيابة حلب واستبدلوهم بغيرهم، وحينما كانوا يعجزون عن التصدي لهم فإنهم كانوا يرددون عبارات تعكس استيائهم منهم وتذمرهم من وجودهم" حدث ذلك أبان نيابة خاير بك لمملكة حلب (٩٢٢-٩١٧/١٥١٠-١٥٠٤م) حينما أرهق كاهل الحلبيين واستخدم بعض أعوانه لتنفيذ ذلك، وقد بلغت به القسوة أنه قطع رجل أحد الحلبيين إلى نصفين، مما دفع بالحلبيين إلى التعبير عن سخطهم على خاير بك بعبارة تناقلها الصغار عن الكبار والخلف عن السلف مفادها "ذهب سيباي الفشار وجاء خاير بك النشار"، وكان سيباري هذا نائبًا لحلب قبل خاير بك ثم نقل إلى أمير مجلس بالقاهرة"[٢]، حقًا حاول هؤلاء ونتيجة لما باتوا يواجهونه من بؤس وشقاء المناداة بالعدالة التي أمر بها الإسلام بيد أنهم فشلوا في تحقيق أيًا مما كانوا يهدفون إلى تحقيقه، ولذا اضطر غالبيتهم إلى السلب والنهب كي ينجحوا في تأمين احتياجاتهم الضرورية[٣].

وعلى ما يبدو فثمة ترجيح يُشير إلى مشاركة عامة حلب في أعمال السلب والنهب التي جرت في الفترة التي واكبت حملات المغول التخريبية ضد حلب وخلال فترات التمرد والعصيان التي قام بها بعض الأمراء ضد سلاطين القاهرة. وقد نهب العامة مدينة حلب حينما اجتاحها المغول سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وكرروا

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢ص ٢٨٣.

(٢)انظر: ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ٢٩٠؛ محمد كامل فارس: "الرنوك في حلب"، مجلة عاديات حلب،١٩٧٦م ص ٢٥٦؛ عادل حمزة: نيابة حلب، ج٢ص ٤٧٨ ؛ ١٤٠.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢ص ٣٢٣؛ ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣ص ٨٦١؛ زياد المدني: مدينة حلبص ٢٢٢.

فعلتهم حينما نهبوا أموال الأمير تغري برمش نائب حلب (٨٤١-٨٣٩هـ/١٤٣٥-١٤٣٧م)(١) حينما تمرد على السلطان سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م(٢). وبالرغم من ذلك فإنهم لم يكونوا عنصرًا فاعلًا أو غير مؤثرين في المجتمع الحلبي مثلهم مثل من الفئات الاجتماعية الأخرى التي عانت من الظلم والقمع ولم تملك من أمرها شيئًا(٣).

أما موقف العامة بشكل عام من الأمراء والسلاطين فإنه جاء كرد فعل لبعض الممارسات التي قام بعض الأمراء، ولم تُرق للحلبيين، وفضلًا عن سياسة بعض نواب حلب فقد كان لغزوات المغول التخريبية، وما ترتب عليها من آثار جانبية في فترات معينة على غرار ما حدث في عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، وعلى ما حدث في حركة يلبغا الناصري نائب حلب أن تعرضت المدينة للسلب والنهب وأغلقت طرق التجارة، وترتب على ذلك اضطرار كثير من الحلبيين إلى الهرب منها إلى مناطق أكثر أمنًا واستقرارًا.

وفي أحايين أخرى كان الحلبيون يثورون ضد نوابهم على ما فعلوا سنة ٨١٦هـ/١٣١٣م بالخروج على نائبهم أزدمر لمخالفاته الكثيرة في حقهم، وتكرر خروجهم مرة أخرى عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م ضد الأمير يشبك اليوسفي بسبب المظالم التي ارتكبها.

وكان لوجود جيوش السلطنة وترددها على حلب بعض الآثار السلبية التي عانت منها المدينة، وقد حدث هذا عدة مرات منها ما حدث سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م من قدوم الجيش السلطاني إلى حلب وذلك للتصدي للأمير شاه سوار أمير تركمان الأبلستين(٤) مما اضطر كثيرًا من سكانها إلى الهجرة نتيجة للسلب والنهب والتعدي على أرواحهم وممتلكاتهم(٥). وتكرر الموقف ذاته حينما توجهت جيوش السلطنة في حلب

(١) اسمه حسين بن أحمد، كان أبوه يدعى بابن المصري، فترة حكمه -(٨٤١هـ ٨٣٩هـ)(١٤٣٧م ١٤٣٥م)، من أهل بهسنا، قتل بالقاهرة(٨٤٢هـ - ١٤٣٨م)، المهل الصافي والوافي بعد الوافي(٣/ ٢٢٧).

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ٢٥٤، ٤١.

(٣)ابن حجر: أنباء الغمر، جـ٣ص ٦٨ ١؛ زياد المدني: مدينة حلب ص ٢٢١.

(٤) الأمير شاه سوار بن الأمير سليمان، اعدم على باب زويلة (ت ٨٧٧هـ - ١٤٧٢م)، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء(٣/ ١٣)، التاريخ الإسلامي -العهد المملوكي(٦/ ٩٠)، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء(٣/ ٦٣).

(٥) ابن حجر: أنباء الغمر، جـ٣ص ٦٨ ١؛ ابن الصيرفي: أنباء الهصر ص ٨٧.

لمحاربة العثمانيين سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م ووقوع بعض الفتن والمشاحنات بين المماليك الجلبان وغالبية الجيش، مما اضطر عناصر سكانية متنوعة إلى مغادرة المدينة برفقة قوافل الحجاج[١].

ومن جهة أخرى فقد كان لبعض العامة دور في الحملات العسكرية والمعارك المملوكية ضد المغول والصليبيين وذلك بالتطوع في صفوف الجيش الحلبي. بيد أنه لا يمكن القول إن العامة كانوا بأسرهم يُساندون المماليك ويدافعون عنهم، فالمماليك أنفسهم لم يكونوا يرغبون في ذلك بل كانوا يحتفظون لأنفسهم بحق الدفاع عن سلطنتهم وحكمهم[٢]، ونتيجة لذلك ولعوامل أخرى كثيرة فقد حُرم العامة من جميع الامتيازات ولم يشغلوا دورًا مميزًا في الحياة السياسية، وابتعدوا عن الوظائف الرسمية، وظل دورهم قاصرًا على كونهم مصدرًا للضرائب والمكوس.

وقام القضاة والأعيان والفقهاء بدور مهم في المجتمع الحلبي، حينما شيدوا المدارس والمساجد ومكاتب الأيتام وأوقفوا عليها أوقافًا تضمن استمرارها في أداء عملها الخيري، وفضلًا عن ذلك فإنهم أشرفوا على المدارس، وعلموا طلاب العلم في المدارس والمساجد ومكاتب الأيتام.

وحينما توجهوا إلى التصنيف في العلوم فإنهم تركوا تراثًا علميًا قيمًا، ومن أمثلة ذلك ما تركه ابن خطيب الناصرية الذي وضع كتاب "الدر المنتخب في تاريخ حلب"، وابن الشحنة الذي صنف كتاب "الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، وابن سبط العجمي الذي ألف كتاب "كنوز الذهب في تاريخ حلب"، وطاهر بن حبيب الذي وضع كتاب "ذيل على درة الأسلاك في دولة الأتراك" وغيرها من المصنفات الكثيرة التي كان لها دور مهم في المجتمع الحلبي في الفترة قيد الدراسة[٣].

أما القضاة[٤] فكانوا أعضاء نافذين إلى أبعد حد في تنظيم الدولة، وكانوا في العادة مستخدمين من قبل السلطان في وظيفة كاتب السر، وفي خزينة ماله الخاص، وفي الدوائر العسكرية. وقد أصبح بعضهم وزراء، كما شغل بعضهم الآخر مراكز الكتبة في الفروع المختلفة في الإدارة. وكان من مسؤولياتهم تنظيم

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٥، ص ٤٠٠؛ زياد المدني: مدينة حلب، ص ٢٢٣.

(٢) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ص ٥٩.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: زياد المدني: مدينة حلب، ص ٢٤٩.

(٤) القضاة وموضوعهم التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأمور الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه، وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرًا وأجلاها رتبة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ص ٣٤.

مدارس الشريعة والقانون، وفي العقد المتأخر لحكم المماليك كان القاضي ومشايخ الحارات وسطاء في جباية الضرائب من العامة[١].

وأدى التعاون بين العلماء والقضاة في النهاية إلى دمجهم في جهاز الدولة، كما أن الموظفين الكبار من العلماء البارزين، مثل قاضي القضاة وقضاة العسكر وغيرهم، كانوا جميعًا معينين من قبل الدولة.

وكانت هذه التعيينات تتم على الأغلب بناء على توصية من قاضي القضاة والعلماء المحليين، باستثناء بعض الوظائف الرسمية العامة التي أهمها قاضي القضاة، فإن السلطان هو الذي يختص بتعيينهم. وكانت حرية العلماء معززة بالطريقة التي كانوا يكتسبون بها معيشتهم؛ فقد كان القضاة والمفتشون التجاريون والمدراء يتقاضون رواتب أو معاشات من الدولة مباشرة؛ ففي عام ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥م كان أحد القضاة يتقاضى ما يعادل ١٩٨,٠٠٠ درهم ، وأحد الواعظين الرسميين ٦٠,٠٠٠ درهم، والأستاذ ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠ درهم سنويًا، ومعظم المدرسين والموظفين الدينيين مع ذلك من ذوي الرواتب الجزئية يقبضونها من الأوقاف[٢].

وقد اشتملت حلب على الأوقاف التي يعود بعضها إلى الزنكيين والأيوبيين وبعضها الآخر إلى عصر المماليك، وقد أوقفها السلاطين والأمراء والأعيان على المؤسسات التعليمية والمنشآت الدينية والعامة. وكانت تلك الأوقاف تهدف إلى أعمال البر والإحسان والتقرب إلى الرعية وتأمين نفقات تلك المؤسسات. وقد شملت تلك الأوقاف أراضي زراعية وحمامات ودورًا. وتنقسم أوقاف حلب إلى أوقاف خيرية أوقفها أهل البر على المؤسسات التعليمية والمنشآت الدينية العامة، ومنها أوقاف المدرسة الظاهرية التي أوقفها الملك الظاهر غازي[٣] عليها، وأوقاف المدرسة الرواحية التي أوقفها زنك الدين أبو القاسم هبة الله بحلب،

---

(١) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية، ص ٢٢٦، ٢٣٠ - ٢٣٢.

(٣) الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فترة حكمه (٥٧٣ - ٦١٣هـ/ ١١٧٧ - ١٢١٦م)، (٥٦٩ - ٦١٣هـ/ ١١٧٣ - ١٢١٦م).

وأوقاف المدرسة الشرفية التي أوقفها الشيح شرف الدين أبو طالب ابن العجمي( ) على تلك المدرسة، ١ وتعود تلك الأوقاف إلى العصرين الزنكي والأيوبي، أما أوقاف المماليك فممثلة في البيمارستان الكاملي وأوقاف نهر الساجور وأوقاف جامع الماورديني وأوقاف جامع تغري بردي وأوقاف الهذباني والأوقاف جامع يشبك وأوقاف مدرسة يشبك وأوقاف مكتب الأيتام ووقف زاوية الأمير تغري ورش وغيرها، أما الأوقاف الأهلية أو الذرية من أبرزها ما فعله الأمير قصروه نائب حلب سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م( ) الذي أوقف أملاكه ٢ على أولاده. ولعل كثرة تلك الأوقاف هو ما دفع السلاطين والأمراء إلى التصرف في وارداتها دون مُراعاة حرمتها ودفع ببعض القضاة إلى الدخول في صراع ضدهم( ). ٣

وقد ترتب على سوء الأوضاع في الدولة، وإقبال أصحاب النفوذ على شؤون الدنيا، مع انشغالهم التام عن أمور الدين والعدالة الاجتماعية، كل هذا جعل بعض القضاة يؤثرون النجاة بأنفسهم من مغبة العمل في بيئة غلب عليها عامل المنفعة الشخصية، وإيثار الذات، فلما زاد هذا الوضع كان القضاة يعزلون أنفسهم عن هذا المنصب؛ لأن القضاة عندما يعجزون عن تنفيذ أوامر الأمراء التي لا توافق النظام لا يجدون مفرًا من ذلك إلا عزل أنفسهم عن وظيفة القضاء.

ولا شك أن القضاة في موقف الاعتزال هذا يعبرون عن احتجاجهم على تنفيذ عمل غير شرعي، مثلما يعبرون عن قلة حيلتهم وضعف تدبيرهم إزاء جبروت كبار الأمراء وتسلطهم. وقد بلغ الجشع ببعض الأمراء أنهم حاولوا الإفادة ماليًا من وراء تعيين بعض الشخصيات في وظيفة قاضي القضاة،( ). وهذا

(١) عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن أبي طالب عبد الرحمن بن الحسن الكرابيسي ، الفقيه العالم ، أبو طالب بن العجمي (ت ٦٥٨هـ - ١٢٥٩م، سير أعلام النبلاء(٣ /٣٤٠)

(٢) الأمير قصروه بن عبد الله الأشرفي، فترة حكمه -(٨١٣ هـ)(١٢١٦ - ١٨٥ م)من(٣٩ هـ - ٤٣٥ م)، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء(٣٤٣)

(٣) إيرا لابيدوس: المدن الإسلامية ٢٣٢، ٢٢٦، ٢٣٠. وعن الأوقاف وورها في المجتمع الإسلامي بعامة والمجتمع الحلبي بخاصة انظر: ابن الشحنة: الدر المنتخب ص ٢١٢؛ ابن شداد، عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم عز الدين (ت: ٦٨٤هـ/١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة ج ١، ق ١ ص ٤٠١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣ ص ٦٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١ق ٢ ص ٣٠٧.

(٤) قاضي القضاة : هو من يرأس القضاة ، ويقوم بتعيينهم ، ويراقب أعمالهم ، وعزلهم عند الإقتضاء

الوضع يدعو للاستغراب حيث إن هذه الوظيفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمصالح الرعية ومشاكلها، وإتاحة الفرصة؛ لأن يتولاها من يرغب مقابل مبلغ من المال قد يُؤدي إلى العهود بها إلى من لا يستحقها( ).

وقد اضطر بعض العلماء والقضاة إلى الصدام بالسلاطين الذين يسعون إلى حل الأوقاف الخيرية والأهلية وتحويلها إلى إقطاعات عسكرية. وقد اصطدم السلطان برقوق بالقضاة سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م حينما سعى إلى حل أراضي الوقف على الجوامع والمساجد والمدارس والخانقاوات والزوايا والأربطة، وكذلك أوقاف أولاد السلاطين والأمراء وغير ذلك من أجل تقسيمها وتوزيعها إلى إقطاعات على المقطعين، فتصدى له القاضي جمال الدين أبو الرضا الشافعي وأفتى بكفر السلطان وأنكر سلطنته، وقامت حربًا أهلية بين الطرفين، مات فيها من الطرفين الكثير بمن فيهم القاضي نفسه. وكان للقضاة رد فعل قوي بعدئذ في سلطنة فرج بن برقوق الذي سلك مسلك أبيه وأقطع الأوقاف لأنصاره، الأمر الذي دفع بالقضاة إلى تأييد الأمير جكم حينما أعلن نفسه سلطانًا على حلب نكاية في فرج بن برقوق( )،( ).

وقد عارض القضاة والعلماء هذه الخطوة وغيرها، لما تضمنته من تجنٍ على أوقاف خيرية أو أهلية، قد أوقفها أصحابها من أجل أن تُدر ريعًا ثابتًا على المؤسسات الخيرية التي أقاموها، ولم يدر بخلدهم أن تمتد إليها أيادي السلطة فتحولها إلى إقطاعات للأمراء والأجناد. ولكن القضاة وشيوخ العلم فشلوا في إقناع الأمير برقوق وغيره من كبار الأمراء بعدم المساس بهذه الأوقاف الدينية، الخيرية الأهلية، ونجح الأمراء في تنفيذ رغباتهم( ).

وعلاوة على ذلك فقد كان لصدام بعض القضاة مع النواب بشأن الأوقاف وجهة أخرى وذلك؛ لأن إشراف القضاة على الأوقاف يمنحهم نسبة من ريعها وقيام السلاطين بالاستيلاء عليها كان يحرمهم من أرزاقهم، ولذا كثيرًا ما وقعت خلافات عديدة بينهم وبين السلاطين والنواب وكانت الأوقاف محورًا لها( ).

---

(١) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع، ص ٩ ٩.

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ١٠ ٢؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٧ ٣.

(٣) السلط ن الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس بن عبد الله الشركسي، فترة حكمه –(٧٩١ ٧٨٤هـ)(٣٨٩+ ٣٨٢م)، سمي بالملك الظاهر لأنه بويع وقت الظهر، اختفى عام ٧٩١هـ – ٣٨٩م.المنهل الصافي(٣٠٨)

(٤) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمعص ٩ ٩– ٠ ١٠.

(٥) ابن تغري بر ي: النجوم الزاهرة، جـ٠ ص ٣ ٨ ٥؛ الصيرفي: نزهة النفوس، جـ ص ٦ ٨ ٥؛ زياد المدني: مدينة حلبص ٦ ١ ٢.

وحينما تأثر تعيين القاضي بالظروف الاقتصادية التي عانت منها السلطنة المملوكية، واستعان السلاطين بأساليب ملتوية لتعيين القضاة، واستغلال بعض القضاة لصالحهم دون النظر فيما يخص البلاد، وكان بعض القضاة يدفعون رشوة للسلاطين للاستمرار في منصبهم في حلب وغيرها، فقد كان للحلبيين مواقف إيجابية طيبة إزاء تلك الظاهرة( )، وخاصة حينما كانوا يشجعون القضاة الشرفاء ويحترمونهم. ويمكن الوقوف على اللمسة الإنسانية من الحب والتقدير حينما خرج نائب حلب وأعيانها وأكابرها وعامتها سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م لاستقبال قاضي قضاة حلب زين الدين عمر بن شرف الدين محمد بن البلفيائي المصري الشافعي لما عرف عنه من تدين وسمعة طيبة( ). وحدث عكس ذلك تمامًا حينما رفض الحلبيون قبول قاضيهم جمال الدين بن إبراهيم بن العديم سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م وطلبوا من السلطان المملوكي عزله وتعيين غيره، فاضطر السلطان إلى تعيين ابن الشحنة مكانه( )؛ ترضية لهم، وجبرًا لخاطرهم( ).

وكان للتجار دور مهم في المجتمع الحلبي، وخاصة أن مصالحهم الاقتصادية فرضت عليهم ضرورة تحسين علاقتهم بنواب حلب، وربما لأجل ذلك يمكن فهم تأييدهم للأمير جكم نائب حلب (٨٠٨-٨٠٩هـ/١٤٠٤-١٤٠٥م)( ) حينما أعلن نفسه سلطانًا للبلاد( ). ويؤيد ذلك ويدعمه أن حلب شهدت في فترة نيابته لها رخاءً وعدلًا لم تحظَ به من قبل، وفي ذلك ما فيه من المصلحة التي يتوخاها التجار الذين لا يهمهم سوى الحفاظ على مصالحهم ومكاسبهم بالدرجة الأولى. وقد سعى الأمير جكم إلى اكتسابهم لصفه

(١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٣٤٣؛ الطباخ: أعلام النبلاء، جـ٦، ص ٤٠٤؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، جـ١، ص ١٤١؛ المقريزي: السلوك، جـ٤ق١، ص ٣٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص ٣٠٧؛ أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ٣٠-٣١.

(٢) أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ٣٠.

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشهاب غازي بن أيوب بن حسام الدين محمود ابن الختلو بن عبد الله(٨٩٠هـ/١٤٠٤م) (٨٠١هـ/١٤٨٥م).

(٤) بيشوف الجرماني: تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء، بيروت، ١٨٨٠م، ص ٢٩.

(٥) جكم بن عبد الله من عوض الظاهري ، الأمير سيف الدين، فترة حكمه - (٨٠٦هـ - ١٤٠٤م)، المتغلب على حلب ، الملقب الملك العادل ، توفي سنة(٨٠٩هـ - ١٤٠٦م).

(٦) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ٢١٠؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٢٥٢؛ الغزي: نهر الذهب، جـ٢، ص ٤٠٢.

بإعادة فرض سيطرة حلب على الطرق التجارية ودروبها التي سبق ووقعت تحت أيدي آل مهنا والتركمان فحررها من أيديهم، وقد كفل هذا ازدياد شعبية جكم بين التجار[١].

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٩ ٤ ١،٢٥٢؛ الغزي: نهر الذهب، جـ١ص ٤ ٠ ٢؛ زياد المدني: مدينة حلبص ٨ ١ ٢١٩٢.

الفصل الأول

المساكن

تنوعت أشكال وفنون العمارة في المجتمع الحلبي، وتباينت من حيث الطبقات الساكنة لها، وقد تمثلت في.

أولًا: تطور العمارة في حلب، وتأثرها بالوضع العسكري والكوارث الطبيعية.

تُعتبر مدينة حلب ثاني أهم المدن التي خضعت لسلطنة المماليك بعد مدينة القاهرة من حيث كثرة آثارها الإسلامية، سواء تلك التي تعود إلى عصور وأزمنة سابقة على العصر المملوكي، وظلت موجودة إلى الحقبة المملوكية، أم تلك التي يرجع بناؤها إلى العصر المملوكي ذاته.

وقد اشتهرت حلب بكثرة الأبنية الإسلامية فيها، حيث قدمت منذ نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي سلسلة من الأبنية الدينية والمدنية التي تتسم بالأسلوب الفني البديع، مما يعكس لمتابعها مقدار التطور الديني والاقتصادي الذي طرأ على المدينة(١).

ومن مظاهر تلك العمارة أبواب حلب التي شُيدت في الحقبة الأيوبية، وظلت على وضعها في العصر المملوكي مع بعض التجديدات الطفيفة على الأبراج والأسوار وخاصة في العصر المملوكي الثاني، بينما ظلت مدينة حلب شبه خربة، وضعيفة التحصين طوال العصر المملوكي الأول؛ بسبب غزوات المغول ضدها مما جعل من الدفاع عنها من أشق الأمور( ). وانتشرت المساجد الجامعّة في غالبية حارات حلب؛ نتيجة لكثرة أعداد السكان الذين توزعوا على أحياء حلب والحارات التابعة لها.

وقد تأثرت العمارة الحلبية بالأوضاع العسكرية الراهنة على ما فعله المغول حينما اقتحموا حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م بعد حصار دام عدة أيام حيث نشروا في حارات حلب الدمار والحرائق وامتلأت شوارعها بالجثث. وحينما حرر المماليك حلب فلم تكن سوى خرائب مهجورة، حيث تحولت الحارات إلى أطلال،

(١) سليم عادل عبد الحق: "إسهام في دراسة الزجاج الإسلامي بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلا ي"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ٩٥٨+ ١٩٥٩، ص ٩ ٨.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٦ ٣٧٣؛ القلقشند ي: صبح الأعشى، جـ٦ص ١٧ ١؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨ص ١٥ ٣؛ المقريزي: السلوك، جـ٣ص ٨ ١ ٧.

وتحولت حلب بعدئذ إلى مركز متقدم لدولة المماليك في شمال شرق السلطنة، وقاعدة عسكرية مهمة لمحاربة المغول بسبب قربها من أماكن تمركزهم في العراق؛ ونتيجة لذلك فقد باتت أحياء حلب وحاراتها تعج بالمماليك الذين شكلوا الجيش المملوكي.

وما تعرضت حلب بعدئذ للهجوم الذي شنه تيمورلنك ضدها عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، فهدم تيمورلنك السور وأجزاءً كبيرة من الأحياء والحارات، وعادت الحرائق إلى التهام القلعة من جديد لتذكرنا بما قام به المغول في حلب أيام الملك الناصر يوسف، وبالرغم من قيام تيمورلنك بإعادة بناء السور مرة أخرى لأغراض دفاعية فقط بيد أنه لم يتورع عن نهب المدينة. بيد أن عمارة المدينة تحركت بعدئذ ودبت الحياة في الحارات والأحياء الجديدة نتيجة لنشاط الحركة الاقتصادية، وكان أكثرها نشاطًا وثراءً حي بانقوسا وباب النيرب. وزودت الحارات الجديدة بمساجد كبيرة ترتفع فيها المآذن الرشيقة الشامخة، وعكس ذلك على مدينة حلب وحاراتها جمالًا أخّاذًا[١].

وقد برع عدد كبير من الحلبيين في فن العمارة والنحت والنقش، وقد شجعهم نواب حلب والسلاطين مما أسهم في رقي العمارة، وظهور الفنيين المهرة الذين أضفوا على فنهم على جدران القلاع والمساجد والدور والقصور لمسات فنية رائعة[٢].

ولا يمكن أن نغفل العبقرية المعمارية في الرسم والتنفيذ، حيث إن حارة مثل الجديدة تبين أن خطط الحارات كانت تخضع لتخطيط تنظيمي فائق الدقة، وتستخدم فيه الرياضيات، وتتحرى فيه الخواص الهندسية التي يراعي معها الجمال والتنظيم والتناسق. وتتخلل الحارات شوارع طويلة صماء تصلها ببعضها البعض، وأزقة جانبية بمثابة شرايين لها. وغالبًا ما تم رسم تلك المخططات قبل البناء، وروعي فيها بشكل رئيس أن تلبي حاجات الناس من أماكن للبيع واستقبال القوافل وأماكن العبادة، علاوة على حمامات وشبكة المياه والأسواق المتخصصة وما إلى ذلك من الاحتياجات الضرورية لسكان كل حارة تقريبًا. ودرست بعناية الحركة اليومية والكثافة البشرية في المنطقة السكنية ومناطق الأسواق والمرافق العامة؛ كي يُناسب ذلك اتساع الشارع. ولا ريب في أن هذا التوسع الكبير الذي ترتب عليه نشأة حارات جديدة لها أسواقها الخاصة ومساجدها

(١) عبد الفتاح قلعه جي: أحياء حلب وأسواقها، ٤٠-٤٤.

(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ الإسلام، ٦-٩٣.

الكبيرة، خفف من التمركز حول قلب المدينة، وحقق لتلك الحارات استقلاليتها، علاوة على أن التجمعات العرقية زادت من هذه اللامركزية، وتوفر في تلك الحارات نوعًا من الاكتفاء الذاتي[١].

ثانيًا: مساكن الطبقة الحاكمة

لم تعد قلعة حلب في العصر المملوكي حيًا ملكيًا على ما كانت عليه في العهد الأيوبي، وإنما تحولت القلعة إلى بناء حربي تقع مسؤولية حمايته على عاتق حامية عسكرية صغيرة، كما يعقد السلطان أهم اجتماعاته، وخاصة الحربية والاجتماعية في قاعة العرش بها، وهي قاعة مخصصة للاستقبال حلت محل قصر الملك غازي الذي هدمه تيمورلنك. وقد أحاطت الأحياء والحارات السكنية بالقلعة من كل الجهات، مما أفقدها الكثير من قدراتها الدفاعية[٢].

وباتت دار العدل مقرًا للاجتماعات التي يعقدها نائب حلب، وقد أعيد بناء دار العدل على مقربة من مكانها القديم في عهد الملك غازي، وأمامه أصبحت تمتد ساحة أسفل القلعة، وفيها نشأ سوق الخيل الذي تمركزت فيه صناعة السروج والأقواس والسهام وأنواع أخرى من المنتجات التجارية. وأخذت الحوانيت والمطاعم تكثر وتتسع لتحيط بالسوق، وقد عُمِّر هذا السوق بصورة تدريجية، وصار أكثر ازدحامًا لتأمين احتياجات فرسان الفرق المملوكية سواء من سكن منها حلب أم من تردد عليها في أثناء الحروب والغارات التي انطلقت من حلب أو للدفاع عنها

ولعل من أهم القصور التي شيدها الأمراء في النصف الثاني من دولة المماليك المعروفة بالبرجية، القصر الذي بناه الأمير جكم نائب حلب سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، وقد شيده فوق برجي مدخل القلعة، ولكن لم يكتمل تشييده وظل بلا سقف بسبب مقتل الأمير جكم في معركة ضد التركمان، وقد حرص الملك المؤيد شيخ على استكمال سقف ذلك القصر بالأخشاب سنة ٨٢٠هـ/١٤١٩م[٣]. ولعل مما دفع الأمير جكم إلى بناء هذا القصر بالرغم من إعراض غالبية نواب حلب عن بناء أية قصور أن الأمير جكم أعلن

(١) عبد الفتاح قلعه جي: أحياء حلب وأسواقها، ص ٤٥-٤٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٢، ص ٤١٣؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص ٤١٤.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٥٠؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص ١٠٨؛ أسعد الهاشمي: "قلعة حلب"، مجلة العمران، عدد ٢، ص ١٠.

نفسه سلطانًا؛ ولذا ربما أراد أن يتخذه مقرًا لسلطنته، ولكن لم يسعفه الوقت لتحقيق طموحه ولم يتم بناء قصره.

بينما برزت بيوت الأثرياء من الأعيان مثل التجار من بين مباني العامة، وذلك لأن الأثرياء تفننوا في بناء بيوتهم وأكثروا فيها من الحدائق، واستعملوا صهاريج المياه في أعلى بيوتهم، وكانت تلك الصهاريج تمتلئ بالمياه العذبة التي تصلها إما عن طريق قنوات المياه الممتدة إلى المدن أو عن طريق مياه الأمطار( ).

وفضلًا عن ذلك فإنهم استخدموا وسائل التدفئة في فصل الشتاء؛ وذلك لرفع درجة الحرارة في أروقة بيوتهم وحجراتهم، بينما تميزت بيوت شهيرة لبعض الأثرياء الحلبيين بوضعية خاصة في البناء( )، وعلى ما يبدو فقد سكن النائب وكبار الأمراء والموظفين بنيابة حلب في القلعة وغيرها من الأماكن التي خصصت للإدارة، وكان لبعضهم بيوت في القاهرة.

وقد أكد الغزي أن مساكن الحلبيين اتسمت بالرحابة وكانت تسمى الدار أو الصحن، وبلغت مساحة بعض مساكنهم مساحة ٤٠٠ ذراع مربعة، وقد ضمت غالبيتها إيوانًا في جهتها الجنوبية المتجهة إلى الشمال، وفي كل من جانبي الإيوان بيت يُعرف بالقبة. وربما توجد غرفة تُعرف بالمربع. ويوجد في المسكن الحلبي بالطابق الأرضي قبو يعرف بالمغارة، ويُهبط إليه بعدة درجات. ويوجد باتجاه الإيوان حوض تجري فيه المياه من قناة قريبة من الدار أو من خزان يُملأ من بئر الدار.

ويُوجد خلف هذا الحوض مصطبة في كل من جانبيها حديقة أشجار من الفصيلة الدائمة الخضرة والمرتفعة. وتبنى على هذه المصطبة عرائس الياسمين أو ما هو من فصيلته، وتقوم كل جهة من جهات الدار على مغاور معدة للمؤن. وقد اعتاد الحلبيون أن يجعلوا البيت من الصحن مستطيلًا وتعمل به عدة نوافذ كبيرة في جدرانه، ويعلو تلك النوافذ الكبيرة نوافذ أخرى صغيرة تُعرف بالطاقات( ).

واشتهرت بيوت حلب بأنها كانت تعمر لفترات زمنية طويلة، بحيث ظلت بعض البيوت قائمة لمدة خمس مئة عام إلى ما بعد انتهاء الحقبة المملوكية ومازالت عامرة. ولا ريب في أن مهارة البنائين الحلبيين

(١) ابن الحنبلي: در الحبب، جـ١ق ١ ص ٧ ٩؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٤ ١.

(٢) ابن الحنبلي: در الحبب، جـ ق ١ ص ٧ ٩ ٩ ٩؛ السخ ي: التبر المسبولص ٠ ٣ ١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٢ ٤ ٣٤ ٢.

(٣) الغزي: نهر الذهب، جـ ص ٤ ٨- ٦ ٨.

وإتقانهم كان له دور كبير في إتقان فن البناء، وذلك أن تربة حلب المعدة للبناء لزجة وكلسها قوي، كما أن حجارتها جيدة وصلبة. ويصل عدد أنواع الحجارة المستعملة للبناء في مساكن حلب إلى عشرة أنواع، ولكل نوع منها لون ومكان مُخصص لبنائه، وتتمثل تلك الأنواع في: البخيت المائل للصلابة، واللبن، والرخام الأبيض والأصفر والأسود والسماقي والمرمري، وحجر السقوف التي تصنع منه الأرجاء[١].

ويُستدل من رواية أوردها المقريزي عن حجارة حلب على مدى أهمية الحجارة الحلبية وشهرتها الواسعة؛ فقد أشار إلى طلب السلطان الملك الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) ألفي حجر أحمر، من نائب حلب علاء الدين الطنبغا وأمره أن يرسلها إلى مصر سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م[٢].

واشتهر البناؤون في حلب بالمهارة في البناء، حيث ظهرت المساكن الحلبية بشكلها الأنيق، حتى أنها تفوقت في ذلك على دمشق. ويعود السبب في ذلك إلى استعمال الحجارة في بناء البيوت والدور. وقد عدد ابن الشحنة ٢٨ دارًا اعتبرها من الدور العظيمة في مدينة حلب، وذكر من بينها دار بني العديم ودار بني الشحنة التي اشتملت على بحيرة وحديقة وسبع قاعات داخل باب كبير، كما أشار أيضًا إلى دار كل من الكلتاوي ودار المهمندار بصفتهما من البيوت العظيمة في حلب[٣]. وتعكس أسماء هذه الدور أن أصحابها ينتسبون إلى عائلات كبيرة وثرية في حلب، سواء من الناحية العلمية أم من الناحية الاقتصادية والاجتماعية[٤].

وتصل المياه العذبة إلى غالبية بيوت أثرياء حلب وأعيانها من خلال قناة مائية تسمى قناة حيلان نسبة إلى القرية التي تنبع منها، والتي تبعد عن حلب حوالي ثمانية أميال، واشتهرت تلك القرية بعيون الماء بها. وقد قام الملك الظاهر غياث الدين غازي بعمارة تلك القناة على يد الصناع المهرة سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م، وأوصل الماء إلى أكثر دور حلب، ووقف عليها أوقافًا لعمارتها حتى أتمها. وظلت القناة موجودة طيلة الحقبة

(١) الغزي: نهر الذهب، جـ١، ص ٦ ٨.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢ ١ ٢.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣ ٤ ٤ ٤ ٢.

(٤) الغزي: نهر الذهب، جـ٢، ص ٣ ٨؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣ ٤ ٤ ٤ ٢؛ جورج داود: مدينة حلب ص ٨ ٨ ٩٠.

المملوكية ولم تنقطع مياهها عن بيوت حلب ودورها وحاراتها سوى حينما دمرها تيمورلنك في بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولكن أُعيد إصلاحها مرة أخرى سنة(٨٣٣هـ) -(١٤٢٩ – ١٤٣٠م).( ).

حقًا وصلت مياه قناة حيلان إلى غالبية بيوت حلب، ولكنها لم تصل إلى البيوت المرتفعة فاستعمل أربابها القرب المصنوعة من جلد الماعز لنقل المياه بواسطة الحيوانات أو على أكتافهم، وكان بعضهم يجمع مياه الأمطار في صهريج( )، وحفر بعضهم الآخر أبارًا لجمع الماء من نهر قويق( ) أو من مياه الأمطار، وكانت في خانات حلب وبيوتها تلك الصهاريج والآبار لتلبية حاجة سكانها من الماء

ثالثًا: مساكن العامة

غلبت الحارات على سكنى العامة في مدينة حلب، والحارة مصطلح يعني كل منطقة أو محلة تقاربت المنازل بها، وهي أكثر قربًا في شكلها وتخطيطها من القرى الصغيرة داخل المدن. وتضم الحارة جماعات من الناس تربطهم علاقات جوار متينة ولهم أسواقهم الخاصة. وقد قسمت المدن الرئيسة في نيابة حلب إلى حارات. وتضم كل حارة من حارات حلب أسواقًا وشرطة لحفظ الأمن والنظام ودور الناس ومساجد وكتاتيب، بالإضافة إلى مكاتب موظفي الضرائب، كما يرأس الحارة رئيس أو عريف يُسمى شيخ الحارة الذي يُعينه

(١) ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ/١٢٦١م): بغية الطلب في تاريخ حلب، جـ١٣، ص٤١؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١٤١؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ١ق٢، ص٤٣٤+٤٤١؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص٦٢١٠.

(٢) اعتمد بعض الحلبيين في الشرب على تخزين مياه الأمطار في حفرة مهيأة تحت الأرض تدعى صهريج وتستخدم بعض التقنيات لتجديد هواء الصهريج باستمرار. وقبل فصل الصيف ينظف صاحب البيت الأسطح والصهريج، فإذا هطلت الأمطار تسربت المياه إلى أنابيب تنتهي إلى الصهريج. وغالبا ما تكون مياه الأمطار مالحة وتستعمل لأعمال البيت وسقاية الزرع. أما المصدر الآخر للشرب فممثل في مياه القناة التي تمر بالبيوت والتي تعتبر من الموارد العامة للشرب في الأحياء والحارات. انظر: عبد الفتاح قلعه جي: أحياء حلب وأسواقهط٨٠٤.

(٣) نهر قويق: نهر يجري في المنطقة الشمالية من بلاد الشام وخاصة سوريا، وينبع هذا النهر من جنوب تركيا من هضبة عينتاب، ويعتبر نهر Akpınarالقادم من مدينة كلس التركية أحدر وافده الرئيسة، ويبلغ طوله١٢٩كيلو متر وينتهي في قرية جزاريا في سبخة المطبخ جنوب حلب والتي تعتبر محمية طبيعية مهمة للعديد من الطيور المهاجرة. وقد توقف عن الجريان إلى سوريا عام ١٩٥٠بسبب إقامة سد من قبل الحكومة التركية، وحديثا قامت الحكومة السورية بتحويل قناة من نهر الفرات لتصب في مجراه بقوة ضخ ٥متر مكعب في الثانية، وتعود الحياة إليه من جديد، الأمر الذي أعاد الحياة للزراعة في منطقة جنوب حلب. وكان النهر غزير المياه لدرجة أنه أدار عددًا كبيرًا من الطواحين المائية في حلب، وكانت آخرها قائمة على النهر مقابل باب أنطاكية، وكان يسقي بساتين حلب الشهيرة والأراضي الواقعة على جانبيه، أما الأراضي المرتفعة عنه قليلًا فكانت تسقى بواسطة النواعير. انظر: ياقوت الحموي(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي): معجم البلدان، جـ٤، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص١٧٤

نائب السلطنة في حلب. أما مهام وظيفته فتنحصر في الحفاظ على أمن المدينة، ومنع الفوضى وحوادث الشغب والسرقة[١].

وقد كثرت الحارات التي نشأت في حلب في العصر المملوكي حيث بلغ عددها ست وثلاثين حارة داخل مدينة حلب، وأربع عشرة حارة خارجها[٢]، ويقف في صدارة تلك الحارات: حارة الغربي والذهبي والزقاق المبلط، وباب النيرب، والفضيلة وباب المقام وطامع الطنبغا، والحوارنة والتركمان وساحة بزي، والأسفروس، واليهود والفرج والمصابن والجنان والعقبة وجب الأسدبحي وباب أنطاكية، وقلعة الشريف وباب قنسرين والحلوم والبيمارستان والسهلبة وعيشة وسوق الهوى وسوق السقطية وبني شداد وطوقان والبياضة، والمعضلية وباب النصر والدباغة واليهود وباب الجنان وجب أسد الله، وغيرها من الحارات التي كثرت داخل المدينة[٣].

أما حارات ظاهر المدينة أو خارجها فلم تكن بتلك الكثرة، ومنها حارة المقام، والعرصات والأكراد والهزازة والنصارى والزجاجين والكلاسة والمغاير والمشارقة[٤].

ولعل مما يُلحظ أن أسماء الحارات السابقة ارتبط بمواقع معينة أو بفئات دينية أو اجتماعية أو عائلات أو فئات عرقية أو حرفية، وهذا يعني أن العامة كانوا يجتمعون مع بعضهم البعض للسكنى في أماكن متقاربة، أو أصحاب المهنة أو الحرفة الواحدة. وربما نُسبت الحارة إلى صناعة أو حرفة معينة، أو إلى أبواب الحارات، أو إلى أسماء أشخاص أو عائلات، وربما نُسبت إلى أهم الأماكن البارزة فيها[٥].

وقد تم توزيع هذه الحارات بشكل يضع كل فئة دينية أو عرقية أو مهنية في حارة مما يزيد في التجانس الاجتماعي والترابط الاقتصادي والديني بين السكان؛ فوجود الأكراد أو التركمان في حارة واحدة يساعد

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٤ ٢.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٤ ٢ ٤ ٢؛ منصور معوض: حمامات حلبص ٤ ٤.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٤ ٢ ٤ ٢؛ الغوي: نهر الذهب، جـ ٢ ص ٧ ٩ ١، ٣٦٠، ٣٦٥، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٩٠؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ١ ص ٣ ٦؛ زياد المدني: مدينة حلبص ١ ٠ ٢.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٢ ٤ ٢؛ الغوي: نهر الذهب، جـ ٢ ص ٥ ٦ ١، ٢٨٨، ٤٦٢، ٤٦٦.

(٥) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٢ ٥، ١٣٩، ١٤١ ٤ ٢ ٤ ٢؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ ٢ ص ٣ ٦؛ الغوي: نهر الذهب، جـ ٢، ص ٥ ٦ ١؛ زياد المدني: مدينة حلبص ١ ٠ ٢.

على تقوية العلاقات الاجتماعية بين سكان هذه الحارة أنفسهم، ويزيد الترابط بينهم وبين سكان الحارات الأخرى، كما يؤدي وجود الساسة أو الزجاجين في حارة واحدة إلى خدمة مصلحة الفرد والمجتمع، حيث يستطيع الشخص الحصول على ما يحتاجه من مكان معين. ومن جهة أخرى فإن وجود اليهود والنصارى في حارات خاصة بهم يُقوي من الشعور الديني لديهم، ويزيد في ترابطهم مع بعضهم ومع الآخرين[1]. وقد سكن الموارنة والأرمن في الأجزاء الشمالية والغربية من المدينة، حيث قام تضامن بين بعض الهويات الدينية في تلك الحارات الخاصة بهم، ولكنها متاخمة للشوارع الإسلامية. وتركزت حارات التركمان وأحيائهم خارج الأسوار، كما كان فيها حي للأكراد وشارع للفرس. وحافظ المهاجرون من حران على شارعهم الخاص في حلب مثلما حافظوا على هويتهم من قبل في دمشق.

وعلاوة على ذلك فثمة أسس اقتصادية يبنى عليها تجانس أحياء معينة، حيث سُميت بعض الأحياء بأسماء أحد الأسواق أو إحدى الحرف. وغالبًا ما كانت تعطي المهنة المشتركة هذه الأحياء صفتها الخاصة، بحيث جذبت مهنة الطحانين وأشغال الكلس وأفران الآجر وأعمال الصباغة والدباغة العمال إلى أحياء منفصلة في حلب؛ وذلك لأنهم يحتاجون إلى الماء والمكان، بينما احتاج سائر أهل المدن إلى الحماية من الفضلات الضارة بالصحة والضوضاء والروائح المؤذية التي تنتج عن حرفهم وصناعتهم؛ ولذا كان تجمعهم في حارات خاصة بهم أسلم وسيلة لإراحة الطرفين. بينما تخصصت الأحياء الواقعة إلى جانب الطرقات الرئيسة في العناية بأصحاب القوافل والمسافرين وبوسائل النقل وتسويق الحيوانات والحبوب، وتاجرَ سكانها بالسلع والخدمات التي يحتاج إليها البدو والفلاحون، وتطور تخييم البدو إلى إقامة مناطق دائمة لتجارة القوافل.

ولم يكن تجانس الطبقات الاجتماعية بين سكان هذه الحارات هو أساس التضامن، حيث كان لبعض المناطق المجاورة حظوة لدى الأثرياء بسبب نفعها الصحي، أو لقربها من الحصن والشؤون العامة، ولذا حصلت هذه المناطق على ميزة الطبقة العليا، غير أن أي طبقة لم توفق في السيطرة على أي منطقة. وبالرغم من نزوع الأمراء إلى التجمع قرب الحصن وفي الأحياء الرئيسة الكبيرة والراقية فإن هذه الأحياء كانت بمثابة مراكز للأسواق التجارية والمؤسسات الدينية، وكان سكانها خليطًا من التجار والعلماء والحرفيين والموظفين، ومالت الأحياء المركزية إلى أن تكون أكثر ثراء. وقد عاش غالبية العامة في تلك الحارات في بيوت متواضعة

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ١ ٤ ٤٢ ٤٢؛ جورج فريد ط ود: مدينة حلبص ١ ٨.

وبسيطة، وفي الحارات التي تقع خارج الأسوار، واحتفظت تلك الحارات بصفات القرى أو المستوطنات الأخرى التي شُيدت حولها وحشدت أكثر العناصر شغبًا وأقلهم اندماجًا، ولم يعش بها لأجل ذلك أي الأعيان. وكثيرًا ما تعرضت لتعدي الحكومة من أجل توظيفها في طريق جديد أو توسيع طريق قديم أو لإقامة بناء عام(١).

رابعًا: الزلازل وأثارها المدمرة على العمارة الحلبية

لاشك أن الزلازل من الكوارث الطبيعية التي كان ولا يزال لها أسوأ الأثر على النشاط العمراني كله، فقد تسببت هذه الزلازل في تدمير الجسور، والمنشآت التجارية من قياسر وخانات، واقتلاع كثير من أشجار النخيل وما شابه. وقد تعرضت حلب لعدة زلازل مدمرة مثلها مثل بقية بلاد الشام وكان لها آثار كارثية على العمارة الحلبية، ومن تلك الزلازل التي تعرضت لها زلزال سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٣م وقد تأثرت بها مدينة حلب وخصوصًا منبج والراوندان، وتبعتها هزات زلزالية أخرى عديدة هدمت أسوار حلب وجوامعها مما اضطر الحلبيين الفرارَ إلى الفلاة(٢). وقد ترتب على ذلك وفقًا لما أشار إليه ابن الوردي اضطرار أهل حلب إلى الفرار من المدن فقل ساكنيها(٣).

ويُعد زلزال عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م من أخطر تلك الزلازل التي أضرت الأبنية والعمارة في حلب، فتهدمت المباني والمساجد وما سوى ذلك، ثم وقعت هزة أرضية أخرى بعد خمس سنوات عام ٨١١هـ/١٤٠٨م ولكن لم نقف على آثارها؛ نتيجة لصمت المصادر المعاصرة، ولكن لا ريب في أنها أضرت بالأوضاع الاقتصادية والسكانية، حينما يُعاد بناء تلك الأبنية المتهدمة، وما ينتج عن ذلك من خسائر مادية،

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٢ ٥، ٢٤١ ٢٤٢، الغو ي: نهر الذهب، جـ ٢، ٩٧ ١، ٣٦٥، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٩٠؛ الهاشمي: قلعة عاديات حلبص ٢ ١.

(٢) ابن الوو ي، عمر بن مظفر الدين بن محمد بن أبي الفوارس (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): تتمة المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥هص ١ ٤ ١؛ ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ١ ٢.

(٣) ابن الوو ي: تتمة المختصص ١ ٤ ١.

ناهيك عن الخسائر البشرية في الأرواح( ). ولا شك في أن تكرار وقوع تلك الزلازل كان له آثار سلبية في النواحي العمرانية، خلاف النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

(١) المقريزي: السلوك، جـ٤، ص ٠ ٨.

الفصل الثاني

الحياة العامة في المجتمع الحلبي

تنوعت مظاهر الحياة العامة في المجتمع الحلبي، من حيث الأمور الخاصة والعامة، ومن حيث الاهتمام بالفرد والمجتمع، ومن هذه المظاهر:

أولًا: العادات والتقاليد:

– الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة

لاشك أن الأعياد والاحتفالات مؤشر مهم وصادق على مدى تقدم المجتمع ودرجة ما يتمتع به من استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي( ). وقد اتصفت الحياة الاجتماعية في عصر سلاطين المماليك بالمبالغة في إحياء الأعياد الدينية والقومية، ففي الأعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتبادلون التهاني، ويقيمون الولائم ويتصدقون على الفقراء وتظهر عليهم البهجة السرور.

وربما جاءت هذه الاحتفالات بالأعياد مصحوبة ببعض المواكب مثل الاحتفال بركب الحاج في خروجهم من حلب إلى مكة، وقد حرص نواب حلب على خروج ركب الحاج من نيابة حلب كل عام شأنها شأن كل النيابات الكبرى في السلطنة المملوكية. ويرأس ركب الحاج أمير من كبار الأمراء في حلب ربما برتبة طبلخانة، وقد خرج الأمير سيف الدين طقتمر( ) على رأس ركب الحاج سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، واعتاد الركب أن يخرج من حلب في شوال من كل عام( ).

وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلي( ). وفي كل الأحوال يفرح النأس به ويحتفلون بأيامه ولياليه. وقد تعلَّق الناس بهذه الاحتفالات وجعلوها من شعار السلطنة، بل جعلها بعض المؤرخين ميزة يتميز بها سلطان عن غيره.

---

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٨ ٢٨.

(٢) الأمير سيف الدين طقتمر الأحمدي(ت ٧٤٧هـ – ١٣٤٦م، النجوم الزاهرة (١٠/ ١٥١)

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٢ ص ٣٥٤ ٣٦٤؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٣٧٨، ٧٩٧.

(٤) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٨ ١٣.

ويغالي أصحاب الحوانيت والبيوت التي يمر بها ركب الحاج في تزيينها، في مقابل العائد المادي الذي يعود عليهم من تأجير أسطحها للناس الذين كانوا يتنافسون على موضع قدم لمشاهدة الاحتفال. وكان الباعة الجائلون أيضًا يستعدون استعدادًا كبيرًا لما تدرُّ عليهم هذه المناسبة من أرباح؛ لأن الناس كانوا يبيتون خارج بيوتهم في انتظار ركب الحاج، وكان لابد لهم من شراء طعامهم وشرابهم من السوق.

ويستعد السلطان لإتمام هذه الاحتفالات في وقت مبكر يبدأ في جمادى الأولى أو الآخرة، ولم يدخر المماليك وسعًا في إخراج احتفال الحج في شكل يشد الانتباه، وظهر ذلك في ما عرف بـ «عفاريت المحمل»، وهم جماعة من الأجناد يركبون خيولًا بالقلاقل والأجراس بقصد إسعاد العامة، فضلًا عن الترغيب في أداء فريضة الحاج( ).

١

وكان على الأمراء في الاحتفالات السلطانية أن يقدموا التحف والهدايا إلى السلطان( ). أما نائب حلب فكان يشارك بالركوب في الموكب في يوم الاثنين والخميس من دار النيابة إلى سوق الخيل ويتوجه إلى مكان يُعرف بالميدان، ويعرف بالقبة أيضًا وكان على مقربة من المدينة ثم يعود من حيث ذهب وقد وقف الأمراء بانتظاره بسوق الخيل وكان يُسلم على الأمراء وهو سائر فيسلموا عليه وهم وقوف في أماكنهم لا يتحركون ولا يبرحون عنها( ). ويمر النائب راكبًا حتى يأتي على مقعد مرتفع على الأرض أو دكة صغيرة من خشب فيرتجل على جانب المقعد ويجلس على الدكة. ويجلس حاجب الحجاب على مرتبة معدة للجلوس ثم يجلس على يسار النائب قاضي القضاة الشافعي، ثم الحنفي ثم يجلس الوزير أمين ناظر مملكة حلب ويجلس كاتب السر أمام النائب على القرب منه. وهكذا يجلسون حول النائب مصطفين ثم يمر السماط( ) ويأكل الأمراء ومن في معناهم( ).

٢

٥

أما عاداتهم وتقاليدهم في المناسبات الدينية، وخاصة الإسلامية طالما غلب المسلمون على سكنى حلب فإنهم اعتادوا أن يفطروا في الأول من المحرم بالحلويات، وكانوا يتصدقون على الفقراء. واعتاد الحلبيون

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٠٧-٥٠٨.

(٢) البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرات الأملاك، ص١٤٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٢٠٠-٢٠١.

(٤) السماط هو: مأدبة حافلة يعقدها خلفاء وسلاطين العرب على نمط لا مثيل له عند سائر الشعوب.

(٥) محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، ص٢٠٩-٢١٠.

التوسعة على أولادهم وأسرهم في يوم عاشوراء بإعداد الطعام الكثير والمتنوع وما سواه، أما في ذكرى ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم فكان الحلبيون يجتمعون في الجامع الكبير في حلب ويسمعون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ليل نهار إلى آخر شهر ربيع الآخر[١].

ومن عادات أهل حلب الاحتفال بشهر رمضان، ويبدأ باستطلاع هلال الشهر الجديد، وكانت العادة آنفا أن يجتمع فقهاء المدينة ووجهاؤها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشهر شعبان بدار القاضي، ثم يركبون جميعًا ويتبعهم جميع من في المدينة من رجال ونساء وصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فيترقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشموع والمشاعل والفوانيس. ويوقد أهل الحوانيت حوانيتهم بالشمع ويصل الناس مع القاضي إلى داره، ثم ينصرفون وهكذا في كل عام، ولا شك أن هذا الاحتفاء برؤية هلال شهر رمضان كان متكررًا في جميع أنحاء البلاد، وإن كان ثمة اختلاف طفيف من بلد إلى آخر[٢].

ولأهل حلب عادات أخرى لا تختلف عن بقية العادات والتقاليد المنتشرة في المجتمع الإسلامي عامة والمجتمع الشامي بخاصة، ولذا فقد كان بعضها مألوفًا في بعض المدن الإسلامية الأخرى آنذاك، ومن تلك العادات أيضًا تقاليد الزواج؛ حيث لم يُعتد برأي الفتاة في زوجها ويُكتفى برأي وليها أبيها خاصة ، وقد رفضت إحدى النساء الحلبيات زوجها بعد عقد القران سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م ودفعتها الحيلة إلى تكفير نفسها ظنًا منها بأنها لا تحل لزوجها بتلك الطريقة[٣]، فأحضرت إلى دار العدل[٤] وعُوقبت على رفضها زوجها، وعلى كفرها بالله عز وجل[٥].

---

(١) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة،١٩٧٧م، ص ٤٠ ـ ٤١، ٢٤٥.

(٢) قاسم عبد قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٩٠ ـ ٩٢.

(٣) هذه الحيل وما شابهها التي لا تتناسب والشريعة الإسلامية تبين جهل بعض الناس بالأحكام الشرعية وما يترتب على هذه الحيل من عقوبات في الدنيا ، وإذا تأثر بها المعتقد فيكون لها أيضا الجزاء في الآخرة .

(٤) دار العدل: هي المكان الذي اعتاد قضاة حلب على عقد جلساتهم القضائية به مرتين أسبوعيًا، وقد اهتم نواب حلب بتطوير دار العدل حتى تتمكن من أداء وظيفتها. وكان لدار العدل مفت خاص بها، وفي أحايين استثنائية كانت تعقد جلسات دار العدل في حديقة نائب حلب لمناقشة بعض القضايا وخاصة القضايا المذهبية. انظر: ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ورقة٣٦٧؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، جـ٣، ورقة ٧ ـ ٤.

(٥) أبو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٦ ـ ٤١.

ودلت المصاهرات التي عقدت بين بعض التجار والأمراء على وجود نوع من الترابط بين طبقة الحكام وطبقة العامة. وأما عاداتهم في تجهيز العروس فقد انفرد أهل الضواحي الحلبية بفرش العرس بقطيفة ليلة عقد القران بقصد التيمن والفأل الحسن[1]. وارتبط بعادات الزواج ما كان يتبعها من ولادة وما إلى ذلك، وما تحت أيدينا يشير إلى تردد النساء اللائي أنجبن حديثًا على الحمامات العامة من وقت لآخر قبيل الولادة وبعدها، وارتبط بذلك أيضًا طهور الأولاد، فكانوا في طهور أولادهم يلبسون لبس السلاح؛ كي يكونوا في خدمة المطاهرين[2].

وكما تبدأ الحياة بالولادة فإنها تنتهي بعادات الوفاة حيث اعتادت نسوة من حلب على النواح على الميت، بينما يتقدم الجنازة المؤذنون، وهم ينشدون المدائح النبوية. ويجتمع الحلبيون بعد الدفن رجالًا وأطفالًا في المسجد، وهم يكررون كلمة التوحيد. وحينما يحل اليوم الثالث للوفاة يتوجه أقارب الميت إلى القبر؛ لنثر الزهور وماء الورد على القبر، ويصطفون في حلقات؛ كي يذكروا اسم الله، ثم يجتمعوا مرة أخرى في اليوم السابع ومرة غيرها في الأربعين، وفي الذكرى السنوية، وهكذا يفعلون لإحياء ذكرى من رحل عنهم بهذه الصورة الدورية[3].

ومثلهم مثل غيرهم من المجتمعات الشامية فقد اعتقد بعض الحلبيين في بركة الأولياء وقدرتهم على شفاء الأمراض؛ ولأجل ذلك ترددوا بمرضاهم من البشر والحيوانات على أضرحة الأولياء وقبورهم وفي اعتقادهم أنهم سيساعدونهم على الشفاء[4]. ومن القبور التي ترددوا عليها قبر إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن حبيب (ت:٨٤١هـ/١٤٣٨م)، وعبيد الله بن عبد الرازق بن عبد السلام بن عبد الواحد الأسدي وغيرهما[5].

(١) ابن الحنبلي: در الحبب، ج١ق ٣ص ٠ ٤ ١؛ أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي ص ٢ ٥ ٢.

(٢) الطباخ: أعلام النبلاء، ج٣، ص ٠ ٥.

(٣) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي ص ٤ ٥ ٢ ٥ ٢.

(٤) سبط بن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ورقة ٦ ١- ٧ ١.

(٥) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ورقة ٨ ٣.

ولا ينفصل عن ذلك اعتياد بعض الحلبيين على التردد على مساجد بعينها تبركًا بالدعاء، مثل التردد على مسجد بسوق الحدادين ومسجد باب العراق وغيرهما من المساجد الحلبية وغيرها[١]. واعتاد خاير بك نائب حلب على التردد على أحد مشايخ حلب؛ كي يدعو الله أن ينزل المطر[٢]. وعلى ما يبدو فقد ترتب على وجود هؤلاء الشيوخ – واستعداد الناس للتعامل معهم – وجود المنجمين الذين يلبون حاجة الأهالي[٣]. وربما بعض النواب لاستطلاع الأمور، وقد فعلها الأمير يشبك نائب حلب حينما استشار أحد المنجمين في خروج الجيش إلى الحرب سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٥م[٤].

– الملابس

أولى المماليك عناية فائقة بالملابس التي تحاك وتزين بواسطة الخياطين الرسميين والخلعيين الذين يصنعون الخلع المملوكية. وقد نهض المماليك بصناعة المنسوجات التي كانوا يصنعون منها ملابسهم، وخاصة مع مبالغتهم في ارتداء الملابس الثمينة. وقد اختلفت ملابس المماليك والأمراء عن الأجناد، وتغيرت وتطورت كثيرًا، وأدخل عليها بعض السلاطين التحسينات؛ فهناك ثياب خاصة بالخدمة السلطانية أي خاصة بمن يعمل في بلاط السلطان، وأخرى مرتبطة بالسفر وثالثة متعلقة بالسحرات والعيد وغير ذلك[٥].

وحصل الأمراء والمماليك على الكسوة بالإضافة إلى الجوامك[٦] والنفقات، وفي الغالب كانت توزع الكسوة عليهم سنويًا، غير أنهم ربما أخذوها على دفعتين في السنة للصيف والشتاء[٧].

---

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٩ ٧، ١ ٨.

(٢) الغزي، نجم الدين الغزي (ت:٩٦١هـ/١٦٥١م): الكواكب السائرة في أعيا ن المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليط ن جبور، ج ١، بيرو وت، ١٩٤٥م، ص ٣ ٨.

(٣) عندما أدخل التصوف في الإسلام ،أد ى ذلك الى تغيير أمور في العقيدة ، منها التوسل والدعاء بغير الله ، وهذا شرك بالله ، ويؤ ي إلى إحباط العمل ، وهذا من جهل بعض المسلمين بأحكام دينهم مما أد ى الى تسرب هذه الأمور الشركية الى أعمالهم ،فيجب على علماء الأمة توضيح خطورة هذه الأعمال ، والنصح للمسلمين .

(٤) سبط بن العجمي: كنوز الذهب، ج١، ورقة ٨.

(٥) القلقشند ي: صبح الأعشى، ج٣ص ٩ ٣ ٠ ٤؛ محمود نديم: الفن الحربي ص ٣ ٤.

(٦) الجوامك : هي كالعطاء إلا أ ن العطاء سنو ي والجامكية شهر ي

(٧) السيد الباز العريني: المماليك، ص ٩.

وعند ذكر الملبوس لدى الخاصة والعامة فقد كان لكل طائفة قماش لا يوافق طائفة أخرى. حتى إنه إذا لبس أحد من طائفة قماش أحد من طائفة غيره خرج من الهندام وصار مُنسوبًا إلى تلك الطائفة. وقد كثرت الطوائف فكانت تزيد عن مئة طائفة، لكل طائفة حرفها وعملها الخاص بها. وكان لنوع القماش والملبوس أوقات محدودة لا يمكن لبسها في غير هذا الوقت، مثل ثياب الخدمة التي لا تلبس في غيرها، وكذلك ثياب السفر وثياب سرحات الصيد وغيرها[١].

ويختلف الحال في اللباس باعتبار مواضع اللبس من البدن فإما بتغطية رؤوسهم، فقد شاع في الدولة الأيوبية ارتداء كلوتات[٢] صفراء بغير عمائم، وكانت لهم ذوائب شعر يلبسونها خلفهم[٣]، وكذلك كانوا يلبسون الكندات[٤] وهي لباس للرقبة تُشد الكلوتة التي فوق الشعر وتمنعها من السقوط أو الحركة، وظل ذلك متبعًا حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون.

وقد أخذت طريقة لبس الكلوتة أشكالًا مختلفة وتغير لونها بالتبعية[٥]، فلما كان عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فإنه غير لونها من اللون الأصفر إلى اللون الأحمر، وأمر بالعمائم من فوقها[٦]. وفي عصره كان للكلوتة شأن عظيم من الناحية الرسمية، كما أصبحت معروفة كلباس رأس للأمراء. وفي عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون استحدثت العمائم الناصرية، وكانت عمائم قصيرة حتى لا تعوق الجندي في أثناء القتال[٧].

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤١٠، ٤١٤؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة الكشف المماليك، ص ١٨.

(٢) الكلتات: جمع كلتة وهي طاقية صغيرة من الصوف ملونة بالقطن. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤١٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٩ ٣.

(٤) الكندات: جمع كلندة وهي لباس الرقبة التي تربط من تحت الدقن لمنع الكلوتة التي فوق الشعر من الحركة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٠- ١ ٤.

(٥) محمود نديم أحمد فهيم: الفن الحربي للجيش المصري، ص ٤ ٤.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٠ ٤.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢ ٤.

وأصبح لبس العمائم أمرًا شائعًا حتى صار نزعها وتغييرها من الأمور التي تُلحق بفاعلها العار، كما ظهر أيضًا في العصر المملوكي لباس آخر للرأس عُرف باسم الشربوش( )، وكانت له المكانة الأولى[1] إذ يعتبر بصفة خاصة الطابع المميز للأمير. وقد وصف الشربوش بأنه أشبه ما يكون التاج، ويبدو كما لو كان مثل الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة( )، أما النوع الثالث من أنواع لباس الرأس فممثل في الطافية (الطاقية) وجمعها طوافي (طواقٍ)، وكانت تُشبه الكوفية وبغير عمائم، وقد ارتداها الرجال والنساء على حد سواء.

وثمة لباس رابع للرأس لطالما اهتم المستشرقون بأمره وهو عبارة عن قلنسوة حمراء، وأُشير إلى أنه كان لباس رأس للطبقات الدنيا، ولكن تم منع الفلاحين من لبسه سنة ٨٤١هـ – (١٤٣٧ – ١٤٣٨م)، وبعد مضي بعض الوقت أصبح طابعًا مميزًا للزي العسكري الجركسي( )[3].

أما ثياب أبدانهم فيلبسون الأقبية التترية والتكولات فوقها ثم القباء الإسلامية فوق ذلك، ويُشد عليها السيف من جهة اليسار والصولق وكذلك من جهة اليمين( ) فكانت أقبية المماليك أقبيَة تترية وكانت خفيفة الأكمام ومصنوعة من مختلف أنواع الأقمشة. ويذكر ابن شاهين عن زيهم أنه اختلف من طائفة إلى أخرى حتى بلغ المئة، وذلك على عكس ما يقال إن لبس سلاطينهم أو أمرائهم أو خدمهم واحد( ).

"أما تشاريف أرباب السيوف فإنها على طبقات الأمراء ومكانتهم، ويتميز أعلاها باختصاصه بالأمراء المقدمين من نواب وغيرهم، وهؤلاء يرتدون أطلس أحمر بطرز زركشي، مفري بسنجاب، وتحته قبة أطلس أصفر، وكلوتة زركشية بكلائب ذهب، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض، مرقومًا بألقاب

(١) الشربوش أو الطربوش: لباس الرأس الحلبي، وقد انقرض لأن مثل غيره من الأردية الحلبية، لونه أحمر وله شرابة تكون إلى الخلف، وكان له سوق خاص هو سوق الطرابيشية تباع فيه الطرابيش وتكوى، وهو لباس الشباب والشيوخ وجد وا في لباسه فائدة فهو يقي وسهم من وهج الشمس صيفًا ومن البلل شتاءً. ومن ألبسة الرأس الحلبية الأخرى: الزبتاية وهو طربوش يلف عليه قطعة قماش مطرزة وضيقة كالشال يلبسها الشيوخ، والعرقية وهي عبارة عن قبعة بيضاء توضع عليها الحطاطة التي تتدلى على الكتفين، واللفة أو العمة وهي نوعان: بيضاء يضعها علماء الدين وخضراء يضعها أصحاب الطرق الصوفية، وهي إما أن تلف على الطربوش أو القبعة. أما الكولاه فهي بمثابة طربوش طويل من اللباد يضعه درويش الطريقة المولوية أما الشيخ فيلبس الستار. وهناك أيضًا البريم والحطاطة وهي عبارة عن لباس للرأس في بعض أحياء حلب ذات الصبغة العشائرية مثل باب النيرب وما سواه. انظر: عبد الفتاح قلعه جي: أحياء حلب وأسواقها ص ٩٠ – ١٠٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٤٢٣؛ محمود نديم: الفن الحربي ص ٤ – ٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٤٢١؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢ ص ٤٢ – ٤٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢ – ٤.

(٥)القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣ ص ٥؛ محمود نديم: الفن الحربي ص ٤ – ٦.

السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملون ومنطقة ذهب مركبة على حاشية حرير تشد في الوسط. وتختلف حالة المنطقة بحسب المرتبة، وقد زاد كبار النواب كنائب الشام تركيب زركش على الفوقاني وشاش حرير سكندري مموج بالذهب ويُعرف بالمتمر"([1]).

"ودون ذلك من التشريف أقبية قردوش من عمل الإسكندرية ومصر والشام، مجوخ، جخات مكتوبة بألقاب السلطان وجخات صور وحوش وطيور صغيرة، وجخات ملونة مموجة بقصب مذهب يفصل بين جخاتة نقوش يركب على القباء الزركشي وعليه السنجاب والقندس"([2]).

"أما القضاة والعلماء فيلبسون العمائم من الشاشات الكبيرة للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذوائب تلحق قرقوس سرجه إذا ركب، ومنهم من يجعل عوض الذوائب طيلسان الفائق، ويلبس فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلة، مفتوحًا فوق كتفيه بغير تفريج. ويتميز قاضي القضاة الشافعي والحنبلي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره وليس منهم من يلبس الحرير، ولا مغلب فيه من الحرير، وإن كان الوقت شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطي، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز"([3]).

ويرتدي أرباب الوظائف الدينية الفراج المضاهي لفراجي العلماء وربما لبسوا الجباب المفرجة من ورائهم. أما ما يُلبس في أرجلهم ففي الصيف يلبسون الخفاف البيض العلوية، بينما يلبسون في الشتاء الخفاف الصفر من الأديم الطائفي، ويشدون المهاميز المسقطة بالفضة في القدم من الخلف. وبالنسبة للملبوس إذا كان في فصل الصيف كان جميع القماش من الفوقاني وغيره أبيض. وإذا كان فصل الشتاء كانت فوقانياتهم ملونة من الصوف النفيس والحرير الفائق، تحتها فراء السناجب. ويلبس كبار الأمراء السمور والوشق والقاقم والفنك ومعظمهم يلبس المطرز على الكمين([4]).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٠٣ ٤٠٢؛ محمود نديم: الفن الحربي ٤٠٦.

(٢)القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣ ٤٠٥.

(٣)القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣ ٤٠٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ص ٣ ٤٠٤.

فزي المماليك مؤلف من السراويل الفضفاضة الطويلة المشدودة فوق الكعبين، والعمامة فوق القاقوق، وعلى منكبية جبية تدلى على جنبة الأيمن[١].

– وسائل التسلية والترفيه

لا شك أن الترفيه ضروري للإنسان مهما كان موقعه في الحياة حاكمًا كان أو محكومًا، وخاصة أن الترفيه باختلاف وسائله شكل جانبًا مهمًا من جوانب حياة الإنسان. ولا يُعد كل ترفيه لهو ومجون أو مضيعة للوقت؛ فلبعض وسائل التسلية والترفيه بعض الجوانب الإيجابية، وخاصة وسائل التسلية والترفيه التي تتصل بالفنون والرياضة والفروسية، وهو النوع الغالب على التسلية والترفيه لدى المسلمين في العصور الوسطى.

"وبمنظور الإسلام نجد أن الدين الإسلامي دين واقعي يقف من الإنسان على أرض الحقيقة والواقع، ويعامل الناس معاملة تتفق مع بشريتهم، فاعترف بفطرتهم وغرائزهم التي خلقوا عليها، بأن يفرحوا ويضحكوا ويلعبوا كما يأكلون ويشربون. ولا ريب في أن لكل شعب من الشعوب وسائل ترفيهية خاصة به. وقد اشتهر العصر المملوكي بشكل خاص بكثرة وسائل ترفيهه، ومارس سلاطين المماليك وكبار الأمراء رياضة الفروسية بأنواعها المختلفة، مثل الفروسية والرماية والقبق والصيد، وبرعوا في ذلك إلى حد كبير. ولا ريب في أن نواب حلب وكبار الأمراء بها قد مارسوها، وما كان ذلك ليحدث إلا في ظل تشجيع السلاطين والنواب على هذه الرياضة التي تمرنهم على الحرب والقتال في أوقات السلم".

ويبدو أنهم اتخذوا من هذه الرياضات مجالًا للتدريب على فنون القتال والرماية، حتى إن طبيعة اللعب في غالبها تتسم بالخشونة والجدية وذلك بالرغم من كونها وسيلة من وسائل الترفيه في ذلك العصر[٢].

وفضلًا عن ذلك فقد اشتهر في حلب – عاصمة نيابة المملكة الحلبية – بعض أنواع الطرب الذي مارسه بعض الحلبيين، وامتدت منها إلى قرى النيابة[٣]، بل إن بعض نواب حلب أنفسهم برعوا في الضرب على العود، مثل الأمير أشقتمر المارداني نائب حلب (٧٩١هـ/١٣٨٩م)، كما اشتهر محمد اللالاتي الفرض المعروف بالبزرة (٩٤٩هـ/١٤٥١م) بميوله للموسيقى والغناء. ومارس الحلبيون بعض ألعاب التسلية المنزلية،

(١) جورجي زيدا ن: استبداد المماليك، ص ٨.

(٢) لطفي احمد ناصر: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصص ٦ ٠ ٢– ٢٠٧.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٤، دمشق، ٩٢٥ ـ ٩٢٨ ١هص ١٠ ـ ١١٤ ١؛ أحمد رمضا ن: المجتمع الإسلاميص ٩ ٢ ٢.

ومنها لعبة الشطرنج التي اشتهر بها خليل بن مشد خليل القعي الرومي الحلبي (٩٣٩هـ/١٥٢٣م). وكان في حلب حلقة سباق مارس فيها الحلبيون هوايتهم في لعبة الشطرنج، ويبدو أن الراغبين في ممارستها قد انقسموا إلى قسمين يلاعب كل منهما الآخر، وكانت تُعقد هذه المسابقة مرة في العام[١].

وانتشرت في حلب حدائق ومتنزهات جميلة كان بعضها يُحاذي ضفتي نهر قويق، وفيها كثرت أشجار الصفصاف والتين والزيتون، وتم استغلال بعضها لزراعة بعض أنواع الفاكهة، مثل البطيخ وبعض أنواع الخضار على غرار الخيار، بخلاف زراعة أنواع أخرى من المحاصيل الزراعية التي زرعت في أحواض، ومنها القثاء والبرسيم والقطن والتبغ والسمسم[٢].

وقد أشار ابن الشحنة إلى وجود اثنتي عشرة حديقة وارفة الظلال في مدينة حلب، منها حديقة يشبك اليوسفي وابن المهمندار وابن شهري وابن أبي إصبع وابن الأقساسوسبط السفاح وقراجا وابن الشحنة ونقيب الأشراف سودون النوروزي وأقجا وابن الشيباني وغيرها. وكان لكل حديقة من تلك الحدائق بركة ماء خاصة بها. وُيلحظ انتساب تلك الحدائق إلى أسر حلبية بارزة اجتماعيًا واقتصاديًا وعلميًا في المجتمع الحلبي في الفترة قيد الدراسة.

وقد قصد الحلبيون بعض تلك المتنزهات في أيام الأعياد والمواسم، وسواء في ذلك العام والخاص منها متنزه باب المقام الذي يُعتبر من أشهر متنزهات حلب؛ لأنه وفر للمترددين عليه بعض وسائل التسلية والترفيه ومنها بعض الألعاب والفنون، كما عقدت به بعض الحلقات لأرباب الصنائع، وبيعت به أنواع مختلفة من المأكولات. إضافة إلى متنزه خارج باب النيرب ومتنزه آخر خارج باب الفرج وثالث خارج باب النصر ورابع في قنسرين وخامس بظاهر بأنقوسيا.

وأقيمت ببعض تلك المتنزهات ألعابٌ متعددة، ومنها لعبة الفيالات التي يلعبها الصبيان، بحيث يخبئون الشيء في التراب ويقتسمونه ويتساءلون في أيها موجود الشيء، فتمني عند الأطفال مهارت التفكير، وتثير في نفوسهم المرح والبهجة.

(١) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، جـ٥ ص ٣٨٣؛ ابن الحنبلي: در الحبب، جـ٢ق ٨ ص ٣٧٨.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٥٤ ٧ ص ٢٥.

أما النوع الآخر من المتنزهات الحلبية والتي يقصدها الحلبيون في سائر الأيام فكثيرة منها: الأبيض ومرج الخالد وعين مباركة وعين أشمول، وأرض بطياس والسعدي والجوهري والأنصاري وأرض الخوابي وطواحين السلطان ومشهد الزرازير وبستان الجزيرة وبساتين البقعة وجسر الطواشي وجبل جوشن وبستان العجمي وجسر باب الجنان وبابلي وقرنبيا والبختي والهزازة والعيدان والأخضر ومشهد سيدي فارس وقسطل الحاجب ومرجة أغلبك وأرض باصفراء وعين التل وأرض الحلبة ورأس الطابق والنهريات، وغيرها الكثير من المتنزهات التي تردد عليها الحلبيون في أي وقت من العام[١].

وقد نُسب بعضها إلى أشخاص بارزين أو إلى أبواب مهمة في المدينة أو إلى مناطق مهمة كانت تقع بها مثل متنزه الأرض المجدبة ومتنزه الناعورة[٢]، ولكنها لم تكن بالمستوى الذي أصبحت عليه المتنزهات في العصر الحالي؛ لأنها كانت عبارة عن ساحات من الأشجار والأزهار وتتوفر فيها المياه العذبة، ناهيك عن احتواء بعضها على بعض ألعاب ذلك العصر التي لعبها الصبيان بخاصة. ولعل من العوامل التي دفعت بالحلبيين إلى ارتياد تلك المتنزهات ما حبت به الطبيعة مدينة حلب من مناخ جيد ومستقر وبخاصة في الربيع[٣]، أما في الصيف فقد ترتب على ارتفاع درجة الحرارة عاملًا مؤثرًا دفع بالحلبيين إلى الخروج للأماكن المفتوحة لاستقبال نسمات الهواء[٤]. وهكذا تنوعت وسائل التسلية والترفيه لدى الحلبيين حيث شملت الخاصة والعامة، مثلما شملت بعض الوسائل الرياضية للجسد والعقل معًا.

– مجالس العلم والوعظ

خضعت مجالس الوعظ والإرشاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أقبل عليها الناس في أوقات فراغهم وقام بالوعظ فيها وعاظ فضلاء. وقد حرص نواب السلطنة والأمراء والعلماء على عقد هذه المجالس

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ٢٥٥ ٧ ٢٥.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٧ ٢٥.

(٣) يوجد في حلب أكثر من نموذج للمناخ؛ حيث يسود المناخ المتوسطي في الأجزاء الغربية التي تضم أعزاز وعفرين وجبل سمعان وتصل نسبة الأمطار إلى أكثر من ٥٠٠ ملم سنويًا، بينما يسيطر على باقي أقسام حلب المناخ شبه الصحراوي الذي يتراوح تساقط الأمطار فيه من ١٥٠ إلى ٥٠٠ ملم سنويًا، وفضلًا عن ذلك فإنه تتساقط على حلب أمطار غير منتظمة خلال السنة. انظر: حميدة: محافظة حلبص ٧ ٨.

(٤) منصور معوض: الحمامات العامة في حلبص ٢ ٤– ٣ ٤.

بشكل دوري، وخاصة في شهور رجب وشعبان ورمضان أسوة بما كان يحدث في العواصم الكبرى للسلطنة المملوكية وبخاصة القاهرة والإسكندرية ودمشق.

وكانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية تحملت عبء تثقيف العامة، وقامت المساجد بهذه المهمة إلى جانب المدارس المتعددة التي أكثر المماليك من إنشائها في أرجاء السلطنة المملوكية. وقد عجت هذه المجالس بالناس على اختلاف مستوياتهم دون قيد أو شرط، كما تميزت بمعالجة مسائل دينية ودنيوية؛ لذلك كان لها أثر واضح في حفظ بعض معالم التراث الإسلامي.

وقد اقتصر عمل الوعاظ في الأغلب على التذكير بالله، وتخويف الناس من عذاب الله وحثهم على التمسك بدينهم. وكان الوعاظ من القضاة والعلماء الذين يتولون الخطابة في مساجد مصر والشام، ويبدو أن ثمة مجالس وعظ عقدت للنساء خصيصًا، ويقوم بوعظهن واعظات كن على درجة كبيرة من العلم.

وارتبطت مجالس العلم والوعظ بمجالس الثقافة التي تضمنت مجالس الأدب والشعر، ومجالس الوعظ والقصص وكذلك مجالس الشراب والطرب. ويذكر ابن خلدون أن "أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق[1] لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية السنية، فكثرت لذلك المدارس والخوانق والزوايا[2]".

وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة، وقد كان العلماء يتدارسون العلوم فيما عرف بمجالس العلم الذي حرص الناس على حضورها[3]. وبشكل عام قامت مجالس العلم التي تهدف إلى التفقه والوعظ والإرشاد في الخوانق والروابط والزوايا بصفتها ملتقى تعليمي، وكان الفقهاء والعلماء والفقراء

(١) الخانقاه: مكان مسبل للأفعال الصالحة، وأنها عبارة عن مسجد وبيت للصوفية قد يتسع لعدد يصل في بعض الحارات إلى أربع مئة، وقد انتشرت الخوانق في حلب سواء في العصر الأيوبي مثل الخانقاه التي أنشأها الأتابك شهاب الدين سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م، أم في العصر المملوكي مثل خانقاه السحلولية على شاطئ نهر قويق شمال حلب، وقد تولى كل خانقاه شيخ يسمى شيخ الخانقاه. انظر: محمد محمد أمين:الأوقاف والحياة الاجتماعية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٩١ ٢.

(٢) نشأت بعض في حلب في العصر المملوكي بعض الزوايا مثل زاوية دقماق وبيرق وتغري ورمش وبني المظفر وناظر الجيش، وكان لكل زاوية منها شيخ يطلق عليه شيخ الزاوية. ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٢٣٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ٤، ص ٥٠٢؛ محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٦ ص ٨٤ + ٥١.

(٣) لطفي احمد: وسائل الترفيص ٢٢- ٧ ٣.

يجتمعون بها في كل ليلة جمعة؛ فيذكرون الله ويسبحونه ويتلون القرآن الكريم، وبعدها يتناولون أشهى الأطعمة[١].

وأوقف عليها أصحابها أوقافًا لعمارتها، مثل البساتين والضياع وربما الحمامات العامة، وفرضوا مقابلًا ماديًا لروادها ومشايخها. وكان من حق ناظر الوقف تعمير تلك الأماكن وتنميتها بالصورة التي يراها لائقة، وقد تعجز تلك الأوقاف عن الوفاء بالاحتياجات التي تتطلبها المؤسسة، فيقوم ناظر الوقف بسد ذلك العجز من تبرعات الأثرياء، بينما أساء بعض نظار الوقف استخدامها وبددوا مواردها. وسعى بعض السلاطين والنواب إلى القضاء على ظاهرة الاعتداء على الأوقاف من خلال إرسال مفتشين دوريين إلى مدينة حلب لمتابعة مشرفي الأوقاف، وطرد من خالف شروط الوقف منهم[٢].

ثانيًا: الصحة العامة والنظافة:

تأثرت حلب بما نالته من مظاهر الرعاية والاهتمام أو مظاهر عدم الاكتراث من قبل نوابها سلبًا وإيجابًا في الصحة العامة وغيرها، وقد انعكست نتائج سياستهم المختلفة على الحياة الاجتماعية فيها.

– العناية الصحية بالأخلاق والسلوك المجتمعي

وتظهر بعض تلك الجوانب الإيجابية في مجال الصحة العامة في قيام النواب بأعمال خدمية استهدفت الحفاظ على الصحة العامة في نيابتهم، فمن جهة تكاتف النواب والعامة والشرطة في مكافحة الجراد الذي زحف على حقول المدينة ومزارعها، ولولا تكاتف الجميع؛ لأصيبت المدينة وسكانها بكارثة فادحة تؤدي أحيانًا إلى الغلاء والشح وانعدام القوت اليومي. وعلاوة على ذلك فقد اتبع النائب سيف الدين أقطاي[٣].

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، جـ ص ٠ ٨ ٤.

(٢) أبو الفدا: المختصر، جـ ص ٠ ٢ ١؛ السبكي: معيد النعم ص ٠ ٩؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ص ٥ ٢ ١؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ ص ٨ ٢ ٢؛ السخاوي: التبر المسبوك ص ٨ ١ ٢ ١١٩.

(٣) فارس الدين أقطاي الجمدار النجمي الصالحي ، اغتيل سنة ٥٢ هـ -١٢٥٤م.

سياسة حازمة تجاه النواحي الأخلاقية حينما تصدى لشرب الخمر والفجور، وما قد يترتب على شيوع تلك الظاهرة من عوارض وأزمات صحية وخلقية جسيمة[١].

– العناية الصحية بالبيئة:

أولًا: موجات الجراد

اجتاحت حلب في الفترة قيد الدراسة موجة من الكوارث الطبيعية والأوبئة، وكان لها العديد من الآثار السلبية على نواحي كثيرة أبرزها النواحي الاجتماعية بعامة والسكانية خاصة. ولعل مما تأثرت به حلب موجات الجراد التي كانت تجتاح المدينة وتؤثر عليها وعلى سكانها وزرعها بشكل كبير، إذ وصل حلب جراد من جهة الشرق سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م ولكنه لم يؤثر فيها كثيرًا؛ وذلك لأن ما يقرب من أربعة آلاف حلبي خرجوا لمكافحته، على ما أوضح ابن الوردي في أبياته التالية:

قصد الشام جراد ... سن للغلات سنا

فتصالحنا عليه ... وحفرنا ودفنا[٢]

بيد أن التعاون الذي حدث بين الحلبيين والمماليك تكفل بالتصدي لهذا الجراد ومن ثم الحد من أثره إلى حد كبير[٣].

ولا ريب في أن الأزمات الطبيعية التي تعرضت لها حلب قد أدت مجتمعة إلى بعض النتائج منها تناقص عدد سكان حلب بسبب توالي النكبات التي تعرضت لها المدينة[٤]، وعلاوة على ذلك فقد كان لها نتائج اقتصادية ذات طبيعة اجتماعية على حلب؛ لأنها أعاقت تطور المدينة لأن الإصابة بالطاعون وموت الناس – فضلًا عن الزلازل – يؤدي إلى غلاء الأسعار وخاصة المواد الأولية اللازمة للمعيشة[٥]، ناهيك عن

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٦ ٨ ٤؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ص ٩ ٠ ٢.

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٣ ٤ ٣؛ ٥ ٤ ٣.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٥ ٤ ٣.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٠ ٩ ٤.

(٥) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره: محمد مصطفى وجمال الدين الشيال، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،١٩٥٧م، ص ٤ ٣؛ اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد الحنبلي (ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرأة الزمان، جـ ٢، حيدر آباد، الهند،١٩٥٤-١٩٦١م، ص ٠ ٩،٦٢١؛ مفضل ابن أبي الفضائل، المفضل (ت:٧٥٩هـ/١٣٤٨م): النهج

الضحايا من البشر الذين كانوا يموتون بالمرض أو الجوع أو تحت الأنقاض. أما ما منح حلب متنفسًا وساعدها على الاستمرار فوقوع تلك النكبات الطبيعية على فترات ولم تستمر طويلًا، بدليل نشاط مدينة حلب التجاري في الحقبة المملوكية على ما يمكن الوقوف عليه من كثرة الأسواق والخانات والقياسر وانتشار الصناعات بها ووفود التجار الأجانب إليها(١).

أما عن حرص النواب على نظافة البيئة، فإن مما وقفت عليه الباحثة حرص النواب على إخضاع الحمامات لمراقبة المحتسب الذي حرص على منع مرضى الجذام من دخول الحمام، علاوة على منع المستحمين من الاستحمام دون مآزر، ناهيك عن مراقبة الأخلاق والتصرفات العامة في الحمام، ومراقبة تنظيف الحمام عدة مرات في اليوم، ثم تبخيره وتطييبه( ). وتلك من الأمور التي تؤكد حرص النواب على متابعة النظافة الشخصية للحلبيين مثلما كانوا يحرصون على نظافة المدينة بالتصدي للأمراض التي كانت تجتاحها، كما تدل ظاهرة كثرة المتنزهات وانتشارها في المدينة على ظاهرة صحية طيبة في المدينة.

ثانيًا: مكافحة الأمراض والأوبئة

أما الطواعين والأوبئة فكثرت في حلب وخاصة أن مناخ المدينة يميل صيفًا إلى ارتفاع درجة الحرارة وهبوب رياح السموم والزوابع، ويقترن بذلك قلة مياه الآبار والعيون وربما جفاف بعضها، إضافة إلى انتشار الحشرات( )، وما يترتب على ذلك من توفير البيئة الخصبة لنشأة الطواعين ما لم يتم تدارك الأزمة في مهدها؛ ولذا تعرضت حلب لانتشار وباء الطاعون عدة مرات وفي أعوام مختلفة، منها الطاعون الذي وقع في حلب في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م حينما أصاب حلب وانتشر حتى شمل بلاد الشام ومصر.

السديد والدر الفريد فيما بعد ابن العميد، دار لكتب الوطنية، حلب،١٩٣٧م ص ٦ ٤ ٧ ٧؛ ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ج ١، ص ٤ ٥ ١؛ ابن تغري بر ي: النجوم الزاهرة، ج١ ص ٨ ٦؛ جورج ط ود: مدينة حلبص ٣ ٦ + ٦ ١ ٦.

(١) جورج ط ود: مدينة حلبص ٨ ٦ + ٩ ٦ ١.

(٢) منصور معوض: الحمامات العامص ٦ ٩- ٩ ٩.

(٣)منصور محمد عبد الرازق معوض: الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي وحتى نهاية العصر العثماني، دراسة أثارية مقارنة، المكتب العربي للمعارف، القاهرة،٢٠١٤م ص ٢ ٤- ٤ ٤..

وقد قدرت أعداد الموتى في اليوم الواحد في حلب بحوالي ٥٠٠ شخص، وذكر ابن تغري بردي أنه التقى بمن عاصر هذا الوباء الذي سُميّ بالفصل الكبير أو سنة الفناء( )، وقد أطلق عليه أيضًا لطاعون الأنشاب( ) لأنه قلما مات به شخصٌ إلا وتبعه أحد أولاده وأقاربه. وقد بلغ عدد الموتى في دمشق وحدها ألف شخص في اليوم الواحد، ووصل عددهم في مصر إلى عشرين ألفًا في اليوم الواحد( ). ٣

وقد وصفه ابن الوردي بقوله:

حلب والله يكفي شرها أرض مشقة ... أصبحت حية سوء تقتل الناس ببزقة.

وقد استمر هذا الوباء حتى محرم من عام ٧٥٠هـ/١٣٤١م( ). ٤

ولا ريب في أن الأرقام التي قدمها المؤرخون فيها مبالغة واضحة وخاصة وفاة ٥٠٠ شخص في حلب في اليوم الواحد، ولكنه تقدير يعكس مدى تأثير الوباء في سكان حلب، كما تعكس الأرقام التي قُدرت عن وفيات الشام ومصر عامة وحلب خاصة مدى قوة هذا الوباء وأثره على سكان تلك البلدان( ). ٥

وشهدت الشام ذلك الوباء المريع الذي اجتاح أرجاء البلاد في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، وقد عرفه المؤرخون المسلمون باسم الفناء الكبير، وعرفه المؤرخون الأوربيون في العصور الوسطى باسم الموت الأسود Black Death، وقد جاء نتيجة انتشار بعض الأمراض ذات الطبيعة الوبائية من الهند وأواسط آسيا إلى عالم البحر المتوسط، وقد حفلت المصادر التاريخية العربية وغير العربية بالكتابات التي وصفت أهوال ذلك الفناء.

وكان من أعراض هذا المرض الوبائي أن يبصق المرء دمًا ثم يصيح ويموت، وقد أخذ ينتشر في البلاد في خريف سنه ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، ثم اشتدت وطأته في بداية العام التالي وظل ينشب مخالبه في البلاد حوالي عامين. وتراوح عدد الضحايا ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة يوميًا، وعملت الدكات والتوابيت

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١٠ ص ١١٢ ٣ ١٢.

(٢) الأنشاب: إذا أصاب إنسان لا مناص منه. انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، جـ١، دار الكتاب اللبناني،بيروت،١٩٦٨م ص ٧ ٥ ٧.

(٣) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ١ ٤.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١٠ ص ١١٢ ٣ ١٢.

(٥) جورج دود: مدينة حلب ص ٧ ٦ ١.

لتغسيل الموتى بغير أجر، ثم زادت أعداد الضحايا حتى صار الناس يحملونهم على السلالم وألواح الخشب والأبواب وما إلى ذلك.

وتفرغ بعض الناس لغُسيل الموتى كما تفرغ بعضهم الآخر للصلاة على ضحايا الوباء الذين كانوا يدفنون جملة واحدة في حفرة واحدة. وقد شمل الوباء جميع الكائنات الحية حسب رواية المؤرخين، حيث وصل أثره إلى حيتان البحر وطيور السماء ووحوش البر، كذلك فسدت الزراعات بسبب تواجد الديدان وتسممت الأسماك في النهر. وكان طبيعيًا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتماماتهم؛ لأنه لم يكن بقدرتهم مزاولة أعمالهم اليومية حيث لم تجد الأرض من يزرعها، كما أن المحاصيل التي نضجت لم تجد من يحصدها؛ لكثرة الموتى بين الفلاحين.

وتوقفت أعمال الصيد واختفت البضائع وانكمشت الأسواق وركدت الحياة تمامًا وعطلت أحوال الناس، ولم يجد الولاة والقضاة عملًا إذ كف الناس عن مقاضاة بعضهم، كما أن المؤسسات التجارية، مثل القياسر والخانات والوكالات والفنادق التجارية كانت خاوية لا تجد من يسكنها أو يشغلها، وزهد الناس في أموالهم وبذلوها للفقراء كما قضى الوباء على كثير من أجناد الحلقة[١].

وأُصيبت حلب بالوباء مرة أخرى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، ولكنه لم يكن قويًا مثل الوباء السابق، ثم أصابها وباء آخر ولكنه شديد عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وظل بها ستة شهور أصاب خلالها الزرع والحرث والنسل، ومات كثير من الشباب والنساء والأطفال حتى بلغ عدد الموتى ما يقرب من مئتي إنسان على ما أشار ابن حبيب[٢]. وقد مات نتيجة له عددٌ كبير من العلماء والأعيان، وعظم الخطب على ما جاء في وصف ابن حبيب بقوله:

قلت لقوم عتبوا على الوبا ... حيث غزا فيهم بقلب قاس

لا يُحسن العتب على ذي جنة ... يلعب بالكبَّةِ بين الناس[٣]

(١) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ٣٢٠.

(٢) ابن حبيب: درة الأسلاك، ج٣، ورقة ١١٢ب، ١١أ.

(٣) ابن حبيب: ديوان الإمام المؤرخ الأديب ابن حبيب الحلبي، جمع وتوثيق وتقديم: حسن محمد عبد الهادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص ٧٠.

أما أخطر تلك الطواعين فهو ما حدث سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م، وذلك لكثرة عدد الوفيات بحيث قُدرت الوفيات بألف نفس يوميًا وهو رقم مرتفع للغاية، وبعد أقل من عقد اجتاح حلب طاعون وقع سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ولكنه لم يكن بخطورة الطاعون السابق، حيث قُدرت الوفيات بخمس مئة متوفى يوميًا تقريبًا[١].

ووفدت على حلب بعض الأمراض من بلاد الروم، ومنها ما حدث عام ٨١٦هـ/١٤١٣م أدى إلى وفاة عدد كبير من بنيتها السكانية، ومرة أخرى وفي عام ٨٢٦هـ/١٤٢٢م حينما اجتاحها طاعون آخر أهلك عددًا كبيرًا من الحلبيين، حيث بلغت أعداد الوفيات حوالي ٥٠٠ إنسان في اليوم، وحدث الأمر ذاته في الوباء الذي اجتاح المدينة عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م[٢].

وقد ترتب على تلك الطواعين والأوبئة التي وقعت في حلب من وقت لآخر نتائج وخيمة، ساعدت على ركود النشاط التجاري والزراعي إبّان فترة الوباء، كما أدت إلى ركود النشاط العلمي، وخاصة أن كثيرًا من الناس كانوا يصابون بتلك الأمراض وتُؤثر على نشاطهم وصحتهم، وذلك على ما حدث في عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حينما حصل فناء كبير ومات بسببه خلق كثير منهم الصغار والكبار وأهل العلم والرؤساء والأمراء والأعيان من التجار وأهل الثراء وغيرهم[٣].

وقد وقعت عدة حوادث خطيرة في فترة حكم السلطان العادل زين الدين كتبغا هددت كيان الدولة وهي وقوع المجاعة المميتة، ومرض الطاعون الفتاك، في جميع أقاليم سلطنة المماليك[٤].

– العناية بالبيمارستانات:

لقد اهتمت السلطنة المملوكية بنيابة حلب بصحة الحلبيين ووفرت لهم العديد من المؤسسات الاجتماعية وأكثرت منها، وعلى رأسها البيمارستانات والحمامات والأسبلة وما إلى ذلك. وقد اعتنى المماليك ببناء البيمارستانات في أرجاء السلطنة المملوكية، وهو توجه عرفته كل من مصر والشام من العصور السالفة

(١) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ١، ورقة٢١٧؛ المقريزي: السلوك، جـ ٢ ص ٨٣٥؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ص ٦٥٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٨ ص ٩٥٢؛ الغزي: نهر الذهب، جـ ٢ ص ١٠٢.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ ٢ ص ١٦٦؛ ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٢ ص ٧٧٢؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، جـ ٢ ص ٩٢٣.

(٣) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ١، ورقة ٧ ١٥.

(٤) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع، ص ٨ ٢.

وخاصة العصرين الزنكي والأيوبي؛ فقد سبق وشيد نورالدين محمود بن زنكي عددًا كبيرًا من البيمارستانات في حلب ودمشق وغيرهما من مدن الشام. وقد أنشأ نورالدين البيمارستان العتيق في حلب داخل باب أنطاكية في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وقد أشار إليه ابن بطوطة في رحلته التي زار فيها حلب وغيرها من بلاد الشام( ). وظل البيمارستان النوري في حلب يقوم بدوره في مجال الصحة العامة من خلال استقبال المرضى ومداواتهم طوال العصر المملوكي( ).

وقد تكون هذا البيمارستان من مدخل، وهذا المدخل عبارة عن بوابة واسعة ذات جدارين جانبيين، وصدر سقفها معقود بقوس جميل، ويغلق المدخل بباب ذي مصراعين مصنوع من الخشب السميك المزين بقطع خشبية دقيقة الصنع( ). أما الساحة فكبيرة وواسعة ويتخللها بعض الغرف، منها غرفتان في الجدار الغربي، وأخرى كبيرة في الجهة الشمالية. وثمة ممر في الجانب الشمالي الشرقي للساحة يُؤدي إلى غرف صغيرة خارجها، ذات أبواب ضيقة لا تتسع لأكثر من شخص، مما يشير إلى أنها كانت مخصصة للمجانين. كما يوجد في ساحة البيمارستان النوري بركتان للماء دائريتا الشكل، ثم أضيفت قاعة للنساء في هذا البيمارستان، وقد أنشأها القاضي سبط بن السفاح( ) كاتب السر في حلب في عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م( ).

وسار صلاح الدين وخلفاؤه على الدرب ذاته بتأسيس البيمارستانات والمدارس التي توفرت على تدريس الطب وتعليمه في كل من مصر والشام( ). وقد نالت حلب في العصر المملوكي اهتمامًا بالنواحي الصحية، تمثل في قيام نائبها الأمير سيف الدين أرغون الكاملي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م( ) ببناء بيمارستان

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣٠٢؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ٧٠.

(٢) محمد أسعد طلس: الآثار الإسلامية، ص٩٦ ٢، ٧ ٩٢.

(٣) أنورد ويلوي: "البيمارستانات في حلب"، مجلة عاديات حلب، عدد ١، ١٩٧٥م، ٦٣١.

(٤) حمد بن محمد سبط ابن السفاح (ت ٧٦١هـ - ١٣٥٩م).

(٥) الغزي: نهر الذهب، جـ٢، ص١٠٠؛ أنورد ويلوي: البيمارستانات في حلب، ص٣٦ + ١٣٧.

(٦) انظر في ذلك: حجلي عبد المنعم سليط ن: "إسهامات المغاربة والأندلسيين في الطب في مصر والشام في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين"، ضمن إصدار المؤتمر العلمي الأول لجامعة الإمام بالرياض بعنوان تاريخ العلوم التطبيقية والطبية عن العرب والمسلمين، جـ٣، مايو، ٢٠١٧م، ص٨٤ ٤، ٨٥.

(٧) سيف الدين أرغون الكاملي باني البيمارستاني (ت ٧٥٨هـ - ١٣٥٧م)، البداية والنهاية(٨ / ٥٧٩).

عُرف باسم "الأرغوني الكاملي" داخل باب قنسرين في حلب ذاتها لمعالجة المرضى الحلبيين من أرباب الحكم ومن عامة الحلبيين وغيرهم(١).

وكانت حلب في أشد الحاجة إلى ذلك البيمارستان وخاصة أن بعض نواب حلب كانوا يستعينون بأطباء من خارجها ربما لظنهم أنهم أفضل من أطباء حلب وخاصة أطباء القاهرة ودمشق، فحينما مرض الأمير الطنبغا الماردانى(٢) نائب حلب فإنه استدعى من القاهرة الطبيب محمد بن عبد الله بن صغير بن ناصر الدين (ت:٧٣٩هـ/١٣٤٨-١٣٤٩م)(٣)، ولذا ربما استدعت الضرورة إنشاء البيمارستان الأرغوني أو الكاملي في باب قنسرين.

وقد تألف ذلك البيمارستان من إيوان كبير ورواقين وغرف كثيرة للمرضى تُحيط به، إضافة إلى حجرتين للأطباء ومدخل عبارة عن بوابة واسعة ذات جدارين جانبيين وشكلهما معقود بشكل محرابي.، أما الباب فقد صُنع من الخشب المصفح من النحاس الذي تُزينه بعض الأشكال الهندسية(٤). وقام الأمير أرغون بتزويد البيمارستان بالأشربة والمراهم والأعشاب والأدوات الضرورية التي كانت توضع على أرفف مخصصة لها في الإيوان، ناهيك عن الأطعمة وخاصة الدجاج واللحوم والأطعمة الأخرى(٥).

وفضلًا عن ذلك فقد قام الأمير أرغون بتجهيز مكان في البيمارستان لاستقبال المرضى وصالة لاستقبال زائري المريض، وحوى البيمارستان أيضًا غرفًا منفردة وأخرى جماعية لإقامة المرضى(٦). وقد زُود

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٤ ٣ ٢؛ القلقشلد ي: صبح الأعشى، جـ ص ٠ ٢ ٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، جـ٢، ورق٣٨٥.

(٢) الطنبغا علاءالدين الماردانى الساقي (ت ٤٤ ٧هـ - ٣٤٣ ١م)، الوافي بالوفيات(٣٩٢ ٣).

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ص ٩ ٠ ٣.

(٤) أنورد ويلو ي: البيمارستانات في حلبص ١ ٤ ١.

(٥) الوي: نهر الذهب، جـ ص ٣ ٠ ١.

(٦) أنورد ويلو ي: البيمارستانات في حلبص ٢ ٤ + ٣ ٤ ١.

ذلك البيمارستان بالمياه اللازمة من قناة حلب أو حيلان، وأوقف عليه الأمير أرغون قرية بنش( ) العظمى بناحية سرمين( ) ومزرعة وطاحونة بقرية العْمق( )"( ).. ١ ٣ ٤

وقد شرط الأمير أرغون قراءة القرآن بالليل والنهار في ذلك البيمارستان، وما زال هذا البيمارستان قائمًا في حلب ويُمثل واحدًا من أفضل الأبنية المملوكية الباقية بحالة جيدة( ). وقد اعتاد نواب حلب أن يعينوا ناظرًا لهذا البيمارستان بتوقيع كريم على ما جرت العادة في البيمارستان النوري أو العتيق( ). ٦

وانقسم هذا البيمارستان إلى قسمين: قسم خاص بعلاج المرضى من ذوي الأمراض العادية، والقسم الآخر مختص بالمرضى النفسيين الذين نالوا رعاية خاصة، وقد خصص لهم خدم على حراستهم. وكان لكل مريض خادمان ينزعان عنه ثيابه كل صباح ويغسلانه بالماء، ثم يُلبسانه ثيابًا نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه القرآن ويرفهان عنه( ). ٧

واعتاد الأطباء أن يعقدوا حلقات دروسهم مع طلابهم في البيمارستان ذاته، وشملت دروسهم الجوانب النظرية التي يحصلونها من كتب الطب والجوانب العلمية التي يتدربون عليها من خلال مرافقة أساتذتهم ومعلميهم في جولاتهم الطبية اليومية على مرضى البيمارستان. وحينما تنتهي الجولة فإنهم يجتمعون في الإيوان مع أساتذتهم ويناقشون الحالات التي صادفتهم، إضافة إلى المناقشات الطبية الأخرى التي تجري بينهم بعد مراجعة كتب الطب المتوفرة بين أيديهم. وقد جمع الأطباء بين المعاينة والتشخيص وتركيب الدواء أيضًا.

---

(١) بنش: تقع فوق تل وتبعد ٧كم من إدلب .

(٢) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب ، قيل أنها سميت بسرمين ابن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام ،معجم البلدا ن(٣/ ٢١٥)

(٣) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، جـ ١، ورقة ٢٣٥؛ الغوي: نهر الذهب، جـ ٢ص ٣٠١؛ القلقشند ي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠٢.

(٤) العمق: كورة بنواحي حلب بالشام، معجم البلدا ن(٤/ ١٥٦)

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ ٢ص ٦٧١؛ ابن تغري بر ي: النجوم الزاهرة، جـ ٠ ١ص ٢٧٣؛ الطباخ: إعلام النبلاء، جـ ٢ص ٣٧٤؛ كمال ور: حلب في العصر المملوكيص ٦٩٢.

(٦) القلقشند ي: صبح الأعشى، جـ ٢ص ٠٢٢.

(٧) الطباخ الحلبي: أعلام النبلاء، جـ ٢ص ٨٣٤؛ الغوي: نهر الذهب، جـ ٢ص ٣٠١؛ محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٢ص ٥٦١.

وكان الأطباء يتابعون مرضاهم بأنفسهم، حيث اعتاد الطبيب الحلبي محمد بن عبد القادر بن محمد بن سليمان رئيس الأطباء في البيمارستان الأرغوني أن يُعطي الدواء للمرضى بنفسه، وكان يُعد الدواء بنفسه ويقدمه لهم بنفسه أو من خلال مملوك خاص بالطبيب، فيقدم لهم الأشربة والمعاجين واللعوقات وغيرها[1].

وقد اشتهر في حلب بعض الأطباء المعروفين الذين عملوا بها وبغيرها في دمشق والقاهرة، منهم أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي البركات الحلبي الشغراني (٧٣٨-٦٩١هـ/١٢٩٢-١٣٣٧م)، وهو واحد من أهم أطباء حلب، وكان يُزاول مهنة الطب في البيمارستان النوري في حلب، فضلًا عن صالح بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي المنى (٦٩٠-٦٢٨هـ/١٢٣٠-١٢٩٠م) الحلبي العطار الصيدلاني. ناهيك عن محمد بن أبي حامد بن هاشم بن نصار المعروف ببدر الدين الحكيم (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م)[2] وهو من أهم الأطباء المهرة الذين أقاموا في حلب، وكان رئيسًا لأطباء حلب ولأهل صناعته، وقد أشرف على بيمارستان حلب وانتفع به الحلبيون وطلاب الطب بها[3].

وأيًا ما كان الأمر فقد ساعد البيمارستان الأرغوني على تطور حركة الطب في حلب، وليس أدل على ذلك من أن السلطان برقوق طلب الطبيب إبراهيم الشريف الأخلاطي من حلب إلى القاهرة؛ كي يعالج ابن السلطان برقوق وذلك سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦-١٣٩٧م[4]. ولكن اقتصر وجود البيمارستان على مدينة حلب وحدها، وتعين على من عاش خارج المدينة وضواحيها من الحلبيين أن يذهب إلى البيمارستان في حلب والخضوع لمعاينة الأطباء، وتلقي العلاج المناسب لحالته[5].

- الحمامات العامة والخاصة

كثرت الحمامات في حلب عبر تاريخها قديمًا، وخلال العصر المملوكي دلالة على ظاهرة صحية واجتماعية طيبة، علاوة على افتقار بيوت العامة إلى الحمامات وعدم قدرتهم على بنائها في منازلهم، بينما اختصت بيوت الأمراء والأثرياء على وجود الحمامات فيها، إضافة إلى أن الحمامات كانت على رأس

(١) الطباخ: أعلام النبلاء، جـ٥ص ٨ ٣ ٤.

(٢) المقريزي: السلوك، جـ٢ق ٣ص ٥ ٤ ٦.

(٣) كمال بور: حلب في العصر المملوكي ص ٧ ٩ ٢.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٨ ٤ ٢ ٠ ٥ ٢.

(٥) عادل حمزة: نيابة حلب، جـ٥ص ٠ ٤ ٢.

المؤسسات الوقفية التي يتم إيقافها على المساجد والجوامع المتعددة في حلب وينفق من ريعها على عمارتها وصيانتها وكافة نفقاتها.

كما كثرت الحمامات نتيجة لزيادة عدد الحارات في مدينة حلب وارتباط كل حارة بوجود حمام أو أكثر على اعتبار أن الحارات كانت وحدة التخطيط بمدينة حلب، ناهيك عن تأصل عادة ارتياد الحمامات العامة عند الشاميين وازدياد الكثافة السكانية بمدينة حلب منذ القدم، ورواج الحركة التجارية بمدينة حلب. فضلًا عن مناخ حلب الذي يتسم بحرارة مرتفعة صيفًا وبرودة قارصة شتاء، وهو أمر يدفع بأهلها إلى التردد على الحمام صيفًا لإزالة ما علق بأجسادهم من دهون وأوساخ نتيجة العرق الشديد، وخاصة مع قلة مياه العيون والآبار وانتشار الحشرات وهبوب الزوابع ورياح السموم، علاوة على التردد على الحمامات شتاءً وخاصة من قبل كبار السن وذوي الجسد النحيف ممن يتألمون من برودة المناخ، ومن ثَّم البحث عن الدفء في تلك الحمامات، ومن ثَّم فقد جعلت طبيعة هذا المناخ علاوة على العوامل الأخرى من عادة ارتياد الحمامات العامة ركنًا رئيسًا من حياة الحلبيين عبر تاريخهم(١).

وقد ارتبط إنشاء الحمامات برغبة القادرين على إنشائها في استثمار أموالهم لما تدره الحمامات من عوائد مالية مرتفعة(٢). وقد كثرت الحمامات في حلب بما يعكس أن بناءها كان سهلًا وبسيطًا، وهو أمر يسر بناء عدد كبير منها، وقد أسهم غالبية نواب حلب في بناء عدد كبير منها. ويلحظ بناء عدد كبير منها في أسواق حلب وحاراتها، وأوقف عليها أصحابها أوقافًا كثيرة، ودمر المغول كثيرًا منها حينما هاجموا مدينة حلب(٣).

وقد اتصلت واجبات الحمام بالواجبات الدينية والاجتماعية؛ فلم تعد وظيفة الحمام قاصرة على الرغبة في النظافة وإزالة ما علق بالجسم من أوساخ وإنما صارت وسيلة للطهر والاستعداد للصلاة. ووفرت الحمامات للمترددين عليها من العامة فرصة للتنعم بالحديث وتبادل الأخبار وربما مناقشة أحوال المدينة وما حولها(٤). وعمل في خدمة المترددين على الحمام بعض العمال لكل منهم مهمة محددة منهم الحمامي الذي

(١) منصور معوض: الحمامات العامة بمدينة حلب، ص ٢ ٣- ٨ ٤..

(٢) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي، ص ٥ ١ ٢.

(٣) سبط بن العجمي: كنوز الذهب، جـ٣، ص ١ ٥ ٣ ٥؛ محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٤، ص ٣ ٨ ١.

(٤) سعد زغلول الكواكبي: الحمامات في حلب، ص ٩ ٦ ١.

اختص بتقديم المآزر للمستحمين لستر عوراتهم، ومساعده الذي حرص على حفظ ملابس المستحمين، والبلان الذي كان خفيفًا ورشيقًا وبصيرًا بالحلاقة للمستحمين، والمدلك الذي اعتنى بتدليك أجساد المستحمين[١].

وتُعد الحمامات الحلبية التي شُيدت في العصر المملوكي شبيهة بالحمامات الرومانية إلى حد كبير، وذلك من حيث النمط الذي شيدت على أساسه أو تخطيطها المعماري الخارجي وتخطيطها الداخلي أو قسمات الحمام من الداخل. وبصفة عامة فقد روعي في الحمام الحلبي أن يضمن للمستحم عدم التأثر بالانتقال من الحرارة إلى البرودة دفعة واحدة، وذلك بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام تنتشر فيها الحرارة من الخارج حتى القسم الداخلي أو الجواني، وتسخن قاعاتها وخلواتها بإيقاد النار تحت الأرض؛ لأن الحمام الحلبي كان يتألف من طابقين أو دورين من العمارة: طابق أرضي، ويتكون من مجموعة من الممرات المتسعة التي ينقل عبرها الحطب الذي يُستخدم في تسخين قدور المياه.

وسرعان ما تنقل تلك المياه عبر أنابيب مخصصة إلى أحواض مصنوعة من المرمر، ومنها ينتقل الماء إلى كافة الغرف الساخنة في الطابق الأرضي، أما البخار الساخن فإنه يتوجه إلى أسفل سطح غرفة متوسطة الحرارة في الطابق الأرضي[٢].

وخُصص الطابق الأرضي للاستحمام؛ ولذا شمل هذا الطابق عدة أقسام، يتصدرها ما يُعرف بالقسم الخارجي أو البراني من الحمام والذي خُصص لخلع الأردية ووضعها في خزائن خاصة، وينتظر بها المستحمون ريثما يأتي دورهم. وبهذا القسم مساحة واسعة بشكل عام ومغطاة بقبة ومبلطة، ولها أبواب ونوافذ تطل على الجهة الخارجية. وهناك مقاعد حجرية طويلة على جهات القاعة الأربع مُد عليها البسط والحصر وتشبه الحجرات الصغيرة، ولم يكن مسموحًا في الحمامات الإسلامية بالتعري إطلاقًا خلافًا لما غلب على الحمامات

(١) عن العاملين في الحمامات الحلبية انظر: منصور محمد عبد الرازق: الحمامات العامة ٧ ٤ ٥ ٩؛ كمال بدور: حلب في العصر المملوكي الأول، ص ٧ ١ ٢.

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج٢، ورقة ٥ ٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١ ص ٩ ٧ ٢.

الرومانية، وفي ذلك القسم المطل على الخارج كانت تُقرأ آيات القرآن من بعض المستحمين في انتظار دورهم للاستحمام(١).

وقد اشتهر القسم الثاني أو الغرفة التالية بحرارتها المتوسطة، ولا يحتوي هذا القسم على مقاعد أو مكان للجلوس بل يوجد مقعد عال ومبلط في الوسط ويتسم بحرارته المرتفعة، ويجلس عليه المستحمون للتعرّق. ويوجد بهذا القسم ساحة تحيط بها غرف صغيرة ذات حنفيات مياه ساخنة وباردة، ومنها يُصب الماء على جرن الاستحمام( )، وفيها يستمتع المتردد على الحمام ببخار الماء المتصاعد من الطابق تحت الأرضي من خلال الاستلقاء على الأرضية الساخنة لتلك الغرفة.

ويوجد في هذه القاعة الأقل إضاءة نوافذ عالية، وتحتوي أحيانًا على نوافذ صغيرة مُغطاة بالزجاج الملون. وتضم تصميمات بعض الحمامات في هذا القسم برك كبيرة للاستحمام بشكل جماعي، وبما أن المسلمين لا يحبذون هذه الطريقة من الاستحمام لذلك لم تُعمم.

وحالما ينتهي المتردد على الحمام من تلك الغرفة فإنه ينتقل بعد فترة وجيزة إلى القسم الثالث أو الغرفة الساخنة التي تُعد من أكبر غرف الحمام وأكثرها اتساعًا، وحرارة المكان مرتفعة لدرجة عدم تمكن الشخص من البقاء فيه أكثر من خمس عشرة دقيقة، بينما تتحمل النساء الحرارة أكثر من الرجال. وهناك حمامات خاصة بالنساء، ولكن العادة المتبعة مع ذلك هي استحمام الرجال من الصباح الباكر وحتى الظهر، والنساء من الظهر حتى مغيب الشمس.

وهناك وفي تلك الحجرة الساخنة يتلقى المستحم تدليكًا خاصًا، يستخدم فيه الزيت ومحكات خاصة أو قطع من قماش. ويلف المستحم الفوطة على خصره ويدخل إلى الحجرة الداخلية بهدف التعرق. وبعد ذلك يستخدم دواء معينًا لإزالة الشعر بإضافة بعض الماء إلى المسحوق، وبعد تريث بضع دقائق يستحم

(١) سعد زغلول الكواكبي: "الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب"، مجلة عاديات حلب، عدد ٢، جامعة حلب، حلب،١٩٧٦م، ص٦٣ ١-٧٣ ١٠.

(٢) جرن الاستحمام: مكان الاستحمام في الحمامات وبداخلة الشيء المي يوضع فيه الماء (ما يشبه خزان الماء ،أو الحوض المي يوضع فيه الماء).

الشخص ويزول الشعر كليًا. وعندما ينتهي ذلك يأتي عامل الحمام ويقوم بتدليك جسم المستحم بلطف في البدء ثم يزيد من قوة التدليك؛ كي يكون الجلد أكثر رطوبة وليونة.

وبعد ذلك يقوم العامل بشد كل إصبع حتى تسمع الطقطقة، ويتابع هذه العملية على الكتفين والرسغين وعظام الرجلين مع استمرار التدليك، ثم يقوم بفرك الجسم بقماشة سوداء خشنة، ثم يغسل جسم المستحم بشكل متقن بالصابون والليف، وما يبقى على المستحم هو إزالة الصابون بصب الماء بطاسة نحاسية، حيث ينتقل إلى البرك الساخنة فيغمر جسده في الماء الدافئ؛ كي يستمتع بسخونة الماء والغرفة معًا، وفي ذلك من الترفيه ما يعجز عن الحصول عليه سوى في الحمام العام، أما الغرفة متوسطة الحرارة فإنها تلك التي ينتقل إليها المستحم حيث يستوعب جسده درجة الحرارة المنخفضة تدريجيًا وفي ذلك أخذًا بالأسباب وتحاشيًا للمرض وبخاصة البرد والأنفلونزا( )، ويقدم له المناشف ويستريح فترة يأكل خلالها بعض الفاكهة الباردة. وكان الأغنياء لا يستخدمون مناشف وأشياء الحمام الأخرى؛ لأنهم كانوا يجلبون أشياءهم الخاصة معهم.

وحينما ينتهي المستحم من المكوث في الغرفة المتوسطة فإنه يتحرك تلقائيًا إلى الغرفة الباردة أو الخارجية وهي آخر غرف الحمام، وهناك يرتدي ملابسه كاملة ويخرج بعدها من الحمام. وتحتاج جميع مراحل الاستحمام هذه إلى وقت طويل لذلك لا يمر بعض المستحمين بكافة هذه المراحل وإنما يختزلونها بقدر الإمكان.

بينما تبقى النساء مدة أطول في الحمام مقارنة بالرجال بسبب تنظيف شعرهن وصبغه وتحميم أطفالهن. وبسبب عدد الأجران غير الكبير تنتظر كل امرأة دورها ويتسامرن ويتحدثن في الحجرة الخارجية عوضًا عن بقائهن في الحجرة المتوسطة الحرارة أو التي تليها، ولذا كانت تُسمع أصواتهن العالية من قبل المارين في الخارج.

وتحب النساء التردد على الحمام كثيرًا؛ لأنهن يعرضن جواهرهن ومصوغاتهن الذهبية ويلتقين بمعارفهن. وتصطحب النساء معهن إلى الحمام الفاكهة والمرطبات والحصر والبسط. ولكل طبقة من الحلبيين خادم خاص في الحمام للسهر على دقة تنفيذ تلك المراحل. وبخلاف الأيام العادية تذهب النساء إلى الحمام بعد الإنجاب والأمراض وقبل الزواج وبعده.

(١) سعد الكواكبي: الحمامات في حلب، ص ١٥.

ويستأجر الأغنياء الحمام في بعض المناسبات ويدعون أقرباءهم وعائلاتهم. والنساء كالرجال يستخدمن الفوطة أو ثياب الحمام ولا يبقين عاريات. وبعد الولادة تصطحب القابلة السيدة التي أنجبت حديثًا كي تساعدها. والنساء يمضين بعض الوقت مع قريباتهن في جو من المرح والتسلية[١].

أما عن أعداد تلك الحمامات في مدينة حلب فقد أشار ابن شداد إلى أنها بلغت ٩٣ حمامًا في مدينة حلب سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م[٢]، وقد أكد ابن شداد أنه فارق حلب في ذلك العام، وعدد الحمامات بها على ما أشار، وأنها برغم كثرتها لا تكفي الحلبيين، وبلغه أنه في الوقت الذي وضع فيه الكتاب تراجع عددها إلى عشرة حمامات ربما بفعل الهجمة التي شنها المغول على مدينة حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م[٣].

وقد قدر ابن الشحنة – الذي زار المدينة بعد الهجمة المغولية بفترة – عدد حمامات حلب بخمسة وأربعين حمامًا، ويمكن تفسير ذلك بأنه تم ترميم بعض الحمامات التي دمرها جيش هولاكو وجدد بعضها الآخر، ومن أبرزها حمام أشقتمر داخل باب النيرب[٤]، وحمام الناصري في أسفل القلعة وقرب سوق الخيل[٥].

ولعل من أهم تلك الحمامات في الحقبة المملوكية حمام يلبغا الناصري الذي يُعد من أجمل حمامات حلب، ويقع أمام البرج الجنوبي لقلعة حلب بعد الخندق. وقد أشار إليه ابن الشحنة باسم الحمام الناصري، ويُرجح تشييده في أوائل حكم المماليك في منتصف القرن الرابع عشر، ولكن لم تقف الباحثة على اسم مؤسسه.

---

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣٤٤ ٢؛ مديرية الآثار: دليل حلبص ٤ ٢٥.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج١ق ص ٣٤ ١٣٥؛ ابن الشحنة: الدر المنتخبص ٣٣ ١. انظر أيضًا: الملحق الخاص بالحمامات والمرفق بقائمة الملاحق.

(٣) شيدت بعد هذه الفترة حمامات جديدة في حلب منها حمام السلطان والبهرمية والذهب والبيلوني وغيرها. أما الحمامان داخل الأسوار وتحديدًا حمام إشيق تيمور وحمام الناصري فلم يشيد في حلب حمامًا يضاهيهما جمالًا وهندسة. انظر: ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج٢، ورقة٢٨ ٤٤؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ج ص ٤٦ ٢؛ الغزي: نهر الذهب، ج ص ٦ ٣.

(٤) تعريف باب النيرب —من أهم أبواب حلب القديمة

نيرب –قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين

(٥) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ج١ص ٣٤ ١٣٥، ٤٦ ٢٤٧.

وعندما تولى الأمير سيف الدين يلبغا الناصري( ) نيابة حلب فإنه جدد الحمام ورممه فحمل اسمه. وعندما دخل المغول حلب بقيادة تيمورلنك عام ١٤٠٠م- ٨٠٣هـ( ) فإنهم قاموا بتدمير الأسوار٢ والأبواب والأبنية المهمة ومن بينها الحمام الناصري. وللحمام واجهه جميلة من الحجر الأصفر والأسود مُشابهًا بذلك طراز المدارس الأيوبية والمملوكية، ويرتفع مدخله الذي تعلوه الصنج الجميلة( )، وتوجد على الجانبين نوآفذ وشرفات عديدة. أما حمام الجوهري فيقع في غربي الشارع المؤدي إلى باب قنسرين، وقد سُمي الجوهري نسبة إلى بانيه الأمير علاء الدين آقبغا الجوهري( ) حاجب حجاب حلب سنة ٧٨٩هـ/١٣٩٧م، والحمام فخم للغاية ويتميز بضخامة أقسامه مع القباب والقمريات والصحن الواسع للخيل( ). ٥

وإضافة إلى ذلك فقد أنشأ الأمير أغلبك( ) حمام أغلبك في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي في باب الأحمر. أما حمام الصالحية فقد بناه الأمير أزدمر بن عبد الله( )نائب حلب سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م بباب المقام( ). ويقع حمام القاضي في باب النصر وقد تأسس هذا الحمام سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م ولم تقف الباحثة على اسم مؤسسه. وثمة حمامات أخرى كثيرة يمكن إجمالها في: حمام الدلبة ويقع بالقرب من سوق الأبرية، وحمام البياضة والذي يقع في محلة البياضة وغيرها الكثير( ). ٩

(١)سيف الدين يلبغا ابن الأمير سيف الدين طابطا الناصري فترة حكمه -(٧٤٨هـ ٧٤٦هـ)(١٣٤٥ – ١٣٤٧م)، (ت ٧٤٨هـ - ١٣٤٧م).الوافي بالوفيات(٩ /٢٢)

(٢) تيمور لنك، فترة حكمه -(٨٠٧هـ ٧٧١هـ)(١٣٦٩م- ١٤٠٤م)، قائداً وزبكي ، مؤسس السلالة التيمورية (٨٠٧هـ ٧٣٦هـ) (١٣٣٥- ١٤٠٤م).

(٣) قطع من الأحجار معشقة في بعضها ومشغولة، معجم البلدان(٥/ ٣٣٠)

(٤) الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد الله اليلبغاوي الجوهري،(٧٩٢هـ -١٣٨٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (١/ ٩٢)

(٥) ابن الشحنة: الدر المنتخب، جـ ص ٣٤ + ٥ ٣ ١.

(٦) الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي ،(ت ٥١٥هـ - ١١٥٦م)، الكامل في التاريخ(١٠/ ٣٧٠)

(٧) الأمير عز الدين أزدمر بن عبدالله العلائي ، (ت ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان(٢٠/ ٤١٩)،

(٨) ابن الشحنة: الدر المنتخب، جـ ص ٦ ٤ ٢.

(٩) ابن الشحنة: الدر المنتخب، جـ ص ٣٠ ٢،٤٦ ٤٧ ٤٢؛ ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ورقة ٤٣.

واهتم نواب حلب أيضًا بإنشاء السبل مثلما اهتموا بإنشاء الحمامات، من ذلك قيام الجوكندار المنصوري الناصري( ) بإنشاء أحد الأسبلة التي لحملت اسمه سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، وأنشأ الأمير منكلي بغا( ) نائب حلب حوضًا للسبيل بجوار جامعه سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م، وما إلى ذلك من الأسبلة التي انتشرت في مدينة حلب( ). ٣

(١) الجوكندرا المنصو ي الناصر ي، (ت ٠٣ ٧هـ – ٣٠٣ ١م).

(٢) الأمير سيف الدين الفخ ي الناصر ي منكلي بغا .

(٣) بيشوف الجرماني: تحف الأنباص ٨ ٥ ١؛ سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، جـ١، ورقة ٨ ٤.

الخاتمة

أهم نتائج الدراسة:

الحمد لله رب العالمين نحمده ونشـــكره على فضـــله ونعمه وتوفيقه حتى خرجت هذه الرســـالة إلى النور، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وقد توصلت الباحثة من دراسة هذا الموضوع إلى مجموعة من النتائج المهمة، منها:

– تمركز بعض القوى على حدود حلب من الشمال والشرق، وهم التركمان الذين تذبذبوا بين العصيان والطاعة طوال العصر المملوكي، وكانت تلك القوى في حالة صراع دائم فيما بينها الأمر الذي انعكس على حدود نيابة حلب من جهة، فضلًا عن حدوث حالة من عدم الاستقرار التي كانت تؤثر على الحلبيين، فتتسبب في تعرضهم للخسارة المادية وربما البشرية ومن ثَّم هجرة بعضهم عن حلب، وخاصة مع مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

– تألف المجتمع الحلبي من المماليك بصفتهم الطبقة الحاكمة، وقد اتسم وجودهم في حلب بالانعزال عن بقية المجتمع الحلبي تقريبًا، وهؤلاء شكلوا الجهاز السياسي والإداري والعسكري في حلب، وتولوا أهم المناصب في حلب. وتألف المجتمع الحلبي أيضًا من طبقة العامة صاحبة البلاد الحقيقية، ومنهم التجار والعلماء والفقهاء والفلاحون والحرفيون والحرافيش والرعاة وغيرهم، وكان لبعضهم أصول قبلية وخاصة في المناطق الريفية. وهكذا تدرج الهرم الاجتماعي في حلب بصورة مُلفتة، حيث وقف في أعلاه النائب وكبار أمراء المماليك، ويليهم في التدرج – من طبقة العامة – العلماء والشيوخ والقضاة ثم بقية شرائح طبقة العامة.

– اتضح للباحثة أن التعليم الديني كان المنفذ الأهم الذي منح كثير من المتعلمين من أبناء العامة، وخاصة من سلك درب القضاة والفقهاء مكانة اجتماعية مرموقة في ظل مجتمع طبقي لم يسمح بالمرونة في الانتقال بين الطبقات والشرائح الاجتماعية.

– لعب القضاة والعلماء دورًا كبيرًا في حلب على محورين: تمثل أولهما في تنفيذ سياسة السلطنة في السيطرة على العامة وسلبهم حقوقهم ومنعهم من التحرك ضد السلطنة؛ مما أثر على هؤلاء العامة وأضعفهم وحرمهم من حقوقهم وسلبهم من موارد حياتهم، بينما تمثل الحور الآخر في التصدي لظلم بعض النواب وجورهم على الأوقاف وعلى العلماء والقضاة أنفسهم والعامة أحيانًا حتى وإن كانت على نطاق ضيق.

– لم يُشكل التجار قوة مُستقلة وإنما كانوا مجرد عُملاء للنائب أو للسلطان، وربما كانوا من شيوخ القبائل العربية المتحالفة بطبيعة الحال من الشريحة الحاكمة في النيابة، أو مع المماليك، مما يعني أن عائدات التجارة والأرباح التي حققوها كانت جزءًا من موارد السلطنة، وقد نتج عن ذلك حرمان العامة من الإفادة من عوائد التجارة هي الأخرى.

– تنوعت عناصر السكان في حلب ما بين عرب وعربان وتركمان وأكراد وأرمن، وانقسم هؤلاء حسب دينهم إلى مسلمين ومسيحيين ويهود، وهؤلاء توزعوا على مذاهبهم الدينية المختلفة والمتنوعة. وعاش بعضهم في المدينة وبعضهم الآخر خارجها، ولم تقف الباحثة على أي حوادث ذات صبغة اجتماعية من حوادث الفتن الطائفية أو العرقية وما سواها، وعاشت الطبقات الاجتماعية بعضها إلى جوار بعض في ود ملحوظ.

– توصلت الباحثة إلى أن التنوع السكاني الذي نعمت به حلب سواء من حيث عناصرهم وأجناسهم أم ديانتهم ومذاهبهم وميولهم، ساعد على نشاط الحياة الاجتماعية، ومن ثمَّ الاقتصادية في المدينة، وذلك لما مارسته كل فئة من عناصرها من مهن معينة في حارة خاصة بها، مما وطد من أواصر العلاقات والروابط الاجتماعية بين تلك الحارات وأسهم في انتعاش الحياة في مدينة حلب.

– بالرغم من سكنى بعض عناصر السكان في حارات خاصة بهم، مثل التركمان والأرمن والمسيحيين واليهود فإنهم لم ينغلقوا على أنفسهم ولم يغلقوا بابهم دون التواصل مع جيرانهم من المسلمين وغير المسلمين مثلما وطد من أواصر العلاقات بينهم في الحارات التي سكنوا فيها.

– أفرزت البيئة الحلبية بعض العادات والتقاليد ووسائل التسلية والترفيه التي ميزتها عن نيابات سلطنة المماليك عامة ونيابات الشام؛ خاصة وذلك نتيجة لتعدد الأجناس العرقية والطوائف السكانية المتنوعة والفئات الدينية الثلاث، حيث عبرت تلك العادات والتقاليد عن التداخل والثراء الاجتماعي في المجتمع الحلبي، واستدعت وجود تنظيمات سكانية مختلفة على ما استدعته الظروف الاجتماعية في مدينة حلب. وقد تمثلت أهم وسائل التسلية والترفيه في الألعاب الرياضية وخاصة العسكرية التي مارسها أمراء المماليك على نحو خاص، والتردد على الحمامات العامة والساحات والمتنزهات والعزف والغناء وألعاب الأطفال المختلفة وغيرها.

– تعرضت مدينة حلب في تلك الحقبة إلى حوادث طبيعية كثيرة مثل الزلازل التي اجتاحتها، وموجات الجراد التي انتشرت بها، والطاعون الذي ضربها على فترات مختلفة وأثر في أعداد سكانها، ناهيك عن موجات الغلاء

التي تأثرت بالعوامل الطبيعية والسياسية التي أضرت بالحلبيين وبمدينتهم في الفترة قيد الدراسة. وبالرغم من ذلك فقد أثبتت مدينة حلب وجودها وتغلبت على كافة الصعوبات التي مرت عليها، وحافظت على كيانها بصفتها ثالث مدينة بعد القاهرة ودمشق في السلطنة المملوكية، وثاني أهم مدينة في بلاد الشام بعد مدينة دمشق، وتفوقت أحيانًا على دمشق في بعض النواحي الاجتماعية، وخاصة المساكن والأبنية الحجرية المتعددة الطوابق.

– لم ينجم استقرار مدينة حلب واستمرارها عن فراغ؛ لأن تعرض المدينة للأخطار المحيطة بها من كل جانب مع إصرارها على البقاء ما هو إلا دليل حي وملموس على تماسك البنية الاجتماعية الداخلية في المدينة، وهي بينة تعرف في المصطلحات المعاصرة على أنها واحدة من أهم عناصر قوة الأمن القومي في المجتمعات الحديثة، ويكفل وجودها الحفاظ على تماسك المجتمع واستقراره واستمراره أمام الأخطار التي أحاطت بحلب في العصر المملوكي.

الملاحق

ملحق رقم (١)

جدول يوضح أهم حمامات حلب، وفقًا لإحصاء ابن شداد[١]

م	المكان	عدد الحمامات
	حاضر حلب	٢٨
	الياروقية	٣
	الحلبة	٣
	خارج باب الجنان	٧
	المقام	١١
	خارج باب أنطاكية	٦
	البساتين	٢٤
	الرمادة وبانقوسا	١١
	المجموع	٩٣

(١) نقلًا عن: جورج ط ود: مدينة حلبص ٠ ٩- ١ ٩٠

ملحق رقم (٢)

جدول بنواب حلب في العصر المملوكي( ) ١

م	اسم النائب	تاريخ تعيين النائب
١	الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ	٦٥٨هـ/١٢٦٠م
٢	حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزي	٦٥٩هـ/١٢٦٠-١٢٦١م
٣	علم الدين سنجر الحلبي	٦٥٩هـ/١٢٦١م
٤	شمس الدين سنقر الرومي	٦٦٠هـ/١٢٦١-١٢٦٢م
٥	علاء الدين أيدكين الشهابي	٦٦٠هـ/١٢٦٢م
٦	نورالدين علي بن مجلي	٦٣٣هـ/١٢٦٤-١٢٧٥م
٧	علاء الدين أيدغدي الكبكي	٦٧٧هـ/١٢٧٨-١٢٧٩م
٨	جمال الدين آقوش الشمسي	٦٧٨هـ/١٢٧٩-١٢٨٠م
٩	علم الدين سنجر الباشقردي	٦٧٩هـ/١٢٨٠-١٢٨١م
١٠	شمس الدين قره سنقر الجوكندار الشمسي	٦٨١هـ/١٢٨٢-١٢٨٣م
١١	سيف الدين بليان الطباخي	٦٩١هـ/١٢٩٢م
١٢	شمس الدين قرا سنقر	٦٩٩هـ/١٢٩٩-١٣٠٠م
١٣	سيف الدين قبجق	٧٠٩هـ/١٣٠٩-١٣١٠م
١٤	أسندمر	٧١٠هـ/١٣١٠-١٣١١م
١٥	شمس الدين قراسنقر	٧١١هـ/١٣١١-١٣١٢م
١٦	سيف الدين سودي الجمدار الأشرفي	٧١٢ هـ/١٣١٢-١٣١٣م
١٧	علاء الدين الطنبغا	٧١٤هـ/١٣١٤م

(١) نقلًا عن: عادل عبد الحافظ حمزة: نيابة حلب، جـ١ ص ٣٠١ ٣٠٦.

١٨	المقر السيفي أرغون الناصري	٧٢٧هـ/١٣٢٧م
١٩	علاء الدين الطنبغا	٧٣١هـ/١٣٣١م
٢٠	سيف الدين طرغاي	٧٣٩هـ/١٣٣٨م
٢١	طشتمر	٧٤١هـ/١٣٤٠-١٣٤١م
٢٢	أيدغمش الناصري	٧٤٢هـ/١٣٤٣م
٢٣	طقز تمر	٧٤٣هـ/١٣٤٢م
٢٤	علاء الدين الطنبغا الماردیني	٧٤٣هـ/١٣٤٣م
٢٥	يلبغا اليحياوي	٧٤٤هـ/١٣٤٣م
٢٦	سيف الدين أرقطاي	٧٤٦هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م
٢٧	سيف الدين طقتمر البدري	٧٤٧هـ/١٣٤٦م
٢٨	أرغون شاه الناصري	٧٤٨هـ/١٣٤٧-١٣٤٨م
٢٩	فخر الدين إياز	٧٤٨هـ/١٣٤٧-١٣٤٨م
٣٠	أرقطاي الناصري	٧٤٨هـ/١٣٤٧م
٣١	قطليجا الحموي	٧٥٠هـ/١٣٤٩-١٣٥٠م
٣١	سيف الدين أرغون الكاملي	٧٥٠ هـ/١٣٤٩-١٣٥٠م
٣٣	سيف الدين بيبغاروس القاسمي	٧٥٢هـ/١٣٥١-١٣٥٢م
٣٤	سيف الدين أرغون الكاملي	٧٥٣هـ/١٣٥٢-١٣٥٣
٣٥	سيف الدين طاز الناصري	٧٥٥هـ/١٣٥٤م
٣٦	سيف الدين منجك الناصري	٧٥٩هـ/١٣٥٨م
٣٧	علاء الدين الماردیني	٧٥٩هـ/١٣٥٨م
٣٨	سيف الدين بكتمر المومني	٧٦٠هـ/١٣٥٨-١٣٥٩م
٣٩	سيف الدين بيدمر الخوارزمي	٧٦٠هـ/١٣٥٨-١٣٥٩م

٤٠	شهاب الدين أحمد بن القشتمري	٧٦١هـ/١٣٥٩-١٣٦٠م
٤١	سيف الدين قطلوبغا الحمدي	٧٦٢هـ/١٣٦٠-١٣٦١م
٤٢	سيف الدين أشقتمر المارديني	٧٦٥هـ/١٣٦٣-١٣٦٤م
٤٣	سيف الدين جرجي	٧٦٦هـ/١٣٦٤-١٣٦٥م
٤٤	سيف الدين منكلي بغا الشمسي	٧٦٧هـ/١٣٦٥-١٣٦٦م
٤٥	علاء الدين طنبغا الطويل الناصري	٧٦٩هـ/١٣٦٧-١٣٦٨م
٤٦	سيف الدين أشن بغا بن أبي بكر	٧٧٠هـ/١٣٦٨-١٣٦٩م
٤٧	سيف الدين قشتمر المنصوري	٧٧٠هـ/١٣٦٨-١٣٦٩م
٤٨	سيف الدين أشقتمر المارديني	٧٧١هـ/١٣٦٩-١٣٧٠م
٤٩	عزالدين أيدمر الدوادار الناصري	٧٧٣هـ/١٣٧١-١٣٧٢م
٥٠	سيف الدين أشقتمر المارديني	٧٧٤هـ/١٣٧٢-١٣٧٣م
٥١	سيف الدين بيدمر الخوارزمي	٧٧٥هـ/١٣٧٣-١٣٧٤م
٥٢	سيف الدين أشقتمر المارديني	٧٧٥هـ/١٣٧٣-١٣٧٤م
٥٣	سيف الدين منكلي بغا الأحمدي	٧٨٠هـ/١٣٧٨-١٣٧٩م
٥٤	سيف الدين أشقتمر المارديني	٧٨٠هـ/١٣٧٨-١٣٧٩م
٥٥	سيف الدين تمرباش التمرداشي	٧٨١هـ/١٣٧٩-١٣٨٠م
٥٦	سيف الدين منكلي بغا الأحمدي	٧٨١هـ/١٣٧٩-١٣٨٠م
٥٧	سيف الدين إينال اليوسفي	٧٨٣هـ/١٣٨١-١٣٨٢م
٥٨	سيف الدين يلبغا الناصري	٧٨٣هـ/١٣٨١-١٣٨٢م
٥٩	سيف الدين سودون المظفري	٧٨٧هـ/١٣٨٥-١٣٨٦م
٦٠	سيف الدين يلبغا الناصري	٧٨٨هـ/١٣٨٦-١٣٨٧م
٦١	كمشبغا الحموي	٧٩٢هـ/١٣٨٩-١٣٩٠م

٦٢	سيف الدين قرادمرداش الأحمدي	٧٩٢هـ/١٣٨٩-١٣٩٠م
٦٣	سيف الدين تغري بردي	٧٩٦هـ/١٣٩٣-١٣٩٤م
٦٤	سيف الدين بن غوري شاه الإبراهيمي الظاهري	٧٩٩هـ/١٣٩٦-١٣٩٧م
٦٥	أقبغا الأطروشي الجمالي الهدباني	٨٠٠هـ/١٣٩٧-١٣٩٨م
٦٦	دقماق	٨٠٤هـ/١٤٠١-١٤٠٢م
٦٧	دمرداش المحمدي الخاصكي	٨٠٠هـ/١٣٩٧-١٣٩٨م
٦٨	أقبغا الأطروشي الجمالي الهذباني	٨٠٦هـ/١٤٠٣م
٦٩	دمرداش المحمدي الخاصكي	٨٠٦هـ/١٤٠٤م
٧٠	جكم	٨٠٦هـ/١٤٠٤م
٧١	دمرداش المحمدي الخاصكي	٨٠٦هـ/١٤٠٤م
٧٢	جركس القاسمي	٨٠٩هـ/١٤٠٦-١٤٠٧م
٧٣	نوروز بان	٨١٢هـ/١٤٠٩م
٧٤	قرقماش	٨١٢هـ/١٤٠٩م
٧٥	شيخ	٨١٢هـ/١٤٠٩م
٧٦	إينال الصصلاني	٨١٢هـ/١٤٠٩م
٧٧	أقباي الدوادار	٨١٢هـ/١٤٠٩م
٧٨	قجقار القردمي	٨٢٠هـ/١٤١٧م
٧٩	يشبك اليوسفي	٨٢٠هـ/١٤١٧م
٨٠	إينال الجكمي	٨٢٠هـ/١٤١٧-١٤١٨م
٨١	قاني بك البجاسي	٨٢٦هـ/١٤٢٣م
٨٢	قطلو	٨٢٩هـ/١٤٢٥-١٤٢٦م
٨٣	جار قطلو	٨٣٠هـ/١٤٢٦م

٨٤	قصروه	٨٣٠هـ/١٤٢٦م
٨٥	قرقماس الشعباني	٨٣٧هـ/١٤٣٧م
٨٦	إينال الجكمي	٨٣٩هـ/١٤٣٥-١٤٣٦م
٨٧	تغري برمش التركماني	٨٣٩هـ/١٤٣٥-١٤٣٦م
٨٨	قاني باي الحمزاوي	٨٤٣هـ/١٤٣٩-١٤٤٠م
٨٩	تغري بردي الجركسي	٨٤٩هـ/١٤٤٥-١٤٤٦م
٩٠	آق بردي الساقي الخاصكي	٨٥١هـ/١٤٤٧م
٩١	قاني باي البهلوان	٨٥١هـ/١٤٤٧م
٩٢	برسباي الناصري	٨٥١هـ/١٤٤٧م
٩٣	تنم	٨٥٢هـ/١٤٤٨م
٩٤	قاني باي الحمزاوي	٨٥٢هـ/١٤٤٨م
٩٥	جانم الأشرفي	٨٥٩هـ/١٤٥٥م
٩٦	إينال اليشبكي	٨٦٣هـ/١٤٥٩م
٩٧	ابن جبارة	٨٦٤هـ/١٤٥٩-١٤٦٠م
٩٨	جاني بك الناجي	٨٦٦هـ/١٤٦١-١٤٦٢م
٩٩	بردبك الجمدار	٨٦٨هـ/١٤٦٤م
١٠٠	يشبك البجاسي	٨٧١هـ/١٤٦٦-١٤٦٧م
١٠١	قانصوه اليحياوي	٨٧٤هـ/١٤٦٩-١٤٧٠م
١٠٢	أزدمر بن مزيد	٨٨٤هـ/١٤٧٩-١٤٨٠م
١٠٣	وردبش	٨٨٤هـ/١٤٧٩-١٤٨٠م
١٠٤	أزدمير	٨٨٩هـ/١٤٨٤م
١٠٥	أينال السلحدار	٨٨٩هـ/١٤٨٤م

١٠٦	جان بلاط	٩٠٣هـ/١٤٩٧م
١٠٧	قصروه بن أينال	٩٠٤هـ/١٤٩٨-١٤٩٩م
١٠٨	دولات باي بن أركماش	٩٠٤هـ/١٤٩٨-١٤٩٩م
١٠٩	قرقماش بن ولي الدين	٩٠٥هـ/١٥٠٠م
١١٠	أركماش بن ولي الدين	٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م
١١١	سيباي	٩٠٨هـ/١٥٠٢-١٥٠٣م
١١٢	خاير بك	٩١٠هـ/١٥٠٤-١٥٠٥م

ملحق رقم (٣)

أهم الوظائف الإدارية في نيابة حلب مقارنة بنيابات الشام[١]

اسم المدينة	عدد وظائف أرباب السيوف	أرباب القلم	وظائف دينية
دمشق	٢١	١٨	١٠
حلب	٢٢	٨	١١
طرابلس	١٢	٥	١٢
حماة	١٢	٥	٧
صفد	١٢	٥	١٢
الكرك	٤	٣	–

(١) نقلًا عن: جورج ط ود: مدينة حلبص ٢ ١ ١.

ملحق رقم (٤)

خريطة لمدينة حلب وما حولها[١]

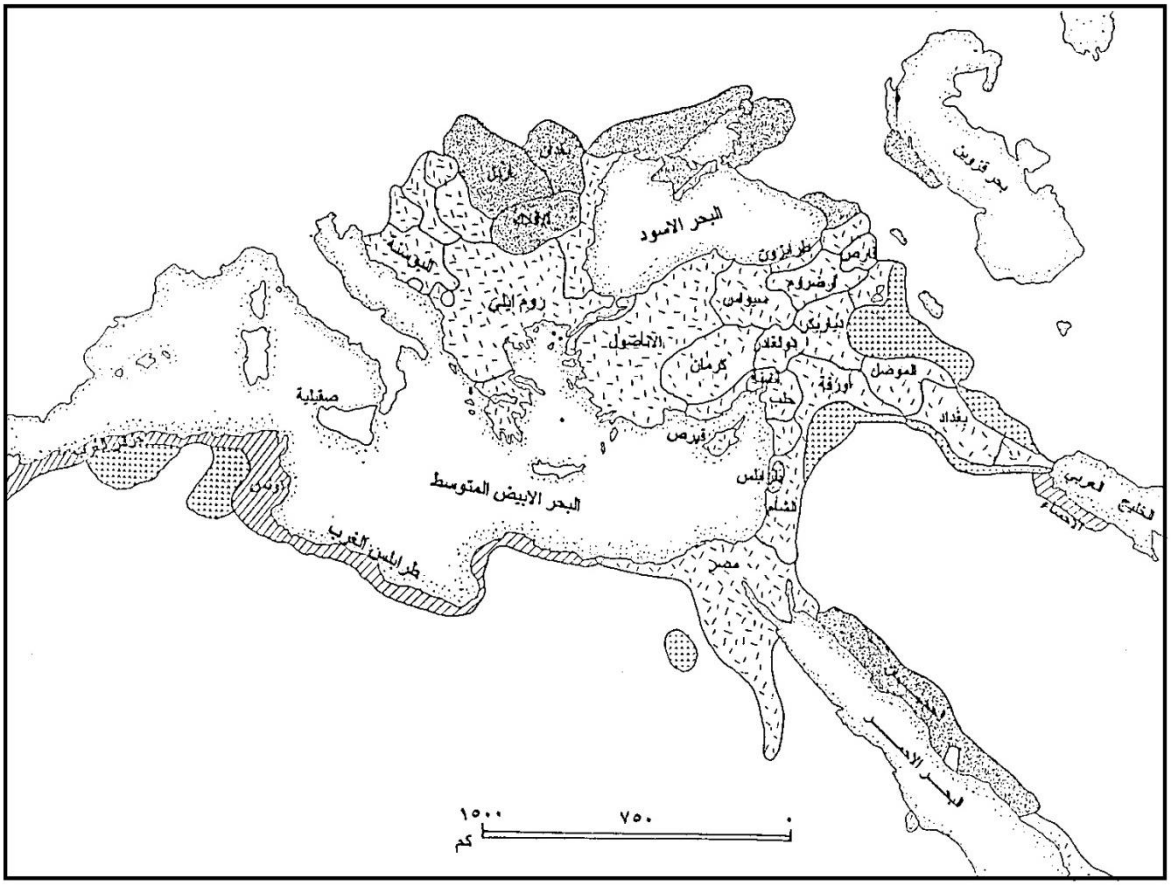

(١) نقلًا عن: يوسف محمد سالم: تاريخ الحياة الاجتماعية في مدينة حلبص ٦ ٣ ٢.

ملحق رقم (٥)

مدينة حلب في العصر المملوكي( ) ١

(١) نقلًا عن: كمال بدور: حلب في العصر المملوكي ص ٨ ٤ ١.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المخطوطات:

١. ابن خطيب الناصرية، الحسن علاء الدين (ت: ٨٤٣هـ/١٤٣٩م): الدر المنتخب في تاريخ حلب، جـ٢، مخطوط بمكتبة دار الأوقاف الإسلامية، حلب، رقم ١٢١٢، ورقة ١٤٧. وقد اعتمدت على نسخة مصورة من المخطوطة ذاتها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٥٠ تاريخ..

٢. سبط بن العجمي، أبو ذر أحمد بن البرهان الحلبي (ت: ٨٤٤هـ/١٤٧٩-١٤٨٠م): كنوز الذهب في تاريخ حلب، مخطوط بدار الكتب المصرية في ثلاثة أجزاء، بأرقام: ٤٠٩٨١، ٤١٠٢٩، ٣٨٣٠٤.

ثانيًا: المصادر العربية:

١) ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي (ت: ٧٩٢هـ/١٣٢٩م): معالم القربة في أحكام الحسبة، نقله وصححه: رون ليو، مطبعة دار الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.

٢) ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت: ٦٦٨هـ/١٢٦٦م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

٣) ابن إياس، محمد بن أحمد (ت: ٩٣٠هـ/١٥٢٤م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، المنشورات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية في القاهرة، ١٩٦٠-١٩٧٤م.

٤) ابن أيبك الدوداري، أبو بكر عبد الله (ت: ٧٣٣هـ/١٣٢١م): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أولوخ هارمان، جـ١، ق٨، المعهد الألماني، القاهرة، ١٩٧١م.

٥) ابن بطوطة، محمد عبد الله اللواتي (ت: ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، ١٩٨٥م.

٦) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: جمال محمد وفهيم شلتوت، جـ١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

٧) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت:٨٧٤هـ/١٤٧٠م): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين ونبيل محمد عبد العزيز، جـ١، القاهرة، ١٨٨٤-١٩٨٥م.

٨) ابن حبيب: ديوان الإمام المؤرخ الأديب ابن حبيب الحلبي، جمع وتوثيق وتقديم: حسن محمد عبد الهادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

٩) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: ٨٥٣هـ/١٤٤٩م): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، جـ٥، ط٢، القاهرة، ١٩٦١-١٩٦٧م.

١٠) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت:٨٥٣هـ/١٤٤٩م): أنباء الغمر بأبناء العمر، جـ٢، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، ١٩٦٧-١٩٦٨م.

١١) ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت: ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، جـ٣، بيروت – دار صادر، ١٩٧٠م.

١٢) خليل الحلبي، شمس الدين محمد بن محمود المعروف بابن أجا (٨٨١هـ/١٤٧٦-١٤٧٧م): تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٧٣م.

١٣) رضي الدين الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي (ت: ٩٠٨هـ/١٥٠٣م): در الحبب في أعيان حلب، تحقيق: محمود حمد الفاخوري، جـ٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢م.

١٤) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت:٧٧١هـ/١٣٦٩م): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد على النجار وأبو زيد شلبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.

١٥) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ت: محمد على النجار وغيره، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٦) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان (ت:٩٠٢هـ/١٤٩٧م): التبر المسبوك على ذيل السلوك، بولاق، ١٨٩٦م.

١٧) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ٣، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٩٣٦-١٩٣٨م.

١٨) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت:٦٦٥هـ): الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمد حلمي محمد، جـ١، ق٢، القاهرة، ١٩٦٢م.

١٩) ابن شاهين، غرس الدين خليل (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٨م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ت: بولس روايس، باريس، ١٨٩٤م.

٢٠) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٨م): زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٨٤م.

٢١) ابن شداد، عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم عز الدين (ت: ٦٨٤هـ/١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: الأب شارل لودي، جـ١، ق١، نشر بمجلة الشرق، بيروت، ١٩٣٥م.

٢٢) ابن الشحنة، أبو الوليد الحلبي (ت: ٨٠٦هـ/١٤٠٣-١٤٠٤م): روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، بهامش كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، جـ١١، ١٢، مصر، ١٣٠٣هـ.

٢٣) ابن الشحنة، محب الدين أبو الفضل (ت: ٨٩٠هـ/١٤٨٥م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشره: يوسف سركيس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٩م.

٢٤) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ت: السيد الباز العريني، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، ١٩٤٦م.

٢٥) الصيرفي، علي بن داوود الخطيب الجوهري (ت:٩٠٠هـ/١٤٩٤م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، جـ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م-١٩٧٣م.

٢٦) الطباخ، محمد راغب: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ٣، المطبعة العلمية، ١٩٢٦م.

٢٧) ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن طولون (ت: ٩٥٧هـ/١٥٥٠م): مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، جـ١، القاهرة، ١٩٦٢-١٩٦٤م.

٢٨) ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ/١٢٦١م): بغية الطلب في تاريخ حلب، جـ١، دمشق.

٢٩) العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد (ت: ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ٧، مكتبة القدس، ١٣٥٠هـ.

٣٠) ابن العميد، المكين جرجس بن العميد(٦٧٢هـ/١٢٧٣م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مجلد ٧، دار ابن كثير، دمشق – بيروت.

٣١) الغزي، نجم الدين الغزي (ت: ١٠٦١هـ/١٦٥١م): الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، جـ١، بيروت، ١٩٤٥م.

٣٢) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل صاحب حماة (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، جـ٤، بيروت، (د.ت).

٣٣) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت:٨٠٧هـ/١٤٠٥م): تاريخ ابن الفرات (الدول والملوك)، تحقيق: قسطنطين رزيق، جـ٩، بيروت، ١٩٣٦م.

٣٤) ابن فضل الله العمري، أبو العباس أحمد بن يحي (ت: ٧٤٢هـ/١٣٤١م): التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة القاهرة، ١٨٩٤م.

٣٥) ابن قاضي شهبة، تقي الدين أحمد (ت: ٨٥١هـ/١٤٤٨م): تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م.

٣٦) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن القلانسي (ت: ٥٥٠هـ/١١٥٥م): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: أمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

٣٧) القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت:٨٣١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣٨) الكتبي، محمد بن شاكر (ت:٧٦٤هـ/١٣٦٢-١٣٦٣م): عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة داوود، جـ٢١، العراق، ١٩٨٤م.

٣٩) مفضل ابن أبي الفضائل، المفضل (ت: ٧٥٩هـ/١٣٤٨م): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد ابن العميد، دار لكتب الوطنية، حلب، ١٩٣٧م.

٤٠) المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة (الأجزاء جـ١، ٢، سنوات ١٩٥٦-١٩٥٨) وسعيد عاشور (الأجزاء ٣، ٤ سنوات ١٩٧٠-١٩٧١م) لجنة التأليف والترجمة والنشر، جـ٤، القاهرة، ١٩٥٦-١٩٥٨.

٤١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت:٨٤٥هـ/١٤٤٢م): إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشره: محمد مصطفى وجمال الدين الشيال، ط،٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت: ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، جـ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٣) ابن ناظر الجيش، عبد الرحمن بن محمد التميمي الحلبي (ت:٧٨٦هـ/١٣٨٤م): تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: رودلف فسلي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م.

٤٤) النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب (ت:٧٣٢هـ/١٣٣١م): نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٦، القاهرة، ١٩٧٦م.

٤٥) ابن الوردي، عمر بن مظفر الدين بن محمد بن أبي الفوارس (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهبية، ١٨٤٢م.

٤٦) ابن الوردي، عمر بن مظفر الدين بن محمد بن أبي الفوارس (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م): تتمة المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، ، ١٣٢٥هـ.

٤٧) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، جـ٣، مكتبة الأسدي، طهران، ١٩٦٥م.

٤٨) اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد الحنبلي (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرأة الزمان، جـ٢، حيدر آباد، الهند، ١٩٥٤-١٩٦١م.

ثالثًا: المراجع العربية والمعربة:

١) إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢) أحمد عبد الرازق: المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٣) أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

٤) إسحاق أرملة: "القرى السريانية في مدن سويا"، مجلة الشرق، ١٩٨٠م.

٥) أسعد الهاشمي: "قلعة حلب"، مجلة العمران، عدد٢.

٦) البيومي إسماعيل الشربيني: مصادرات الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، جـ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

٧) السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت.

٨) أنور دويدري: البيمارستانات في حلب، مجلة عاديات حلب، عدد١، ١٩٧٥م.

٩) إيرا إم لابيدوس: مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.

١٠) بيشوف الجرماني: تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء، بيروت، ١٨٨٠م.

١١) جرجس منش الماروني: "موارنة حلب الشهباء"، مجلة المشرق، ١٩٠٣م.

١٢) جريجي زيدان: استبداد المماليك، دار الجيل، بيروت، لبنان.

١٣) جورج فريد طريف داود: مدينة حلب في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٧٧م.

١٤) حجازي عبد المنعم سليمان: "إسهامات المغاربة والأندلسيين في الطب في مصر والشام في القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين"، ضمن إصدار المؤتمر العلمي الأول

لجامعة الإمام بالرياض بعنوان تاريخ العلوم التطبيقية والطبية عن العرب والمسلمين، جـ٣، مايو، ٢٠١٧م.

١٥) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٦) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك، جامعة الكويت، ١٩٩٧م.

١٧) خير الدين الأسدي: أحياء حلب وأسواقها، تحقيق: عبد الفتاح قلعه جي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦م.

١٨) زياد عبد العزيز المدني: مدينة حلب العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، لعلاء الدين أبي الحسن ابن خطيب الناصرية، دراسة قدمت لاستكمال متطلبات درجة الماجستير، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٨٣م.

١٩) سعد زغلول الكواكبي: "الحمامات في حلب عبر التاريخ والأدب"، مجلة عاديات حلب، جامعة حلب، حلب، عدد٢، ١٩٧٦م.

٢٠) سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، بيروت، ١٩٧٢م.

٢١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٢) سليم عادل عبد الحق: "إسهام في دراسة الزجاج الإسلامي بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلادي"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٥٨-١٩٥٩م.

٢٣) سيمينوفا (ل.أ.): صلاح الدين والمماليك في مصر، ترجمة: حسن بيومي، هيئة تحرير الآداب الشرقية التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو، ١٩٦٦م.

٢٤) عادل عبد اللطيف حمزة: نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، جـ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٥) عبد الخالق حسين: النظم القضائية في عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٦) عبد الرحمن حميدة: محافظة حلب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

٢٧) عفاف سيد صبره: "دور الفقهاء وعلماء المسلمين في جهاد الصليبيين"، بحث منشور في كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٨٥م.

٢٨) علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وعهد الناصر محمد بوجه خاص، دار النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٨م.

٢٩) قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨م.

٣٠) كمال بدور: حلب في العصر المملوكي الأول، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، ٢٠٠٢م.

٣١) لطفي أحمد نصار: وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٣٢) ليلى الصباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣م.

٣٣) ليلى عبد الجواد إسماعيل: "أضواء على الأكراد الهكارية في عصر صلاح الدين الأيوبي"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ٦١، ١٩٩٤م.

٣٤) محمد أسعد طلس: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٦٨م.

٣٥) محمد بن عيسى بن كنان الصالحي الدمشقي: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق: حكمة إسماعيل، ق٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

٣٦) محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣٧) محمد كامل فارس: "الرنوك في حلب"، مجلة عاديات حلب، ١٩٧٦م.

٣٨) محمد كرد علي: خطط الشام، ج٤، دمشق، ١٩٢٥-١٩٢٨م.

٣٩) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية، القاهرة، ١٩٨٠م.

٤٠) محمود شلبي: حياة الملك الظاهر بيبرس الأسد الضاري قاهر التتار ومدمر الصليبيين، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

٤١) محمود نديم أحمد فهيم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

٤٢) مصطفى الحياري: الإمارة الطائية في بلاد الشام، منشورات وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧م.

٤٣) منصور محمد عبد الرازق معوض: الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي وحتى نهاية العصر العثماني، دراسة آثارية مقارنة، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ٢٠١٤م.

٤٤) نيقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٢م.

٤٥)وليم موير: دولة المماليك الأولى في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة.